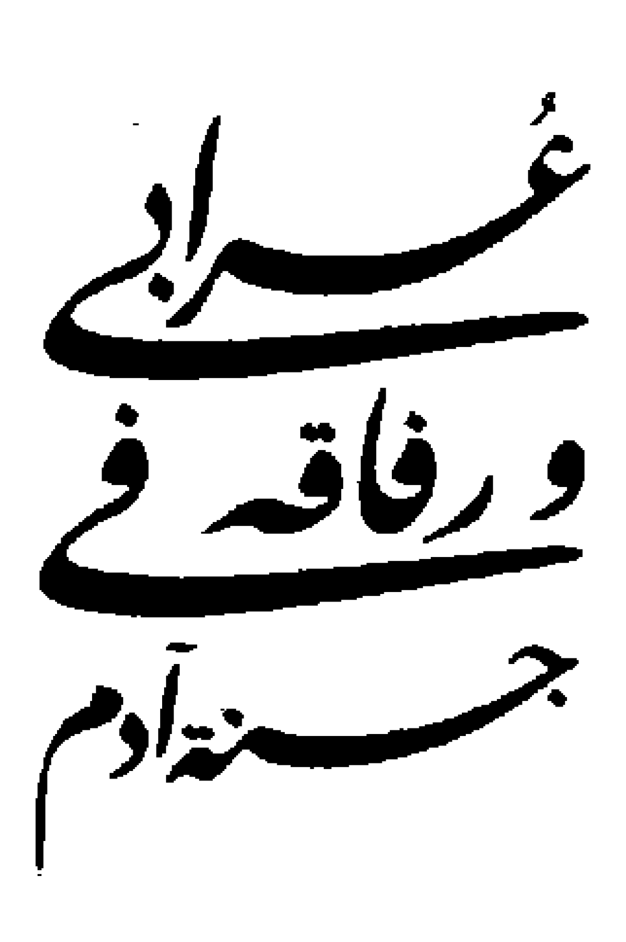


عرابي ورفاقه في جنة آدم

دراسة وثائقية

لطيفة محمد سالم

دار الشروق


عُرابي
ورفاقه في
جنة آدم

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٧٣٥٩

ISBN 978-977-09-2359-2

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

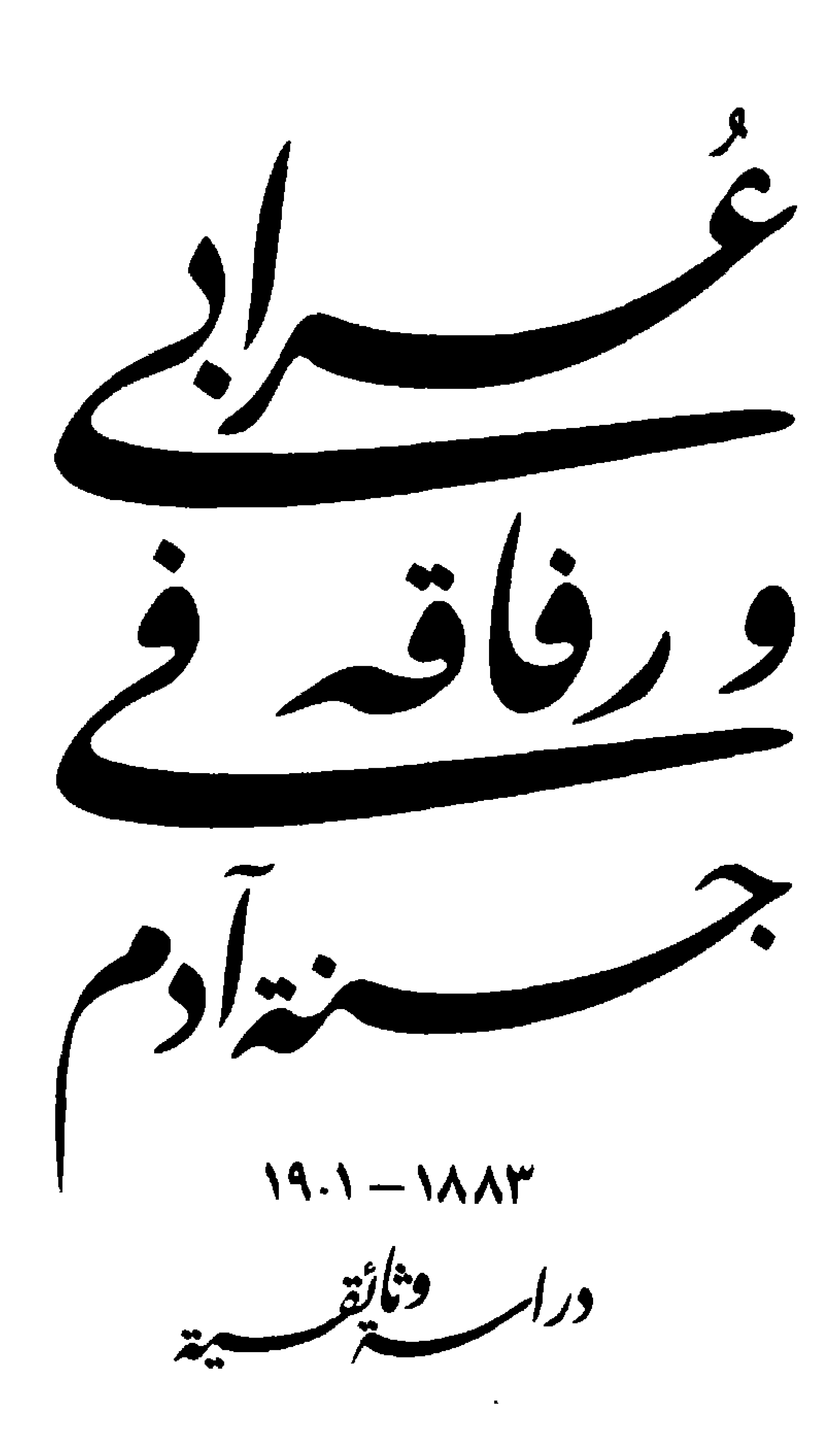
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

د. لطيفة محمد سالم



دار الشروق

المحتويات

المقدمـــة

لم تكن مصر بمنأى عن الثورة بدءا من العصور القديمة ومرورا بالعصور الإسلامية ووصولا إلى العصر الحديث، وتحفظ لنا سجلات التاريخ كيف هبَّ المصريون فى مواجهة الطغاة. وقد اختلفت نوعية ثوراتهم، وإن كان معظمها ضد المعتدين الأجانب، وضح ذلك وقت الغزو الفرنسى عام ١٧٩٨ ثم الغزو البريطانى عام ١٨٠٧. واتخذ الرفض والاحتجاج الصور العديدة منذ حكم محمد على، ولكن مع بدايات عام ١٨٨١ أصبح مفهوم الثورة جليا، حيث تلاحقت الأحداث بعد واقعة قصر النيل (أول فبراير)، وهو التاريخ الذى يُؤرخ به للثورة العرابية؛ أول ثورة دستورية فى المنطقة بأكملها.

لقد بدأ الانطلاق على يد العسكريين بزعامة أحمد عرابى، وامتد ليضم بين جناحيه الكثير من قوى المجتمع وشرائحه. ورغم تضارب المصالح، فإن الهدف كان واحدًا، وتمثَّل فى ضرورة التغيير عن طريق الإطاحة بالأوضاع القائمة بعد أن أصبح الخديو خاضعًا لمشيئة التدخل الأجنبى الأوربى الذى بدأ اقتصاديًا،وما لبث أن زحف على السياسة، وذلك التحكم العنصرى الذى حمل لواءه الچراكسة والأتراك، وتلك الهوة السحيقة بين علية القوم من كبار ملاك الأراضى وباقى أفراد المجتمع الذى عاش فى كنفه الفلاحون والحرفيون وصغار التجار يعانون من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية. وتولى المثقفون بلورة الرأى العام، ونجحوا فى تعبئة المصريين للثورة، فشاركوا فيها بكل طاقاتهم، وجاءت النتيجة إيجابية، إذ لم يمض إلا الوقت القصير، وكانت مصر تمر بمرحلة اختلفت بجميع المقاييس عمّا سبقها.

وبطبيعة الحال، لم يكن ما يحدث على أرض مصر ترضى عنه الأطماع الإمبريالية أثناء زمن سيطرت فيه على العالم القديم. ووجد التعاون الأنجلو فرنسى صداه، وذلك

عندما تحرك لوأد الثورة، ونفَّذت بريطانيا مخططها، وحاربت مصر بشتى الوسائل، والنتيجة هزيمة الطرف الضعيف، حيث تداخلت كذلك عوامل داخلية ساعدت على إجهاض الثورة، فلم تتمكن من مواصلة المقاومة والصمود أمام الظروف الصعبة التى واجهتها، وتم الاحتلال البريطانى لمصر فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢.

وقبض على الثوَّار لتقديمهم للمحاكمة، وامتلأت سجون مصر بهم، وصدرت الأحكام المختلفة عليهم، وكان فى مقدمة من وقع تحت عقوبة النفى إلى سيلان ـ تُعرف أيضا باسم سرنديب وهى سيريلانكا حاليًا ـ عرابى ورفاقه (على فهمى، عبد العال حلمى، محمود سامى البارودى، يعقوب سامى، محمود فهمى، طلبة عصمت) الذين كانوا وقت الثورة فى عنفوان قوتهم التى خبت مع الهزيمة وانتظار المستقبل المجهول.

وأصبحت مسألة مصاحبة هؤلاء القادة المقهورين إلى مقرهم الأخير فى المنفى عملية لها أهميتها، نظرًا لذلك الشغف لمعرفة مسيرة الحياة التى سوف يعيشونها. ومن هنا جاء اختيار تلك الدراسة الأكاديمية (الوثائقية) التى رافقتهم على تلك الأرض الغريبة عنهم. وقد قدَّمت وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ ولها الأهمية الكبرى ـ المعلومات العميقة للدراسة، كما ساعدتها الوثائق المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، بالإضافة إلى الوثائق المنشورة، والمذكرات المخطوطة والمنشورة، والدوريات بنوعيها العربية والأجنبية، وذلك حتى تكتمل الصورة بكل أبعادها لعرابى ورفاقه فى جنة آدم.

شملت الدراسة أربعة فصول تواصلت وتشابكت لتعكس الواقع الذى عاشه المنفيون غرباء عن وطنهم، بعيدًا عن أهلهم، فهى تلتقط الخيوط من حيث انتهى المؤرخون لتنسج بها صورة دقيقة أبرزت فيها المعالم الرئيسية، فى الوقت الذى لمست فيه الدقائق التى ربما تغيب عن العين. وتتبَّع الفصل الأول «الطريق إلى المنفى» خطا عرابى ورفاقه صوب هذا الطريق، والاتجاهات المصرية والبريطانية نحو العقوبة، وكيف تحول مجراها من الإعدام إلى النفى، وتعدد الآراء حول مكانه إلى أن رسا المطاف على جزيرة سيلان التى هى معروفة أيضًا بسرنديب، كما أطلق عليها جنة آدم ـ إذ ساد الاعتقاد أنها الأرض التى وطئت عليها قدم آدم فور خروجه من الجنة، وهو ما ردَّدته بعض مصادر التاريخ الإسلامى ـ والإعداد للسفر، والعقبات التى صادفته والتعليمات البريطانية للجزيرة، ورحيل المنفيين عن مصر ووصولهم إلى كولومبو، واستقبالهم والفترة الأولى لإقامتهم.

وتضمَّن الفصل الثانى «العلاقة مع بريطانيا» سياسة الحذر التى انتهجتها بريطانيا حيث مضت العيون تلاحقهم، والتحركات تحسب عليهم، والتحكم يعوقهم، والنظام الذى خضعت له مراسلاتهم، وانكسار سياسة العزلة عن طريق المراسلات واللقاءات، والصلات بالشخصيات البريطانية سواء المسئولون أو غيرهم بهدف الحصول على المساعدة للعفو عنهم وإطلاق سراحهم وعودتهم لمصر، وتلك المجهودات التى قامت بها هذه الشخصيات.

ووضَّح الفصل الثالث «الحياة فى جنة آدم» حالة المنفيين المالية وحاجتهم وفاقتهم وشكاواهم وموقف لندن، ورغباتهم الشخصية بشأن إحضار ذويهم ومعاكساتها، ونتيجة الظروف الصعبة على علاقاتهم، واتساع دائرة الخلافات بينهم، وتوسلاتهم للخروج من الجنة إلى مكان آخر يتفق مع صحتهم أو عودتهم لوطنهم بعد أن تمكنت الأمراض منهم، ومعارضة الحكومة المصرية وتشددها وتعنتها، واتجاه السياسة البريطانية، واستمرار المساعى وتكثيفها خاصة بعد تساقط عبد العال حلمى ومحمود فهمى، والتحركات فى لندن والقاهرة.

وتعلَّق الفصل الرابع «الخلاص» بخطوات نهاية الطريق، وعودة طلبة عصمت لمصر لانحدار صحته كحالة اضطرارية، وتدهور صحة باقى المنفيين، ووفاة يعقوب سامى، والسماح لمحمود سامى بالرجوع إلى وطنه نتيجة لما أصابه، ومواصلة المجهودات من أجل العودة الأخيرة لعرابى وعلى فهمى التى نجحت لتدخل ولى عهد بريطانيا، ووداع الجزيرة لعرابى وما وجده من عواطف جياشة تجاهه نظرًا لاعتبارات متعددة، ووطء أقدامه أرض مصر والملابسات التى ارتبطت بها. وتأتى الخاتمة لتسجل النتائج التى توصلت إليها.

ومن منطلق إثراء الدراسة، فضَّلنا أن يكون هناك بعض الملاحق ترفق بها. الملحق الأول يُسجل التقرير الذى سطَّره أحمد عرابى أثناء وجوده بالسجن عقب الهزيمة، يوضح فيه التطورات التى مرَّت بها الثورة منذ بدايتها وحتى نهايتها، وذلك ليضعه بين يدى الدفاع. ومن أجل ضبط نص التقرير، جاء التدخل بشأن تقسيمه إلى فقرات، واستخدام علامات الترقيم،وتصويب أخطاء اللغة بقدر الإمكان. حقيقة أن كتابة القرن التاسع عشر لها السمات الخاصة، لكن النص هنا تعداها أحيانًا. والسؤال الذى يفرض نفسه، ويدخل تحت الاحتمالات دون الجزم به، هل عرابى أملى هذا

التقرير على غيره؟ إذ من المعروف أنه درس في الأزهر، ونال حظا من الثقافة، وله الخطب ذات المستوى الجيد، وكذلك ما كتبه فى مذكراته المخطوطة ويدل على معرفته باللغة. أما بالنسبة للأحداث التى ضمَّها التقرير، فإنها احتاجت إلى تعليقات وشروحات، ومن ثم أُخضعت للتحقيق، ليصبح النص متكاملًا من ناحية، ولما يتطلبه الأمر لمعرفة الوقائع التى أدت لتوقيع عقوبة النفى على عرابى ورفاقه من ناحية أخرى.

والملحق الثانى يختص برسائل بعث بها عبد الله النديم ـ ولم يوقِّع عليها باسمه نظرًا للظروف التى كان يمر بها ـ إبَّان اختفائه (من ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ إلى ٢ أكتوبر ١٨٩١) إلى صديقه الحميم عرابى فى سيلان، وقصد من ورائها أن يخفف عنه المعاناة بطريقته المعهودة، ويعقد عليه الآمال المستقبلية، ويوجه له النصح بجمع شمل المنفيين، وذلك بعد أن أصبحت خلافاتهم ملء السمع والبصر. وتلك الرسائل منسوخة من الأصل مع بعض التلخيص قام به ناسخ، وانتهى من هذا العمل فى مارس ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ)، وحرص على سلامة لغتها. وقد حدث تدخل عابر من ناشر الرسائل، وبالتالى فإن طبيعة الاختلاف بين هذا الملحق وسابقه، جعلنا لا نُخضعه لإضافات اختصت بالتعليقات والشروحات، اللهم إلا وضع بعض علامات الترقيم، والقليل من الإيضاحات بالهوامش التى استُخدمت فيها الحروف الهجائية بدلًا من الأرقام الموجودة الخاصة بالناشر.

والملحق الثالث يضم ما نشرته صحيفة المقطم عن مقابلة وكيلها لعرابى عند وصوله للسويس عائدا من المنفى وما دار بينهما من حديث، وكذلك ما كتبه وكيلها فى دمنهور بشأن الدفاع عنه. والملحق الرابع يتعلق بخريطة لسيلان، المكان الذى وطئته أقدام المنفيين.

وباتباع هذا المنهج، تكون الدراسة قد غدت فى شكلها المتناسق، والأمل معقود على أن تحقق الهدف الذى وضعت من أجله فى تبصير القارئ بصفحات من تاريخ مصر الحديث.

والله ولى التوفيق،

مدينة نصر فى ١٠ يناير ٢٠٠٨.

د. لطيفة محمد سالم

الفصل الأول

الطريق إلى المنفى

يمثل الطريق الذى اجتازه عرابى ورفاقه عقب الانكسار مرحلة بالغة الصعوبة، واجهوا فيها الشقاء والعذاب والمعاناة حتى استقر بهم المقام فى منفاهم الذى اختير لهم، وكان عليهم أن يؤمنوا بقدرهم ويستسلموا له بعد أن غُلبوا على أمرهم ومُنوا بالهزيمة.

لقد تكاتفت القوى المضادة للثورة العرابية على إجهاضها، ونجحت فى تنفيذ مخططها، وأصبح مصير القادة الثوار فى يدها، وكان لا بد من التوافق فى الآراء بينها. وشكل الجانب المصرى الذى يضم الخديو ومعاونيه صورة واضحة ارتسم عليها الحقد والضغينة والرغبة فى الانتقام بأقصى درجاته، وصدر الأمر الخديوى بتشكيل لجان التحقيق، وتم استجواب عرابى ورفاقه، الذين أُلبسوا تهمة العصيان، ودخل تحت هذا التعدى على الخديوية، وأُنشئت المحكمة العسكرية حيث حُولت إليها قضايا المتهمين، وكانت رغبة المسئولين ملحة فى إنزال أقصى العقوبة بهؤلاء الثوار.

أما الجانب البريطانى فقد تخلله أكثر من اتجاه، لكنه انصب فى النهاية داخل تيار واحد يتفق مع المصلحة، ففى البداية مثل جلادستون Gladstone رئيس الوزراء ووزير خارجيته وجهة النظر الرامية إلى إعدام عرابى عن طريق الخديو بناء على محاكمة شكلية عن الأخطاء التى ارتكبت على مدار الأشهر الستة الأخيرة قبل الاحتلال(١). وكذلك اعتمادًا على أن عصيان سلطة الخديو خيانة كبرى جزاؤها الموت العاجل،

---

(١) Blunt, W.S., Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 450.

ووجد هذا الاتجاه بعض التأييد من الصحافة البريطانية، لكنه سرعان ما تراجع أمام اتجاه آخر نبع من المعارضة فى البرلمان، وأسهم فيها حزب الأحرار، الذى وجه صحافته للدفاع عن عرابى واعتباره من أبطال الحرية، بالإضافة إلى أن رؤية الرأى العام البريطانى للثورة وزعيمها جعلته يطالب بمحاكمة عادلة، وأخيرًا تلك التقارير التى توافدت على لندن من الهند دُرة التاج البريطانى وأشارت إلى التفاعل الإسلامى تجاه المحاكمة، منوهة إلى ضرورة قياس الأبعاد وانعكاساتها على هذه المنطقة[١]، كل ذلك جعل محاكمة قادة الثورة تغير مسارها. والواقع أن الحكومة البريطانية كان لا بد لها من سند تتكئ عليه لتبرر احتلالها لمصر، ومن ثم تطلب الأمر حصولها بأية وسيلة على الاعتراف من هؤلاء القادة بالعصيان.

* * *

وبطبيعة الحال انزوى اتجاه الخديو ومؤيديه جانبًا أمام الاتجاه البريطانى، وفى ذلك الوقت كثَّف بلنت Blunt نشاطه وحمل على عاتقه مهمة الدفاع عن القادة الثوار، فتم تكليف المحامين برودلى Broadley ونابيير Napier وإيف Eve ـ ولم يستمر المحامى الأخير كثيرًا، إذ سرعان ما غادر مصر، وسار على دربه بعد فترة المحامى الثانى، وأصبح الأول هو المنوط بالدفاع عن عرابى ورفاقه ـ بالسفر إلى مصر لتولى المهمة، وتحمَّل النفقات، فدفع جزءًا وجمع جزءًا آخر عن طريق اكتتاب بعض الإنجليز[٢]. وفى إطار السياسة البريطانية يغير برودلى من خطة دفاعه التى كان قد رسمها على أن عرابى دخل الحرب بموافقة الخديو والسلطان، وأنه من الوجهة القانونية لم يكن عاصيًا، أما من الوجهة الأدبية فإن إخفاقه وحده هو الذى يعطيه تلك التسمية، فتبدل هذا لارتباط الحكومة البريطانية بعصيان حقيقى، فإذا اعترف به صراحة لا يهمها شيء بعد ذلك، وعليه زال الخطر الذى كان يُهدد عرابى ورفاقه وصارت القضية صورية بحتة.

---

(١) الأرشيف النمساوى، محفظة ١٤، لندن، ٢٣ فبراير ١٨٨٣، محفظة ١٥، رقم ١٨٥، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢.

(٢) Blun,t Secret History of the English Occupation of Egypt, pp. 543, 544.

بلنت (١٧ أغسطس ١٨٤٠ ـ ١٠ سبتمبر ١٩٢٢) من الأحرار الإنجليز الذين أسهموا بمجهوداتهم فى مساندة الثورة العرابية، ولم يكن يؤيد الإجراءات التى تتخذها بريطانيا تجاه مصر، ووقف بجوار المنفيين، وداوم على تأييد الحركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال البريطانى.

ودارت المراسلات بين بلنت وبرودلي وانحصرت في نوعية العقوبة التي سيقع عرابي تحت طائلتها، ويقترح بلنت تدخل دفرن Dufferin [١]، للحصول على موافقة زعيم الثورة لنفيه إلى جزر أدامان Adaman ـ تقع في خليج البنغال بالهند ـ أو في أي جزء من الإمبراطورية البريطانية، وأن يعامل على أنه مسجون سياسي وتستعمل معه الرأفة، وأن يبذل الجهد في تضييق معاناته. ويُصر بلنت على إقصاء سلطة الخديو والوقوف أمامه عند مجادلته في إصدار مرسوم النفي، ويعارض أن يكون له أو للسلطان حق تحديد مكان النفي، كما يرفض استمرار عرابي في السجن[٢]. ويعود ليبين ضرورة اختيار منفى محترم لا معتقل، ويُعدد بعض الأماكن مثل عدن ومالطة وقبرص[٣].

ويأتي رد برودلي على بلنت يعلمه فيه أنه استلم توكيلا كتابيا من عرابي يعطيه حق التصرف مع دفرن، وأن الأخير اقترح أن يتظلم عرابي من كونه مذنبا، ويشير المحامي إلى جزر أزورس Azores ـ تقع غرب إسبانيا في المحيط الأطلنطي ـ ويطلب منه التفاهم مع الخارجية البريطانية على اعتبار أنها المكان المناسب للنفي[٤]. ثم يعود وينقل له وجهة نظره بشأن الاتصال بشخصية دلاور De La Warr ـ أحد أعضاء مجلس اللوردات وصاحب ميول طيبة تجاه العرب ـ والتفاوض معه على تحديد مكان النفي، ويعرض عليه جزر فيجي Fiji ـ تقع شمال أستراليا بالمحيط الهندي ـ كمكان آخر للنفي[٥]. وبالفعل يجري بلنت مشاوراته مع دلاور، ويوسع اتصالاته ويتباحث مع تشنري Chenery ـ محرر صحيفة التايمز ـ ويبعث إلى برودلي ببرقية ليبلغه بمعارضة الجزر المقترحة والإصرار على بلد إسلامي ليقصده المنفيون[٦].

---

(١) أُرسل في مهمة خاصة إلى مصر في نوفمبر ١٨٨٢ بواسطة الحكومة البريطانية بهدف دراسة الأوضاع القائمة ووضع المقترحات لتنظيمها وتحسينها.

(٢) Blunt-Broadley, Nov. 2, 1882, in Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, pp. 455, 456.

من المعروف أنه لم يكن المقصود عرابي بمفرده، وإنما يدخل معه رفاقه.

(٣) Ibid, Nov. 28, 1882, p. 472.

(٤) Broadley-Blunt, Tel. Nov. 29, 1882, in Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, pp. 472, 473.

(٥) Ibid, Nov. 30, 1882, p. 473.

(٦) Blunt-Broadley, Tels. 29, 30, Nov. 1882, in Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 473.

وفى تلك الأثناء تعدَّدت لقاءات برودلى مع عرابى ورفاقه، الذين انغرس فى داخلهم الإحساس بأن مخالب أعدائهم تقترب منهم لتنهشهم وتودى بحياتهم، وأن اليد المنقذة لهم من مصيرهم المحتوم الذى ينتظرهم تتمثل فى بريطانيا. وأمر طبيعى أن الهزيمة والانكسار يتركان أسوأ البصمات على الثوار، وغالبًا ما يتحولون عن مسارهم ومبادئهم، وخاصة أن شعور الخوف من حبل المشنقة طغى عليهم، ومن ثم تغيرت رؤيتهم لدولة الاحتلال ووجدوا فيها طوق النجاة. ويكتب عرابى لبلنت ليعبر عن رغبته فى أن يعيش حرًا مع أطفاله فى دمشق بعيدًا عن الحياة السياسية، وفى حالة رفض السلطان أو المسلمين بالشام، فإنه يفضل الإقامة فى لندن «بين إخواننا الذين يرعون حقوق الإنسان، أعيش رجلا حرا فى أرض الحرية دون أن أكون متحفظًا علىّ أو تحت الرقابة» ويشير إلى رفاقه الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل حب بلادهم، وأنهم يريدون أن يعيشوا هم الآخرون أحرارا، ويُقسم بشرفه بألا يتدخل فى الأمور السياسية عندما يكون فى بلد بعيد عن بلده «حتى يأتى الله أمرا كان مفعولًا»[١]. ولم تكن لتتحقق رغبة عرابى، وحتى عندما مال فى النهاية إلى الكاب ـ رأس الرجاء الصالح ـ رفض دفرن الذى اعتمد على رأيه فى اختيار المكان، ورغم ذلك فقد بعث بلنت ببرقية إلى برودلى يطرح من جديد بعض الأماكن التى تمثلت فى جبل طارق وجزيرة جيرنزى Guernesy ـ إحدى الجزر البريطانية فى بحر المانش ـ وطلب منه التشاور مع عرابى بشأنها[٢].

* * *

واستكمالا للشكل أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بالقصاص فى ٣ ديسمبر ١٨٨٢ على عرابى ورفاقه بعد أن وجهت لهم تهمة العصيان، وعقب اعترافهم بالخيانة، وذلك بناء على المادة ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى والمادة ٩ من قانون الجنايات. واستتبع الحكم صدور الأمر العالى الخديوى مساء نفس اليوم، وبمقتضاه حل حكم النفى المؤبد على عرابى من مصر وملحقاتها مكان حكم

---

(١) Broadley, A.M., The Trial, Exile And Pardon of Arabi Pacha (1882-1902), Vol. II, How we Defended Arabi And His Friends, p. 407.

(٢) Broadley-Blunt, Tel. Dec. 4, 1882, Blunt _ Boadley, Tel. Dec. 4, 1882, in Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, pp. 473- 474.

الإعدام، وأن يبطل هذا العفو ويسترجع الحكم الأصلى فى حالة عودته إلى أرض الوطن، وصدر نفس العفو على رفاق عرابى تباعًا(١). وجُرد المحكوم عليهم من الرتب والنياشين والألقاب، ومن الطريف أنه صدر الأمر بإقصائهم من الجيش الذى لم يكن له وجود بعد حله عقب دخول الجيش البريطانى القاهرة،وصُودرت أملاكهم التى بلغت مساحات كبيرة من الأراضى، وشكّلت فيها ممتلكات عرابى ومحمود سامى الركيزة الأساسية، وأُشهر بيعها حيث خصصت أثمانها لسداد التعويضات الخاصة بحوادث الحقبة الأخيرة، وكذلك ممتلكاتهم من المنازل والحلى، وحُرم على المحاكم الشرعية أن تسمع أو تحكم فيما رفع أو يرفع إليها من الدعاوى فى شأن تلك الأملاك، ووقع عليهم الحرمان من الحقوق المدنية والميراث(٢).

وقبل عرابى ورفاقه الأمر الواقع، وأظهروا ترحيبهم بالحكم الصادر عليهم وامتثالهم له، ولم يتباطئوا فى تسليم دفرن تعهدهم، فقدم كل واحد منهم ورقته التى تعهد فيها بصفته رجلا عسكريا أن يقيم فى المحل الذى تعينه الحكومة، وأعطى كلمة شرف بذلك، ثم اشترك الجميع فى تعهد جماعى، ولم ينس أحد منهم أن يوجه شكره إلى المبعوث البريطانى(٣). ويصور برودلى انطباعاتهم، ويُسجل كلماتهم التى عبرت عن الأمل فى مصر والثناء على بلنت والثقة فى بريطانيا(٤). وبعد مزيد من المباحثات والمناقشات والمجادلات الطويلة، تم الاتفاق واستقر الرأى البريطانى على تحديد مكان النفى حيث وقع الاختيار على جزيرة سيلان Ceylon (٥)، إذ

---

(١) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، مجموعة ٤٧ حربية، ٣، ٧، ١٠ ديسمبر ١٨٨٢.

(٢) F.O. 78/4267, Dufferin-Granville, Cairo, April 24, 1883, No. 125.

محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، ١٤ ديسمبر ١٨٨٢.

(٣) Ibid, Broadley, The Trial..., Vol. II.

(٤) Broadley, The Trial..., Vol. II, How We Defended..., pp. 409, 410.

(٥) Broadley-Blunt. Tel. Dec. 4, 1882, in Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 475.

تقع سيلان فى الجنوب الشرقى من الهند حيث يفصلها عنها مضيق بلك، وأرضها خصبة، وبلغ عدد سكانها فى ذلك الوقت ثلاثة ملايين نسمة، يمثل المسلمين فيهم $\frac{1}{3}$ ٨٪، والباقى من الشنكليز والتميل على مذهب بوذا، وبعضهم هنود على مذهب براهما،ويتصفون بالكرم وحسن الضيافة. عرابى، أحمد كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية (المذكرات المخطوطة)، جـ ٢، ص ٦٥٩.

جمعت المواصفات المطلوبة، خاصة تلك المكانة التى تحتلها فى قلوب المسلمين. وحمل برودلى أطلسا صغيرا وصحب معه زميله بيمان Beaman وذهبا إلى السجن لتبليغ عرابى ورفاقه بالنبأ، ويذكر برودلى أن عرابى استقبله بابتسامة، واعتبر ذلك شرفًا كبيرًا، وراح يشيد بتلك الجزيرة باعتبارها جنة آدم(١).

* * *

وخضعت الحكومة المصرية للتوجيهات البريطانية، واستقال مصطفى رياض ناظر الداخلية احتجاجًا على الرأفة بالقادة الثوار، وتولى منصبه إسماعيل أيوب الذى أبلغ رغبة الحكومة لبرودلى فى تفرقة المحكوم عليهم بالنفى فى أكثر من مكان، واقترح وضع أربعة فى سيلان وثلاثة فى هونج كونج Hong Kong (٢). والواقع أن الخارجية البريطانية لم تكن تعتبر سيلان مقر الإقامة النهائية، بمعنى أنها وضعت فى الاعتبار إمكان تغيير المكان بعد مرور بعض من الوقت، فضلًا عن أنها حرصت على التعرف على وجهة نظر الحكومة المصرية عن طريق دفرن، وعندما علمت بها لم تعارض التقسيم المقترح(٣). أيضًا وكَّلت للمبعوث البريطانى دراسة الموقف والتصرف وفقًا للظروف، وأبلغت ذلك لوزارة المستعمرات(٤). ولكن لعب برودلى دوره فى هذا الصدد وبيَّن أن مثل هذا العمل سيخلق الصعوبات، وعارض بشدة التنفيذ، وبذل المجهودات. وبعد مفاوضات أُحبط المسعى، واستبعدت تلك المسألة، ومما يذكر أن أصحاب الشأن لم يصل إلى أسماعهم ما كان يخطط لهم(٥). وقد كان الحرص واضحًا على عدم الرغبة فى تجميعهم حتى أثناء محاكماتهم.

* * *

وشكَّلت مسألة المرافقين للمنفيين صعوبة، وبالرغم من أن الخارجية البريطانية أشارت لوزارة المستعمرات بأنها ستكون صاحبة القرار فى هذا الشأن، فإنها بعثت إلى دفرن تسأله عن عدد الذكور والإناث، ومدة البقاء المقررة لهم من الحكومة

---

(١) Broadley, The Trial..., Vol. II, How We Defended..., pp. 384, 385.

(٢) Ibid, p. 395.

(٣) F.O. 78, op. cit., F.O-Dufferin F.O, Dec. 8, 9, 12, 1882, No. 19, 21, 24, 41.

(٤) Ibid, F.O-Colonial Office, F. O, Dec. 9, 1882.

(٥) Broadley, The Trial..., Vol. II, How We Defended..., p. 395.

المصرية(١). وأسرع برودلى إلى السجن والتقى بعرابى ورفاقه، وبيَّن لهم أن الوقت قصير ولا بد من السرعة فى تجهيز القوائم الخاصة بالأشخاص الذين يقترحون اصطحابهم معهم، وحمل رغبتهم إلى ناظر الداخلية، فاعترض على العدد، وطلب اختصاره بحيث لا يصطحب أى منهم معه أكثر من ذكر وأنثى كخدم. جاء ذلك بناء على توجيهات دفرن الذى دهش عندما علم أن العدد وصل إلى ١٣٠ شخصًا، وقدَّر ما يمكن أن تتحمله الحكومة المصرية من تكاليف السفر حيث يتطلب الأمر باخرتين، ورأى الاكتفاء بالأقرباء الضروريين مثل الزوجات والأبناء والأخوات وتقليل عدد الخدم(٢). ومن ثم عاد برودلى بقوائم جديدة وناشد إسماعيل أيوب فيما يختص بالأغوات(٣). وتمت الموافقة وكتب دفرن إلى جرانفل Granville وزير الخارجية مبينًا التسهيلات التى منحت للمنفيين فى هذا الشأن(٤). وصحب معظمهم أولاده وحريمه ما عدا محمود سامى الذى لم يرافقه سوى ثلاثة من خدمه، حيث رفضت زوجته السفر معه لظروف خاصة(٥). وأُبلغ المنفيون بأن من يتخلف من المرافقين لن تتولى الحكومة المصرية تسفيره على نفقتها وإنما يكون على حسابه، واستثنى عرابى من هذا القرار، إذ كانت الظروف المرضية لزوجته لا تسمح لها بالسفر حين حل، وأُذن لها باللحاق به وقتما تشاء(٦).

* * *

---

(١) F. O. 78. op. cit., F.O-Colnial Office. F.O, Dec. 9, 1882, F.O - Dufferin, F. O, Dec. 12, 1882, No. 24.

(٢) Broadley, The Trial..., Vol. II, How We Defended..., pp. 393, 394, F.O. 78, op. cit., Dufferin-Granville, Cairo, Dec. 18, 1882, No. 54.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. II, How We Defended..., p. 397.

(٤) F.O. 78, op. cit., Dufferin-Granville, Cairo, Dec. 18, 1882, No. 54.

(٥) Ibid, Colonial Office, Feb. 21, 1883 (Egypt), Ordnance Surrvey Office-Dufferin, Aug. 4, 1883.

محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، بيَّنت الخارجية البريطانية أن عدد المرافقين ٥٨ شخصًا (F.O. Dec. 26, 1882)، وذكرت وزارة المستعمرات أنهم ٥٢ شخصًا (C.O. Feb. 21, 1882)، وأشارت محافظ الثورة العرابية أنهم ٨٤ شخصًا (محفظة ٤٢)، وسجَّل عرابى فى مذكراته أنهم ٤٨ شخصًا (المصدر المذكور، ص ٦٤٥).

(٦) Ibid. Ordnance Survey Office, Dufferin, Aug. 4, 1883.

وسمح لعرابى ورفاقه ببيع خيولهم وعرباتهم، وتراوحت قيمتها بين ٧٠٠ ـ ٨٠٠ جنيه، كما باعوا بعض الممتلكات الأخرى فى حدود نفس المبلغ، وأذن لهم بنقل بعض المفروشات والأثاث، ومما يذكر أنه لم يُتخذ أى قرار بصدد حرمان زوجات المنفيين من متعلقاتهن، ومع ذلك فقد تعرضت الحكومة لجزء من ممتلكات بعضهن. ويُسجل دفرن للندن أنه أسدى النصح للحكومة المصرية أن تبدى التسامح الذى تتطلبه الإنسانية تجاه المذنبين، وألا تتخذ ضدهم إجراءات تشعرهم بالحسرة والغضب، وأنه سأل محمد شريف رئيس النظار عن السبب فى حرمانهم من ساعاتهم، وعليه أصدر أمره بردها إليهم(١). ومما لا شك فيه أن النصائح وضعت ـ إلى حد كبير ـ فى الاعتبار، ولم تُقدم الحكومة على أية إجراءات تعسفية ضدهم حتى غادروا البلاد.

ورغب المنفيون فى السفر جماعة لا فرادى،ورأى البعض منهم الكتابة للحكومة عن طريق برودلى لإبداء هذه الرغبة على أساس أن ذلك يمثل سعادتهم وراحتهم، كما سجَّلوا شكرهم للخديو، وأشادوا باتجاهه الطيب نحوهم، وبأنهم لن ينسوا معروفه أبد الدهر وسيصلّون من أجل رفاهيته، وختم على الخطاب اثنان منهم، وعندما عرض على عرابى رفض التوقيع، وقال إنه يفضل أن يقطع إربًا، وصرح بأن توفيق غير صالح ليكون حاكمًا على المصريين، وأمسك بالقلم وكتب خطابًا وقع عليه الجميع ورُفع إلى برودلى، وطلب فيه تبليغ الحكومة بإتمام الوعد الذى بينهم بالسفر جميعًا مع مرافقيهم على نفس الباخرة إلى المحل المعين لإقامتهم، وحمل الخطاب الشكر لها على ما أجرته وما ستجريه لراحتهم فى السفر(٢). واستقر الرأى على أن يبحر المنفيون ومن يصحبهم على الباخرة ماريوتيس Mareotis الإنجليزية لنقلهم إلى كولومبو، ويذكر دفرن لوزير الخارجية البريطانية أنه سيكون هناك ضابط إنجليزى فى خدمتهم(٣).

* * *

وراحت لندن تعد العدة بشأن إقامة المنفيين، وفى البداية عرضت الخارجية

---

(١) Ibid, Dufferin-Granville, Cairo, Dec. 18, 1882, No. 54.

(٢) Broadley, The Trial..., Vol. II, Dec. 2, 1882, How We Defended..., pp. 405, 406.

(٣) F.O. 78, op. cit., Dufferin-Granville, Cairo , Dec. 18, 1882, No. 54.

البريطانية على وزارة المستعمرات اقتراح نزولهم فى الفندق الشرقى الجديد مؤقتًا، ثم وُكل الأمر لدربى Derby وزير المستعمرات ليتصل بحكومة سيلان لتدبير الأماكن اللازمة لهم[١]. وفى نفس الوقت صدرت التعليمات الخاصة بالتعامل معهم، فأبلغت الخارجية البريطانية وزارة المستعمرات العمل على حسن استقبالهم وتوفير سبل راحتهم، والسماح لهم باختيار مساكنهم وعدم تقييد حركتهم، وألا تكون لإدارة المستعمرة سلطة قانونية عليهم أوسع من التى تطبقها على رعاياها، ثم تطلب الخارجية البريطانية الاتصال بدفرن للحصول على كافة المعلومات الخاصة بالمرافقين والمسموح لهم به أثناء إقامتهم[٢]. وتبعث لندن إلى لونجدن Longden حاكم سيلان فى هذا الشأن، وتعلمه أن عرابى ورفاقه لا يعتبرون معتقلين ـ أى تحت الحجز ـ ولكن فى الوقت نفسه تطلب إخطارها عند رحيل أى منهم من الجزيرة أو عند مخالفة أى منهم لتعهداته، وأن يختار ضابطا على درجة عالية من الذكاء للإشراف على الحرس المعين لخدمتهم، وتُراقب تحركاتهم مع التعرف جيدا على كل من يتصل بهم من مسلمى سيلان أو المتعاطفين معهم عقب وصولهم، وأنه نظرا لقرب سيلان للهند، فيلاحظ ما إذا كان هناك من يتصل منها بالمنفيين أو يزورهم أو تكون له علاقة بهم من أى نوع، وأخيرًا تبلغه لندن بأن جرانفل يرى وضع رقابة على مراسلاتهم وخاصة المباشرة لمصر، وتطلب موافاتها بمدى تنفيذ وتحقيق تلك التعليمات عقب استقرارهم[٣].

وتم الاتفاق بين دربى وجرانفل على أن يترك لحكومة سيلان اتخاذ ما تراه بخصوص تعيين خدمة وحرس للمنفيين، كذلك أُعطى للحاكم السلطة التامة للتصرف حتى فى توجيه الباخرة المقلة للمنفيين للرسو فى مكان آخر غير كولومبو إذا رأى فى ذلك مصلحة، وزُود ربان الباخرة بالتعليمات لتنفيذ أوامر الحاكم فى هذا الخصوص[٤]. وعادت لندن لتؤكد على لونجدن العمل على سلامة المنفيين والعناية بصحتهم، وتلبية طلباتهم، وعدم الإقدام على أى إجراءات تشير إلى التدخل فى النواحى الاجتماعية، أو معاملتهم رسميًا، مبينة أنهم سيقيمون فى سيلان وفقا

---

(١) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O, Dec. 15, 21, 1882.

(٢) Ibid, Dec. 21, 1882.

(٣) Ibid, Downing Street-Longden, Dec. 21, 1882.

(٤) Ibid, Dec. 24, 26, 1882, F.O-Dufferin, F.O, Dec. 30, 1882.

لكلمة الشرف التى تعهدوا بها، ولن يغادروا الجزيرة دون الحصول على تصريح مسبق من حكومة جلالة الملك، وفى حالة رغبتهم فى الرحيل لا تستعمل معهم القوة وإنما يبرق للجهات المسئولة، وتستبعد لندن ذلك مصرحة بأن عليهم الوفاء بعهدهم، وتُعلم الحاكم بأن الحكومة المصرية قررت لكل من المنفيين ثلاثين جنيها مصروفا شهريا، وأنها مستعدة لزيادة هذا المبلغ بناء على تقديره عندما يرى أنه لا يفى بحاجتهم وراحتهم، وتطلب الإفادة عن جميع المصاريف التى تصرف عليهم لاستردادها من القاهرة، وأخيرًا تُبين أنه لم يتخذ قرار نهائى بأن الإقامة فى سيلان دائمة، ولكنها مؤقتة، وقد تُعدَّل لجهة أخرى وفقًا لرغبة المنفيين(١). وكان واضحًا اهتمام الخارجية البريطانية بتأمين المنفيين، وتعددت خطاباتها لوزارة المستعمرات فى هذا الشأن(٢).

* * *

ومضت فى القاهرة الاستعدادات الأخيرة للسفر، ونقل المسجونون من الدائرة السنية ـ تحت حراسة البوليس ـ إلى ثكنات قصر النيل فى ٢٥ ديسمبر ١٨٨٢ حيث تُلى عليهم القرار الخديوى، وعادوا إلى سجنهم مرة أخرى، وفى الساعات القليلة المتبقية على الرحيل، تمكن برودلى وزميله نابيير من الحصول على مرتب شهر لكل منهم مُقدمًا، وتدخلت الحكومة بطريقة غير قانونية، ومنعت أن تصطحب النساء المرافقات معهم أكثر من ٢٠٠ جنيه، وتوافدت الهدايا سرًا على عرابى من السيدات الأرستقراطيات(٣). وكان التخطيط أن يغادر قطار خاص يُقلهم من داخل ثكنات قصر النيل إلى السويس فى الساعة التاسعة من مساء ٢٦ ديسمبر. وخيمت السرية على مكان الرحيل وتوقيته، فلم يعرفه إلا القليل،ومع هذا جرت بعض المحاولات للتمويه، فقد وصلت تعليمات فى آخر لحظة بأن الرحلة تأجلت لسوء الأحوال الجوية فى السويس(٤).

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O, Dec. 26, 1882.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. II, How We Defended..., pp. 411-413.

تنوعت الهدايا، فجمعت بين القرآن الكريم وسجادة الصلاة وحقيبة السفر وسلَّة الرحلات.

(٤) Ibid, p. 414.

وانتبه برودلى إلى هذا الأمر، وكاحتياط للمفاجآت، وضع مندوبًا له فى نوبة دائمة عند السجن ليرقب التحركات، وعليه أبلغه فى العاشرة مساء بأن عرابى ورفاقه غادروا المكان، فأسرع متجهًا إلى ثكنات قصر النيل، حيث وجد القطار فى حراسة الجنود وعلى أهبة التحرك، وجلست السيدات والأطفال فى المقدمة، ثم وضعت الأمتعة والمتعلقات بصحبة الخدم فى العربة التالية، وفى الدرجة الأولى جلس عرابى ورفاقه فى ديوانين. وودعهم برودلى، وتبادل بعض الكلمات مع عرابى الذى جامله وأثنى عليه، وحدث أن تأخرت زوجة ابن عرابى وشقيقتها بناء على محاصرة البوليس لمنزله، ولكن صدرت الأوامر بفك الحصار وإحضارهما، ورافق نابيير المنفيين، ووقف على الرصيف بعض الشخصيات البريطانية ومحافظ القاهرة،وتواجد بالقطار حرس مثلته الفرقة ٦٠ من السلاح الملكى البريطانى، وأيضًا بعض الضباط والجنود من المصريين[١]. وما لبث أن تحرك القطار تاركًا قصر النيل، ويشاء القدر أن تكون نهاية قادة الثورة فى هذا المكان الذى شهد مولد تلك الثورة ونجاحها.

* * *

وفى السويس استقل المنفيون الباخرة فى منتصف نهار ٢٧ ديسمبر إلى مقرهم الأخير، وصحبهم الأميرالاى موريس بك ـ بحرى إنجليزى ـ ملاحظ خفر السواحل وسليم عطا الله أحد مستخدمى المصلحة، الأول ليكون الواسطة بينهم وبين الحكومة، والثانى ليتولى عملية الترجمة،وذلك فى إطار المهمة الرسمية التى وُكلت لهما، وهى تسليم المنفيين إلى المسئولين فى سيلان[٢]. كذلك سافر على الباخرة مترجم آخر لكنه كان على نفقة المنفيين، كما صحبهم أحد ضباط البحرية ومعه فرقة من الجنود كحرس عليهم إبان السفر[٣]. وتلبية لطلب دفرن، أبرقت الحكومة فى ٣٠ ديسمبر إلى موريس بك وكلفته تبليغ ربان الباخرة بالرسو على الميناء الذى تحدده له حكومة سيلان[٤]، لمزيد من التأكيد فى هذا الصدد. وفى نفس اليوم اتصل المسئولون المصريون بالمبعوث البريطانى وقدموا له الشكر على الترتيبات والتسهيلات التى

---

(١) Ibid, pp. 414-417.

(٢) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، مذكرة مقدمة إلى نظارة المالية فى ٣ إبريل ١٨٨٣ بشأن منح مصاريف السفر لهما.

(٣) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٤٤.

(٤) F.O. 78. op. cit., Dufferin-Granville, Cairo, Dec. 31, 1882, No. 71.

قُدمت للمنفيين[١]. وبدأت مرحلة جديدة فى حياة عرابى ورفاقه كانت لها سماتها المختلفة عن المراحل التى سبقتها.

* * *

رست الباخرة ماريوتيس على رصيف ميناء كولومبو فى الساعة الخامسة من بعد ظهر ١٠ يناير ١٨٨٣، ولم يشأ حاكم سيلان أن يغير مكان إقامة المنفيين، إذ اعتبر أن الثغر يلائمهم، نظرا لارتفاع نسبة المسلمين، فهى تبلغ ١٣,٣٪ من مجموع السكان، وتوفر أماكن العبادة حيث ضمت سبعة مساجد[٢]. بالإضافة إلى أن موقعها قرب الجنوب يجعلها أقل تأثرًا بالتيارات الهندية، وأخيرا فإن التغيير ربما يترك البصمات السيئة على المنفيين الذين كانوا قد هيئوا أنفسهم للإقامة فيها[٣]. وكتب لونجدن إلى وزير المستعمرات تقريره الشامل ليصف له وقائع الوصول تفصيليًا، أعده بناء على تقرير نائبه دوجلاس Douglas الذى استقبل المنفيين على ظهر الباخرة وكان بصحبته مساعد سكرتير المستعمرة، ويسجل نائب الحاكم أنه عقب لقائه بموريس بك تسلم منه ثبتًا بالأسماء، وبين أنه كان هناك عدد كبير من المسلمين متجمعين لاستقبال الوافدين، ومن ثم فأثناء عودته فى المساء اتصل بأحد الضباط حتى يتم تفريق الجمع، وبدأت هذه العملية من الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالى وحتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، ولكنها لم تثمر النتيجة المرجوة، إذ ازداد التجمهر وتجمع حشد كبير من المسلمين ، وانضم إليهم أوربيون، وعندما نزل عرابى إلى الشاطئ ـ كان على فهمى قد سبقه فى النزول ـ ارتفعت الأصوات بالصياح والهتاف، وأسرع البعض ليقبل يده، ونزل باقى المنفيين، وسلم دوجلاس موريس بك إيصالًا بوصولهم واستلامهم[٤]. ويذكر عرابى أن المسلمين لم يقتصروا على السيلانيين، وإنما انضم إليهم مسلمون من جاوة والهند والملايو، وأن بعض الطوائف البوذية شاركت فى الاستقبال[٥].

---

(١) Ibid, No. 72.

(٢) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٦٤.

(٣) بالفعل لم تمض إلا أيام، وأعلن المنفيون عن رغبتهم لحاكم سيلان فى البقاء بكولومبو، حيث تحدث عرابى معه بالنيابة عن رفاقه، وبيّن أن ذلك لا يُعد نقضًا لعهدهم.

F.O. 78, op. cit., Longden-Derby, Kandy, Jan. 30, 1883.

(٤) Ibid, Jan. 13, 1883, Lt Governor Douglas's Report, Jan. 11, 1883.

(٥) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٤٤.

ويركز حاكم سيلان على ذلك التعاطف الذى غمر به المسلمون ضيوفهم، ويوضح أعدادهم ومناطق تمركزهم ونصيب كولومبو منهم، وأنهم أكثر شعوب الجزيرة نشاطا، وأصولهم ترجع إلى النسل العربى، وبالتالى فإن طبيعتهم العربية تختلف عن مسلمى الهند الذين هم من سلالة هندية، ويشير إلى أنه عندما يتصل بعرابى ورفاقه سيتبين له معرفتهم بعيدًا عن السياسة(١). ومما لا شك فيه أن ما قام به المسلمون سيدفعه إلى المزيد من مراقبة العلاقة بين الطرفين.

* * *

وكان اللقاء بين المنفيين ونائب الحاكم طيبا، حيث دار الحديث حول دوار البحر الذى عانوا منه، ومحاولاتهم الأولى لتعلم اللغة الإنجليزية، ويُبين دوجلاس أنه نفَّذ التعليمات الصادرة إليه بالعمل على راحتهم، فنقلهم إلى المنازل التى خُصصت لهم، وعندما طلبوا بعض التعديلات بها لبى طلبهم، ويصفها بأنها غير مفروشة حيث لا تؤجر فى سيلان مساكن مفروشة، وأنه آخذ فى شراء الأثاث اللازم، ويرجع سبب التأخير إلى إجازة عيد الميلاد، ويذكر أن عقد إيجارها لمدة ثلاثة أشهر ويتجدد تلقائيًا، وأن التوزيع تم على أساس منزل لكل من على فهمى ويعقوب سامى، ومنزل جمع محمود سامى ومحمود فهمى، بينما سكن عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى فى منزل واحد كبير على مساحة عشرة أفدنة وبه غرف عديدة للنوم والاستقبال وحديقة، وذلك بناء على رغبتهم، ومع كل منهم مرافقوه، وأعدت لهم أطعمة تكفيهم ثلاثة أيام، كما عيَّن لهم خدم سيلانيون(٢). وبطبيعة الحال تكفَّلت الحكومة المصرية بجميع تلك المصروفات(٣).

* * *

ويصف عرابى لبرودلى فى خطاب له الانطباعات الأولى عقب وصولهم، وذلك الاستقبال الحار الذى قوبلوا به، وتوجههم إلى المنازل المعدة لهم، ويستغرق فى

---

(١) F.O. 78, op. cit., Longden-Derby, Kandy, Jan. 13, 1883.

(٢) Ibid, Lt Governor Douglas's Report, Jan. 11, 1883.

(٣) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٢٤، مذكرة نظارة المالية إلى مجلس النظار، ٨٢ مايو ٣٨٨١،
F.O. 78, op. cit., Downing Street, Aug. 27, 1883.

وصلت مصاريف استقبالهم إلى ٥٠٠ جنيه.

الإشادة بها، وكيف استكمل أثاثها وأصبحت غرفها ذات «أسرة عالية وأرائك متقابلة وفرش مرفوعة ومبسوطة»، وأن حكومة سيلان رفعت عن كاهلهم إيجارها لمدة ثلاثة أشهر، ويوضح أنه منذ اللحظة الأولى بدأ الناس يتوافدون على هذه المنازل «تطيب خاطرنا بوجوه باشة وصدور رحبة» ويُسجل إعجابه بالمدينة وخضرتها وأشجارها وثمارها وطيورها وشوارعها[1]. ثم يبعث بخطاب آخر يحمل نفس المعنى، لكنه زاد عليه الثناء على رجال الحكومة البريطانية، أيضًا يرسل عبد العال حلمى وطلبة عصمت لبرودلى خطابا مشتركا يعبران فيه عن ارتياحهما للجزيرة، وأنها لا تختلف عن الصورة التى نقلها إليهما أثناء وجودهما بسجن الدائرة السنية، وعلى نفس الوتيرة يُسجلان الشكر لبريطانيا ويدعوان لها بالبقاء ويشيران إلى إكرامها للمنفيين، ويمضى يعقوب سامى ليتبع نفس الأسلوب[2].

ونجحت بريطانيا فى تخطيطها إذ جعلتهم يلهجون بالدعاء لها، وقد انتهجوا هذا السلوك نتيجة الهزيمة، وبعد إيمانهم بأنها وهبت لهم الحياة، وأنها غدت محتلة لمصر وكلمتها النافذة، وبالتالى فمن المسلَّم به سطوتها وسلطتها فى العفو عنهم ونوال حقوقهم. وعلى هذه الصورة انتهى الطريق بهم إلى المنفى، وأصبح عليهم أن يؤقلموا أنفسهم على تلك الحياة التى تنتظرهم فى ظل ذلك المستقبل المجهول.

---

(١) Broadley The Trial..., Vol. II.

خطاب من عرابى إلى برودلى في ٨ ديسمبر ١٨٨٣ يذكر فيه مختصر تاريخ إقامته هو ورفاقه فى سيلان.

(٢) Ibid.

الخطابات المرسلة بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٨٣.

الفصل الثانى
العلاقة مع بريطانيا

انتهى مطاف القادة الثوار بالاستقرار فى المكان الذى اختير لهم ليقضوا به العقوبة التى فُرضت عليهم، وأُحيل أمرهم إلى بريطانيا، وعليه فقد وضعت سياستها وفقًا لخطوط معينة انتهجتها رغبة منها فى درء أى خطر يكمن وراءهم وخاصة عرابى، ويكون له انعكاساته عليها، ولكنها لم تتمكن تماما من تطبيق سياسة العزلة عليهم، واتسعت دائرة اتصالاتهم ودخلت تحتها الشخصيات البريطانية.

* * *

منذ اللحظة الأولى، راحت عيون المسئولين البريطانيين ترقبهم، وعقب وصولهم بيوم طلب جرانفل تبليغ دربى بصورة التعهد الذى قدموه لدفرن، وإرسال صورة منه إلى حاكم سيلان[1]. والواقع أن الحكومة البريطانية كانت حريصة للغاية على التمسك بهذا التعهد، ومما يذكر أنه بعد مضى ما يقرب من أربعة أشهر من وصول المنفيين، قدموا للحاكم عريضة موقعة منهم بينوا فيها أنهم يعترفون بما أقروا به، ويحافظون على كلمة الشرف التى أعطوها، ولكنهم أكدوا أن ذلك صادر منهم للحكومة البريطانية التى يمثلها مبعوثها دفرن، الذى هو ليس بمبعوث للخديو، وبالتالى فهم فى حل من هذا الوعد بالنسبة للحكومة المصرية، ثم أشاروا إلى انتصار الإنجليز على مصر، وأنهم أصبحوا أسرى حرب، وعلى بريطانيا أن تبر بوعودها التى بناء عليها أقروا بالعصيان خلافا للواقع، حيث أفهمهم دفرن أنهم بهذا الإقرار يقدمون لها خدمة نظير الإصلاح الذى ترغب فى إقامته بمصر. ورفعت العريضة لدفرن، فرد

---

(١) F.O. 78/4267, F.O-Colonial Office, F.O, Jan. 12, 1883.

عليهم،وأدحض قولهم، وبين أن الأمر لا يختلف سواء بالنسبة للحكومة البريطانية أو الحكومة المصرية[1]. ومن ثم فشلت تلك المحاولة، وإن عُدَّت نوعًا من التمرد لم يكن قد ألفوه أثناء النفى.

* * *

كان الحرص واضحا منذ أن وطئت أقدام المنفيين أرض جنة آدم، فيبعث حاكم سيلان إلى وزير المستعمرات ليعلمه أنه سيتصل بحاكم الهند بخصوص تنفيذ التعليمات الخاصة بعدم مغادرة المنفيين سيلان، وأنه كلف ضابط بوليس إنجليزيا يدعى هوارد Lt Howard للإشراف على تحركاتهم، وهو ذو خبرة عشرين عامًا، ويعمل تحت قيادة المفتش العام للبوليس بالحى الغربى لكولومبو، وثبت ذكاؤه وكفاءته، وصفاته تؤهله لتأدية المهمة بدقة، فى الوقت الذى سيعمل فيه على سلامتهم، وأنه فى حالة الضرورة يمكنه الاتصال بقائد عام البوليس والاستعانة بالجنود. ويشير لونجدن إلى الخطر الماثل فى الهند وسيلان المتمثل فى إمكانية قيام حركة إسلامية، والخوف من النظرة للمنفيين على اعتبار أنهم أبطال ومخلصون لوطنهم، وأن عرابى يعد قائدا من قواد المسلمين، وبالتالى سيكون هناك تلاق بين الطرفين، ثم يُبين أن عدد المسلمين يصل إلى ٢٠٠ ألف شخص، وأنه علم من موريس بك أنهم يتكلمون العربية كما يتكلمها المصريون، وهذا يعطى الفرصة لاتصالهم بالمنفيين وخاصة أن من هؤلاء المسلمين تجارا يتعاملون مع الهند، وبالتالى تتسع دائرة الاتصال بعرابى ورفاقه مع مسلمى الهند، وتكون النتيجة أن تفتح الهند أبوابها لهم إذا ما رغبوا فى ذلك[2].

وينتقل حاكم سيلان إلى وجوب أن يكون المشرف عليهم قويا وشديد الحيطة لهذه الظروف، وأن يُعد نفسه لجميع الاحتمالات، ويحول بينهم وبين الاجتماعات الإسلامية التى تعقد، وأخيرا يقترح ضرورة أن يكون هناك تحفظ فى اختيار مكان إقامتهم فى حالة رغبتهم فى التغيير، فيستبعد ميناء چفنة Jaffna حيث يفصله عن

---

(١) Ibid, Declaration May 2, 1883, Dufferin-F.O, Cairo, June 5, 1883.

(٢) Ibid, Longden-Derby, Kandy, Jan. 21, 1883.

شاطئ الهند ٣٣ ميلًا فقط - مضيق بلك - وتوجد بواخر يومية تربطه بالموانى الصغيرة بالهند، وذلك يستدعى إحكام الرقابة للخوف من السفر للهند خفية. أيضًا يستبعد ميناء باتيكالوا Batlicalloa، وإن كانت تبعد عن الهند، إلا أنها ترتبط بچفنة بتجارة واسعة، ويمثل فيها المسلمون نسبة عالية، وأنه بناء على هذه الاعتبارات لا يصرح للمنفيين بالإقامة فى هذين المكانين[١]. ويوافق دربى على تحليلات ورؤية حاكم سيلان، وتُصرح لندن بأنها لن تسمح للمنفيين بالانتقال إلى چفنة أو باتيكالوا، وتُبين أنه فى حالة ما إذا نقض أى منهم عهده ورجع عن كلمة الشرف وغادر سيلان، فلن يسمح له بالتوجه إلى الهند وإنما إلى سيشل[٢].

* * *

وجرت الاتصالات مع وزارة الهند، فتسلمت رسالة من وزارة المستعمرات وأخرى من حاكم سيلان، بخصوص احتمال اتصال المنفيين بالمسلمين فى الهند، وعليه تم إخطار دربى بأن الهند لن تصرح لهم بالإقامة فيها إذا تركوا سيلان[٣]. وصدرت التعليمات بأن يكون طلبهم فى تغيير أماكن الإقامة محدودًا، وينحصر فى أحياء معينة، ووجوب تحديد تحركاتهم فى المناطق التى يقيمون بها[٤]. ويكتب نائب حاكم سيلان إلى دربى عن تلك الإجراءات التى اتخذها لإحباط تنفيذ أية محاولة يقومون بها لمغادرة الجزيرة، ويُسجل له أنه أُعطيت لهم الحرية التامة، إذ يتمتعون بكل ما يريدون، ولم يعاملوا كمساجين أو أسرى حرب، وأنهم لن يجدوا ذلك فى بلد آخر، ويؤكد على ضرورة مراقبة الموانى خشية سفرهم إلى إحدى البواخر الإيطالية أو غيرها، حيث يكون الموقف صعبًا فى هذه الحالة، ومن ثم لا بد من وضع الرقابة الصارمة عليهم[٥]. وبعثت لندن لحاكم سيلان تخبره بأنه لو استدعى الأمر استخدام القوة لمنعهم من ترك سيلان تُستخدم، وأن تصدر الأوامر للضباط بالرقابة الفردية

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, Downing Street-The Under Secretary of State (F.O.), Feb. 20, 1883.

(٣) *Ibid*, Downing Street-F.O, Dec. 11, 1883.

(٤) Ibid, F.O.-Colonial Office, March 8, 1883.

(٥) Ibid, Douglas-Derby, Colombo, Oct. 29, 1883.

عليهم، وتكون بحذر تام دون إشعارهم بزيادة الحرس، وذلك بعد زحف الشك إلى التعهد وكلمة الشرف[١].

وتنفيذًا لهذه السياسة، أصبح لا بد من محاصرتهم وإحاطتهم بسياج من التحكم، وقد أدى جوردن Gordon حاكم سيلان دوره في هذا الشأن، واعتمد في تنفيذ المخطط على كامبل Campbell مفتش عام البوليس، الذي كان يُدون كل حركة عنهم ويرفعها إليه، وفي البداية أوضح له أن الرقابة عليهم ليست بالعمل السهل وتحتاج إلى حيطة، وأنهم يقيمون في منازل متباعدة ومتفرقة في أنحاء المدينة تحيط بها حدائق واسعة، وقد أعطى للخدم أوامر بعدم السماح للجمهور بالاتصال بهم بأي حال أو دخول منازلهم، ويشير إلى حرصهم على ألا يرى أحد زوجاتهم وحريمهم، وأن بعضهم يغادر منزله لزيارة زميل له وقد يعود في وقت متأخر أو لا يعود إلا في الصباح، ثم يُبين أن المسئولية جسيمة لتلك الصعوبات التي تكتنف الرقابة[٢].

ولكن ما لبث أن دوَّن تقريرًا في ٣ ديسمبر ١٨٨٣ وتناول فيه بالتفصيل خطواتهم وما هو مصرّح لهم وما هو محرّم عليهم، فقد سمح لهم بالتجول في المدينة، وأخطرهم أنه عند طلب أي مساعدة أو الرغبة في الاتصال بالحكومة يكون ذلك عن طريقه، وأنه عين الحرس واستعان بقوات أخرى من الخدمات، وعندما ارتاب في احتمال اتصال أحد منهم أو أكثر بالهند أحكم الرقابة، ثم يتحول إلى إعطاء وصف شامل لصفاتهم، فيذكر أنهم أذكياء، وأعمارهم تتراوح بين ٤٠ ـ ٤٥ سنة، ويتسمون بالهدوء والنظام وتنسيق منازلهم، وأنهم على علاقة صداقة مع الشخصيات البارزة بالمجلس التشريعي والزعماء المسلمين ذوي الاتجاه المعتدل وأصحاب المحلات وصغار التجار، وجميع هؤلاء مخلصون للحكومة البريطانية، وأنهم ـ أي المنفيون ـ يفضلون الحديث باللغة العربية، وإن كانوا قد بدءوا في تعلم القليل من اللغة الإنجليزية، وأخلاقهم وطباعهم حسنة، ويتحلون بالأدب الجم، ويسرهم اتصالهم المحدود بالأوربيين، ثم يُوضح كيف كون معهم علاقة أسرية حيث دعاهم إلى منزله

(١) Ibid, Downing Street-F.O, Dec. 11, 1883.

(٢) F.O. 78/4268, Campbell-Gordon, Colombo, Aug. 27, 1883.

والتقت زوجاتهم بعائلته، وأنهم على علاقة صداقة وثيقة مع اثنين من ضباطه اللذين هما موضع ثقته[1].

وينعطف مفتش عام البوليس على الاتجاه السياسى للمنفيين، فيشير إلى أنه ليس من السهل التعرف عليه لجهلهم أى لغة خلاف اللغة العربية، وقد أعلمهم بلنت أنهم يعتبرون أنفسهم ضحية، وينظرون إلى توفيق على أنه رجل مجرد من الأخلاق، ويذكر التحذيرات التى فرضت عليهم بألا تكون لهم صلة بالسياسة أو الاتصال بمصر، ويذكر أن محمود صدقى نجل محمود فهمى الذى يبلغ من العمر ما بين ١٨ ـ ٢٠ سنة، أقدم على تهديدات إن لم يعد المنفيون إلى مصر لرغبته فى العمل بالسياسة، وألقى خطبة فى أحد اللقاءات التى عقدت لبلنت باللغة الإنجليزية حملت هذا الاتجاه، وكان قد حدث خلاف بينه وبين أبيه، وغادر منزله وأقام مع عرابى[2].

* * *

وبذلك أصبحت الصورة واضحة المعالم أمام أعين المسئولين، وكان الخوف مسيطرا عليهم من خرق مخططهم. وفى مارس ١٨٨٤ انتشرت إشاعات بأن عرابى ومحمود فهمى يستعدان للعودة إلى مصر، وأنهما أعدا ملابسهما ويجهزان نفسيهما للإبحار، وعلى الفور كتب كامبل للحاكم وصرح بأنهما صاحبا النشاط من بين المنفيين،ودائما يجتمعان فى منزل عرابى، وأن لهما زائرين كثيرين ويتردد عليهما بحارة فرنسيون وبعضهم يبقى لوقت متأخر من الليل، ومن الممكن اصطحابهما معهم بسهولة، حيث إن الزيارات غير ممنوعة، وذلك مما يعمل على صعوبة عمل المخبرين، وأن عرابى شكا لأحد الشخصيات البريطانية من رصد جميع تحركاته. وينتهى مفتش عام البوليس إلى قراره بأنه سيقبض على كل من يحاول الهرب من المنفيين[3].

وواصل الحذر طريقه، فعندما قام سلطان مملكة جاهور الهندية ـ من المسلمين

---

(١) Ibid, Gordon-Derby Colombo, Dec. 19, 1883, Campbell's Report, Dec. 3, 1883.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid, Campbell-Governor of Cylon, Colombo, March 1884.

الشيعة ـ بزيارة عرابى عام ١٨٨٤ صاحبه مستشار بريطانى، وأدرك عرابى مغزى المرافقة «حتى لا ينبس نبسة إلا حفظها الرقيب عليه فى حبة قلبه، وبعد نصف ساعة عـاد ـ أى السـلطان ـ إلى دار حكومـة سـيلان»[١]. ومن المحتمل أن تكون هذه الزيارة بوازع من السلطات البريطانية لقياس غور اتجاهات عرابى حيال مغادرة الجزيرة.

* * *

وشكلت مسألة المراسلات بين المنفيين وذويهم ميدانا جرت فيه المباحثات وتناولت مسألة الرقابة عليها، فعقب وصولهم بعشرة أيام، كتب حاكم سيلان إلى وزير المستعمرات يعلمه برأيه فى أن يصبح مقر الرقابة بالسويس، حيث وصول البريد إليها وخروجه منها، وتكون بمعرفة الحكومة المصرية، إذ وُضع فى الاعتبار أن البعض منهم ترك أفرادا كثيرين من عائلته فى مصر، وطبيعى ستكون هناك خطابات متبادلة بينهم، وبالإضافة إلى أنها تعد مراسلات خاصة، فهى باللغة العربية ومن الصعب قراءتها فى سيلان حتى لو سُمح بذلك، ويحتاج الأمر لمترجمين، وإذا وجدوا، فإن فتح الخطابات وقراءتها ستعكس انطباعًا سيئًا عليهم، أيضًا فالثقة ليست متوفرة لديهم، وستكون النتيجة فى غير المصلحة. أما فى مصر فالوضع يختلف تماما، فالمنفيون وضعهم حساس للغاية لأنهم كانوا ثوّارا، وأقل ما يمكن أن يتنفسوا الصعداء بمراسلاتهم مع عائلاتهم،ويصح للحكومة المصرية بعد الرقابة تسليم المراسلات لذويهم مع ضباط مصريين، وعليه فالوضع متغير بين سيلان والسويس، ويؤيد دربى وجهة نظر لونجدن[٢].

وأخطرت الخارجية البريطانية دفرن لترتيب الرقابة على المراسلات وفقا للخطة السابقة[٣]. ومن ثم قام المبعوث البريطانى بالاتصال بالمسئولين بالحكومة المصرية للقيام بهذه المهمة إذا كانت قوانين البريد تسمح بذلك، وكتب إلى جرانڤل يطلب

---

(١) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٦٠.

(٢) F.O. 78/4267, Longden-Derby, Kandy, Jan. 21, 1883, Downing Street-Under Secretary of State (F.O.), Feb. 20, 1883.

(٣) Ibid, F.O-Colonial Office, March 8, 1883.

منه أن يُبلغ حاكم سيلان عرابى ورفاقه بعدم إرسال خطابات لمن كانوا يعملون معهم فى الثورة[١]. وكانت لوزير الخارجية البريطانية رؤيته الخاصة، فقد أبدى رغبته فى وقف إرسال خطابات من المنفيين إلى مصر، ولكن المسئولين البريطانيين لم يقروا ذلك، وخاصة أن هذه المراسلات لعائلاتهم، وأوضحوا أنه إذا وجدت خطابات تمس السياسة فينظر فيها، ويحذرون من إرسالها أو أن يكون لهم أى اتصال بالسياسيين[٢].

* * *

ونفَّذ المسئولون فى مصر مسألة الرقابة؛ فخضعت البرقيات والخطابات لها[٣]. ومثَّلت مراسلات عرابى أهمية خاصة، وذلك عندما اشتبه وزير المستعمرات فى إمكانية أن تكون هناك خطابات بينه وبين المهدى بالسودان، وعليه أرسل لحاكم سيلان تحت هذا المعنى، فرد مبينا أن الخطابات العادية الصادرة منه أو الواردة إليه إذا فتحت، فمن المحتمل اكتشاف ذلك، ولكن الخطابات المسجَّلة خاصة المرسلة منه للخارج يمكن فحصها بكل اطمئنان، وأرفق بكتابه صورة خطاب مرسل إلى عرابى بمعرفة باخرة فرنسية، ويذكر أنه فور اكتشافه لذلك، اتصل مباشرة بالمعتمد البريطانى فى مصر بهذا الخصوص[٤].

إذن لم تعد الرقابة قاصرة على السويس، وفُتحت خطابات عرابى، وأرفقت الخارجية البريطانية أحدها مرسلا منه لمصر، وتبين أنه ليست له أهمية، وبالتالى رأى جرانفل عدم فتحها وفحصها، إلا إذا كان هناك سبب وجيه، وفى الوقت نفسه ترك لحاكم سيلان اتخاذ ما يراه فى هذا الشأن[٥]. وعادت الخارجية البريطانية لتؤكد أنه لا مانع من تسليم عرابى الخطابات الواردة له أو إرسال الصادرة منه طالما أنها عادية[٦].

---

(١) Ibid, Dufferin-Granville, Cairo, April 16, 1883, No. 119.

(٢) Ibid, Downing Street, May 9, 1883.

(٣) F.O. 78/4268, Gordon-Derby, Colombo, Dec. 19, 1883.

(٤) Ibid, Gordon-Derby, April 11, 1885.

(٥) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O, May 27, 1885.

(٦) F.O. 78/5176, F.O, June 30, 1897.

وبذلك يتضح شغف المسئولين البريطانيين لمعرفة اتصالات عرابى واتجاهاته ومدى ارتباطاته السياسية خاصة مع المهدى الذى حمل التقدير لقائد الثورة العرابية، وكم تمنى أن يفتديه ويفك أسره، ورغم أن عرابى كانت له رؤية فيما يختص بالمهدى المنتظر، حيث لم ترق له تلك المسألة، فإنه لم يعارض موقفه الثورى، ففى عام ١٨٨٤ نزل بالجزيرة لورد روزبرى Rosbery ـ من الأحرار وصديق لجلادستون ـ والتقى عرابى، وحضر المقابلة محمود فهمى، وتحدث اللورد عن دعوة المهدى وخطورتها على مسلمى الهند، وأن الحكومة المصرية أرسلت جيشًا تحت قيادة هكس Hicks، وطلب معرفة رأى محدثه، فاستنكر ذلك بطريقة تنم عن الذكاء، مُبينًا أن فى هذا صالحا للمهدى وتقوية لثورته. وعندما سأله اللورد عن العلاج أفاد بإمكانية إرسال وفد مصرى من العلماء لإقناعه بأن وقت المهدى المنتظر لم يحن بعد، وإن كان طالبًا لِمُلك فيُنَصَّب أميرًا على السودان تابعًا لمصر التى عليها إدخال الإصلاحات إليها مقابل جزية تدفعها لها[1].

* * *

ومن الملاحظ أن معاناة بريطانيا من الثورة المهدية قد تركت أثرا طيبا على نفسية عرابى حيث شفى غليله لتلك الهزائم التى مُنيت بها وعدَّ هذا انتقاما منها لما قامت به تجاه الثورة التى قادها، لكنه لم يجهر بذلك صراحة، وفى الوقت نفسه ساءه تصرفاتها، ويترجم موقفه الخطاب الذى بعث به إلى زوجة بلنت فى ٢ مارس ١٨٨٥ ـ بعد سقوط الخرطوم ـ ردًا على ما كتبه بلنت فى صحيفة التايمز عن مصر وإنجلترا والسلطان، وتلك القصيدة التى حملت عنوان «الرياح والعواصف» التى تعرضت للمآسى والنكبات المتوقع حدوثها، ويُشيد بذلك معلقا على قدرة الله فى إنقاذ الضعفاء والمظلومين وتحطيم الجبابرة، ويسوق الأمثلة بالإمبراطوريات التى هوت عروشها، ويتحوّل إلى الموضوع الأساسى، فيبين أنه شديد الكدر لسقوط نجم إنجلترا بسبب أعمالها السيئة فى مصر والسودان، ويشير إلى أن الله يسمع صراخ المظلوم والأرملة والطفل الصغير وسوف ينتقم لهم، وأن الشعب المصرى لديه النية

---

(١) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٦٠. كذلك فاتح بلنت عرابى فى الطريق الذى يمكن اتباعه لإنهاء ثورة المهدى، كما عرض عرابى وساطته فى هذا الشأن كما سيتضح عند تناول الحديث عن العلاقة مع بلنت.

الطيبة إزاء الأمة الإنجليزية، وثقته فيها أكثر من سواها، ويؤسفه أن يرى فى اعتقاده هذا نوعًا من الوهم والخداع[1].

* * *

ويعدِّد عرابى ما فقدته إنجلترا، اسمها الحسن، وصداقتها لجميع المسلمين وللسلطان، وجوردن ـ نظرًا لاتباعه النصائح المزيفة ـ وهكس وإيرل وكثير من الضباط، واحترام الجميع، وذلك كله لحربها ضد الرجال الأحرار فى السودان. ويستعلم عن الوقت الذى ستتوقف فيه عن المضى فى هذا الأسلوب بإرسالها جيوشًا من رجال ينتقمون لإخوانهم المصريين، ويدافعون عن وطنهم، ويفضلون تجرع كأس المنية عن رؤيتهم لعدو يخترق حدوده. وينتهى عرابى إلى أن السودانيين قد وضعوا أيديهم على السودان وجميعهم من أتباع المهدى الذى عاهدوه على الاستشهاد اتباعا لما جاء به القرآن الكريم، وبالتالى فإنه يزداد قوة كلما اشتد العدوان الإنجليزى ضراوة. ويختم خطابه بالقول «وتلك هى حكمة الله مع خلقه، ومع كل هؤلاء الذين لديهم القدرة على أن يروا ويتأملوا ويفهموا، وهذا هو القانون الإلهى الذى لا يمكن الهروب من حكمه، وأن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء»[2]. وعاد عرابى وبعث بخطاب آخر إلى يعقوب بن صنوع فى إبريل ١٨٨٥ حمل نفس المعنى[3].

ومن ثم ينعكس العطف الذى أسبغه عرابى على السودانيين وثورتهم، وعقب القضاء عليها استمر فى موقفه الودى من السودان، ففى حديث له مع مراسل الصحيفة البريطانية Pall Mall Gazette فى يناير ١٨٩٢، وعندما سأله عن إعادة التجارة بين

---

(١) Arabi-Anne Blunt, Colombo, March 2, 1885 in Blunt, Gordon At Khartoum, pp. 548, 549.

كانت زوجة بلنت حفيدة لورد بايرون.

(٢) Ibid.

(٣) Chaillé-Long-Bey, Les Trois Prophètes: Le Mahdi, Gordon, Arabi, pp. 257, 276.

يعقوب بن صنوع (٩ فبراير ١٨٣٩ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩٢١) يهودى مصرى رغم انتماء والده الإيطالى، برع فى المسرح، وعمل فى الصحافة، وأتقن الكاريكاتير، وأسهم بنصيب وافر فى الحركة الوطنية وبلورة الرأى العام قبيل الثورة العرابية، ولم يستطع الخديو إسماعيل الصبر على نقده اللاذع، فقرر نفيه عام ١٨٧٨. وقد استمر تأثيره داخل مصر عن طريق صحافته التى كانت تصلها من مقر إقامته فى باريس.

مصر والسودان، أجاب بأنه طالما بقيت القوات البريطانية فى مصر فلن تعود، وأن بقاءهم يؤدى إلى كراهية السودانيين لمصر، وإذا غادروها فستكون مصر والسودان دولة واحدة بحكم الدين واللغة والطباع، ثم ذلك النيل الذى يربط حياتهم[1]. وعليه ينجلى أن توجس المسئولين البريطانيين خيفة من تعاطف عرابى مع السودانيين كان فى محله، وأن حرصهم الشديد على إقصاء أى ترابط جعلهم يتشددون فى مسألة الرقابة عليه.

* * *

ولم يتحقق التخطيط البريطانى تمامًا بشأن تحويل المنفيين إلى أفراد عاديين خاصة عرابى، وكُسرت سياسة العزلة، ودون الدخول فى تفصيلات، فإن الثورة العرابية كان لها الأصداء الخارجية فى أوربا وإفريقيا وآسيا، واعتبر قائدها رمزا للوطنية أمام الجميع، وتحول فى نظر المسلمين على وجه الخصوص إلى شخصية مدافعة عن الإسلام، وإذا وضعنا فى الحسبان ما كان يتردد بشأن نسبه الشريف تكتمل الصورة لتغدق عليه المكانة حتى بعد الهزيمة، وساعد مكان نفيه على تلك الاستمرارية.

وبدأت تفد على عرابى مراسلات من بعض حكام ممالك جنوب شرق آسيا ـ سيام، سنغافورة، الملايو ـ والمقربين لهم، وبالاطلاع عليها تبين أن منها ما يحمل الألقاب الدالة على العظمة والسلطان، كما أنها تفيض بالفخر به، لدرجة أنه يعلق على إحداها «والمعلوم أنى لست بملك ولا سلطان، ولكن هذا مبلغ علمه (المرسل منه) وحسن ظنه وفرط حبه لآل بيت الرسول ﷺ»[2]. وبعضها يعد فيه أصحابها بزيارته ويرسلون معها صورهم، وبعضها يشيد به، ويُركز على نسبه حتى يصل به إلى ابن عبد مناف. ومما تجدر الإشارة إليه أن إحداها يتعرض فيها كاتبها إلى أن الإنجليز تغلبوا على مملكة كدة ـ تقع فى الملايو ـ واستأثروا بها ولم يتركوا للعائلة الحاكمة فيها إلا العاصمة، وحفظوا لحاكمها لقب السلطان فقط، وعينوا له مستشارًا إنجليزيًا[3]. وهذا يدعونا إلى التساؤل، كيف سمحت الرقابة بوصول تلك الخطابات

---

(1) F.O. 78/4589, Pall Mall Gazette, Jan. 27, 1892.

(2) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٩٥. سيام (تايلاند حاليًا)، الملايو (ماليزيا الآن).

(3) المصدر نفسه، ص ص ٦٩٦، ٦٩٧.

لعرابى؟ الواقع أنه تسلم البعض منها بواسطة القناصل، وكان يقوم بالرد عليها[1]، وبالطبع استخدم نفس الطريقة. وهكذا تبدو رؤية الحكام المسلمين لعرابى، وعدم تمكن السياسة البريطانية من قطع هذه الاتصالات.

* * *

ومما لا شك فيه أن للخطابات ثقلها وعلى وجه الخصوص لدى الذين يعيشون غرباء عن بلادهم، وحالة المنفيين كانت فى أشد الحاجة لمن يواسيهم ويضمد جروحهم ويحسن من نفسيتهم، وخاصة أن الهجوم صوب عليهم، وقد بعث نينيه Ninet - صديق قادة الثورة السويسرى - بخطاب إلى عرابى فى ٢ أكتوبر ١٨٨٣ يدحض فيه ما ذكرته الصحافة الأوربية عنه ومن سار فى ركابها، ويشيد بوطنيته وبرفاقه الذين شاركوه كفاحه[2]. وعلى نفس الدرب يرسل عبد الله النديم إليه رسالة «يعزيه بها ويسليه بعد الذى جرى من الانكسار والرحيل من الديار»، وما قام به الخونة، وما ينتظرهم من سوء عاقبة، ويسوق له الأمثلة من الهزائم التى تعرض لها الخلفاء والملوك، وأن الأمل فى العودة لمصر قريب، ويحاول رفع معنويته، فيذكر له شوق المصريين إليه، وأنه عندما يصل منه خطاب إلى أحد يدور به على محبيه، ثم يُعرج على مكانته فى الغربة وشهرته الواسعة وزيارة العظماء له، كذلك يمجد رفاقه[3].

* * *

أما عن اللقاءات مع المنفيين على الأرض السيلانية، فعقب أيام قليلة من وطء أقدامهم لها احتفى بهم، فأقيمت المآدب المتعددة، بدأها الأعضاء المسلمون بمجلس الشورى وتبعهم الأعيان؛ ثم تلاحقت على أيدى غيرهم من الطوائف الأخرى،وقد رد المنفيون هذه الدعوات إلى أصحابها فى وليمة مشتركة[4]. ومما يُسجل أنه كما كان منزل عرابى فى مصر يمثل بيت الأمة أثناء الثورة، فإن منزله فى جنة آدم اتخذ شكلا مشابها، فلم يمض إلا وقت قصير حتى اتخذ كل من المنفيين منزلا مستقلا

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) Ninet, J, Arabi Pacha, pp. XVII, XVIII.

(٣) النديم، عبد الله، رسالة إلى صديقه أحمد عرابى باشا، د.ت. انظر ملحق رقم ٢.

(٤) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٥٨.

بناء على طلبهم من حاكم سيلان الذى اعتبره طلبا معقولا[1]. واستمروا فيه حتى عام ١٨٩٢ حيث انتقلوا إلى مدينة كاندى، ولم يبق فى كولومبو إلا محمود فهمى لمرضه. ويزداد عدد المسلمين فى المقام الجديد إذ يمثلون نصف عدد السكان، ويذكر عرابى أن سبب الانتقال إليها يرجع إلى «قرب مناخها لمناخ مصر فى زمن الربيع»[2]. ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد، فمعروف أنها مقر للحاكم البريطانى، وبالتالى تكون متابعتهم أيسر وأسهل.

وكان من الصعب منع الزيارة لمنزل عرابى، وبالذات بعد أن اتسعت صداقته وتوافد عليه الكثيرون، فقد أصبح مسلمو الهند يمرون عليه أثناء رحلة الحج إلى مكة، وتُعلِّق صحيفة The Out Look «إنهم جاءوا ليعبروا عن تقديرهم للرجل الذى يعتبرونه بطل الوطنية المصرية، والذى ساقه القدر ليكون أحد سكان هذه الجزيرة، تلك التى تمتعت بمكانة دينية لهبوط آدم عليها»[3]. ومما لا شك فيه أنه للمسحة الدينية التى ارتسمت عليه أثرها، فارتباطه بالمسجد ومداومته على قراءة القرآن الكريم[4]، أعطته انطباعًا خاصًا لدى الناس، فأقبلوا عليه وتقربوا منه، ومع هذا فإن الأمر لم يقتصر على استقباله للمسلمين فقط، وإنما فتح بابه على مصراعيه حتى لقد طرقه جنود من أوروبا وأمريكا[5]. وأسعده هذا المناخ الاجتماعى وجعله يواصل الاستمتاع بمركزه، ولم يحظ غيره من المنفيين بما تمتع به، ويرجع ذلك إلى طبيعة شخصيته فهو يمتلك القدرة على جذب محدثيه، هذا من ناحية، وما انطبع فى الأذهان بشأن دوره فى زعامة الثورة وتحديه وإشهاره السيف فى وجه بريطانيا من ناحية أخرى.

* * *

وحملت علاقة المنفيين بالإنجليز طابعًا خاصًا، فقد تعرض حاكم سيلان للوم

---

(١) F.O. 78/4267, Longden-Derby, Kandy, Jan. 30, 1883, No. 41.

(٢) عرابى، المصدر المذكور، ص ص ٦٦٣، ٦٦٤.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. III, The Out Look, Sept. 30, 1911.

(٤) Ibid,

خطاب من عرابى إلى برودلى فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٥.

(٥) Ibid, The Graphic, Sept. 30, 1911.

المسئولين البريطانيين فى لندن لدعوته لعرابى ومحمود فهمى ومحمود سامى لمأدبة عشاء عقب وصولهم الجزيرة بأربعة أشهر على أساس أنه كان فى كاندى وقت وصولهم، وأن الدعوة شملت خمسة وعشرين شخصًا من بينهم هؤلاء الثلاثة وأجنبيان آخران، وأنه فى اليوم التالى للمأدبة أقامت زوجته حفل عشاء لزوجات المنفيين وفقًا لعاداتهم بشأن عدم اجتماع الرجال مع النساء فى مكان واحد، ويعتذر لونجدن عن تصرفه، ويُبين له أنه لم يعامل المنفيين معاملة خاصة وإنما كباقى المدعوين(١). معنى هذا حرص لندن على الحد من الانفتاح والمحافظة على سياسة الانكماش.

ومما يذكر أنه عند زيارة الرسميين البريطانيين للجزيرة كان لا بد أن يتم اللقاء بينهم وبين عرابى، حدث ذلك عندما حضر إليها تشمبرلن Chamberlain وروزبرى Rosbery وماكدونالد Mac. Donald، وجرى الحديث عن بعض القضايا السياسية، وقد نطق عرابى بشكواه موضحا حقه الكامل فى العودة إلى وطنه، ووعده الجميع بالمساندة عندما تحين الفرصة المناسبة، ونصحوه بالصبر حتى يأتى الفرج(٢). أيضا حينما قدم دوق كنوت D. Of Connaught الابن الثالث للملكة ڤيكتوريا كان عرابى على رأس مستقبليه، ودعا الدوق المنفيين لمأدبة أقامها لهم بمقر الحكومة(٣). وقد أثمرت زيارة دوق كورنول ويورك D. Of Conrnwall & York عن إطلاق سراح عرابى وعلى فهمى من النفى وعودتهما إلى مصر(٤). كذلك استقبل عرابى بعض مسئولى الهند البريطانيين(٥).

وتوثقت الصلة بين المنفيين ووليم جريجورى W. Gregory ـ عضو مجلس العموم البارز، وعضو حزب الأحرار، ومن أتباع جلادستون، وعلى صلة بالبلاط الملكى، وقد تعاطف مع الثورة، وحرر المقالات لصالحها فى صحيفة التايمز ـ فقد كتب لوزير

---

(١) F.O. 78, op. cit., Longden-Derby, Colombo, July, 1883.

(٢) Broadley, The Trial..., Vol. III, The Daily Graphic, May 27, 1901, The Out Look, Sept. 30, 1911, Budport News, Oct. 15, 1911.

عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٦٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٦٦١.

(٤) انظر الفصل الرابع.

(٥) F.O. 78/4589, Ledivant-Colonial Office, Bangalore, Dec. 3, 1890.

المستعمرات ليعرض طلباتهم المتعلقة بالناحية المالية، وبعض المسائل الشخصية الخاصة بإحضار الزوجات، ويبعث دربى بتلك المراسلات التى تؤيد تظلمات المنفيين إلى جرانفل، وتقوم الخارجية البريطانية بالرد عليه[١]. ويقف فى مجلس العموم ليستعجل عودة عرابى ورفاقه إلى وطنهم، ويعمل كل ما فى وسعه ليحسن من حالتهم المعيشية، حيث كان يؤمن بأن ما يتقاضونه غير كاف لهم ولعائلاتهم على الإطلاق[٢].كما قام بأكثر من زيارة لهم عندما حضر إلى سيلان. وعليه يتضح اتصال الخط بين المنفيين وكبار الشخصيات البريطانية.

وربطت العلاقة بين المنفيين وغير المسئولين من البريطانيين، وشكَّل بلنت ركيزة أساسية فيها، حيث أعطى صورة الرجل المتعاون، وبرزت مساعيه عقب الهزيمة فى مسألة محاكمة عرابى ورفاقه، ويستمر فى اهتمامه بعد صدور حكم النفى عليهم، فيرسل إلى برودلى مستعرضا سوء حالة المنفيين المالية، وأن جنيها مصريا واحدا فى اليوم لا يكفى للفرد منهم وعائلته،وأنهم كانوا أصحاب ممتلكات صادرتها الحكومة المصرية، ويتناول قيمتها، ويذكر أن الإقرار أو التعهد الذى أخذ عليهم تم فى ظروف صعبة، بل إن محاكمتهم وصدور الحكم عليهم كان قاسيًا، ويرى أن تعمل بريطانيا على حسن معاملتهم وأن تسعى لدى القاهرة لتدبير المال اللازم لمعيشتهم ووسائل راحتهم[٣].

وازدادت صلة المنفيين بصديقهم، فيسطِّرون له ليبلغوه بأخبارهم، فيبعث طلبة عصمت ببرقية إليه يعلمه بمرضه وبما رآه الأطباء بشأن انتقاله إلى بلد جاف[٤]. وقد مثَّلت المراسلات المتبادلة بين عرابى وبلنت أهمية، فرغم أنه فرض على الأول ألا يتدخل فى الشئون السياسية، لكنه راح يرد على خطابات الثانى، وتعرَّض فى كتاباته لما هو محظور عليه، حيث استرجع الحوادث منذ مذبحة الإسكندرية التى وقعت فى ١١ يونيو ١٨٨٢، وتلوّن درويش باشا مبعوث السلطان ورشوة الخديو له، وموقف

---

(١) F.O. 78/4268, Greogorey-Derby, Hyde Park Corner, May 30, 1884, F.O _ Colonial Office, F.O, July 24, 1884, F.O-Greogory, F.O, Dec. 1st, 1884.

(٢) Broadley, The Trial..., Vol. III, The Daily Graphic, May 27, 1901.

(٣) F.O. 78/4267, Blunt-Broadley, Sussex, June 6, 1883.

(٤) Ibid, Toulba Esmat-Blunt, Colombo, May 14, 1883.

الأخير، والحزب المعارض للثورة، ودور محمد سلطان وعمر لطفى، والأوقات العصيبة التى مرت بها مصر، وتلك الاتصالات التى أجراها ـ عن طريق صابونجى صديق وسكرتير بلنت ومحرر صحيفة النحلة ـ لإبلاغه بالسعى لدى جلادستون قبل ضرب بريطانيا للإسكندرية بأيام(١). وربما كان طرق مثل هذه الموضوعات واسترجاع الذكريات تريح من نفسية زعيم الثورة الذى غُلب على أمره.

* * *

ومع خريف العام الأول للنفى، عقد بلنت العزم على اللقاء بالمنفيين، فأرسلت زوجته إلى الخارجية البريطانية تطلب التصريح لزوجها بالسفر إلى كولومبو لمقابلة عرابى ورفاقه(٢). ووافقت لندن، ولما كانت شخصية الزائر محببة إلى قلوب الشرقيين نظرا لما يُسطره سجله من مواقف متعاطفة معهم، قدمت الطلبات من قيادات المسلمين فى سيلان للتصريح بإقامة أقواس النصر مكان رسو الباخرة التى تقله، وفى الشوارع العامة كما يجرى عند قدوم عضو من الأسرة المالكة البريطانية، وحين وصول حاكم جديد للجزيرة، ويبعث دوجلاس إلى وزير المستعمرات بالأمر ويبلغه بأنه لم يوافق على التصريح لهم بذلك، ويعتبره إجراء مضادا لاتجاه السياسة العليا، ويُبين أنه سيعالج الموقف بطريقته حيث يشير إلى الشعور الإسلامى المتعانق فى هذا الصدد(٣).

ولم تمنع معارضة نائب الحاكم وفود المسلمين المتعددة من استقبال بلنت الذى وصل إلى كولومبو فى ١٩ أكتوبر ١٨٨٣، ويعطى دوجلاس لوزير المستعمرات

---

(١) Letter Received in London, Aug. 14, 1883 from Arabi, Dated Colombo, July 7, 1883.
Letter From Arabi To Blunt, Colombo, Nov. 10, 1883 in Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, pp. 537, 543.

مما يذكر أن عرابى كان يراسل صابونجى بناء على مراسلته له، وقد استعرض أحداث الثورة وما تعرض له الجنود المصريون أثناء الحرب، وكيف أغدقت عليهم التبرعات من كافة عناصر الأمة.

Letter Received Aug. 14, 1883, From Arabi To Sabunji, op. cit., p. 541.

(٢) F.O. 78, op. cit., F.O-Colonial Office, Oct. 24, 1883.

(٣) Ibid Douglas-Derby, Colombo, Oct. 11, 1883.

وصفًا لهذا الاستقبال[1]. ويذكر عرابى أنه ورفاقه استقلوا زورقا وذهبوا به إلى الباخرة المقلة لصديقهم وزوجته وكان بصحبتهما صابونجى، وعندما وصل الجميع إلى البر تكاثرت الجموع مما تعثَّر معه السير حتى المركبات لولا تدخل البوليس، وصاحبه الأصدقاء إلى مقر إقامته، وعلى طول الطريق كانت التحيات تحيط الركب من كل جانب. وأعد له عرابى مأدبة حضرها عدد كبير من الشخصيات، ألقى فيها أحد المحامين السيلانيين المسلمين خطبة، فأشاد بالضيف وانتصاره للعدل والحرية ومدافعته عن واجب الإنسانية. وفى حفل آخر أقامه المسلمون تكريمًا له، ألقى خطبة أثنى فيها على كرم مسلمى سيلان وحسن احتفائهم وعنايتهم بإخوانهم المصريين شهداء العدل والحرية والدفاع عن وطنهم[2].

ويكتب نائب الحاكم إلى دربى مشيرا إلى مقابلات بلنت للمنفيين، وجلساته مع محمود سامى، ثم ينقل دوجلاس ما دار من حديث بينه وبين الضيف، وأنه سأله عن انطباعاته عن المنفيين، فعلم منه أنه وجدهم فى راحة، وأن حالتهم أصبحت أحسن عما رآهم فى مصر، وينهى رسالته بأن بلنت سيغادر سيلان فى غضون أيام متجهًا إلى الهند لزيارة بعض المدن فيها، وأنه أبلغ الهند سرًا بالمعلومات التى حصل عليها منه[3].

* * *

ويرفع مفتش عام البوليس تقريرا وافيا عن أحداث الزيارة موضحا مدى الارتباط بين المنفيين وبلنت، فيبدأ ببيان أهمية شخصية عرابى ومحمود سامى، والمراكز التى كانا يشغلانها أثناء الثورة، وأنهما حتى أثناء النفى يعتبران الزعيمين، ولكنه يعود ويركز على عرابى ويعده أكثر المنفيين نقاء وأقواهم شخصية، ثم ينتقل إلى وقائع اللقاء الرسمى الذى حضره المنفيون، فيسجل أن محمود سامى وقَّع أولًا وتبعه عرابى وباقى المنفيين، وعند الدخول عقب التوقيعات أُتبع نفس النظام، وبالتالى فقد شغل محمود سامى المقعد الرئيسى مما جعله فى المقدمة. ويصف كامبل

(١) Ibid, Oct. 29, 1883.

(٢) عرابى، المصدر المذكور، ص ص ٦٥٨، ٦٥٩.

(٣) F.O. 78, op. cit., Douglas-Derby, Colombo, Oct. 29, 1883.

شعور الحب الذى انتاب الوفود الإسلامية لبلنت وكيف أنه نابع من قلوبهم لدفاعه المشهور عن المسلمين،وعرَّج على وصف استقبال بلنت وزوجته ـ أثناء إقامتهم ـ للمنفيين واعتبارهم كضيوف عظماء، كما دون كلمات المنفيين عن صديقهم التى أظهرت تعاطفه معهم وما بذله من مساعى لإنقاذ حياتهم، وأنه ذو شخصية لها وزنها لديهم(١).

وينقل مفتش عام البوليس تصريح بلنت الذى أدلى به بأنه لم يكسب أكثر مما كسب فى قضية عرابى ورفاقه، أيضًا يعرض تحليلاته عن شخصيتهم من واقع رأيه الشخصى وحكمه عليهم، إذ يقول «إن عرابى شخصية لا تشوبها أية شبهات، ومحمود سامى رجل أصيل، والخمسة الباقون لم يكن لهم دور أكثر وضوحًا فى الأحداث العرابية عما قام به آخرون كثيرون، وأن لعرابى تأثيرا كبيرا على عقول المصريين، وهو مخلص لوطنه ومحب لبلده، وكان يعمل لها ومن أجلها، ونجح فى إقناع الناس بمختلف طبقاتهم بمبادئه، وأن ما يتمتع به من العمق الدينى والسياسى وثقله فى المجتمع، مكنه من توحيد جميع القوى فى كتلة واحدة تعمل لهدف واحد»، وينتهى بلنت إلى «أن الخديو ضعيف وغير صالح، ولن يبقى أكثر من سنتين، وفى هذه الحالة ستخمد المعارضة ويعود المنفيون إلى بلدهم ويتولى عرابى رئاسة النظارة»(٢). وبذلك أعطى بلنت هذه الصورة البراقة، وما لبث أن غادر مع مرافقيه الجزيرة إلى الهند، واحتفى بتوديعه بنفس الطريقة التى استقبل بها(٣).

* * *

ووضح اتجاه بلنت حيال إمكانية حياة سياسية جديدة يحياها المنفيون بعد رجوعهم إلى مصر، وقد أكد ذلك خطاب بعث به إلى عرابى فى ٢٦ إبريل ١٨٨٤ يبلغه فيه أن أمل العودة للوطن أصبح أكبر منه فى أى وقت مضى، والسبب يرجع أولًا: إلى أن العناية الإلهية تريد علو الحق دائمًا، وثانيًا: أن الحكومة البريطانية

---

(١) F.O. 78/4268, Gordon-Derby, Colombo, Dec. 19, 1883, Campbell's Report, Dec. 3, 1883.

(٢) Ibid.

(٣) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٥٩.

وجدت نفسها فى مصر أمام صعوبات كبيرة، فى مقدمتها اضطراب الحالة المالية ثم مسألة المهدى، وبالتالى أصبحت شديدة الميل للجلاء عن مصر، وترى أنه لا بد لها قبل تلك الخطوة أن تقوم فى مصر حكومة ثابتة وأمير يستطيع أن يكون على اتفاق مع ثائر السودان، ولهذا فمن المحتمل أن تتخلى عن توفيق لعدم قدرته على الحكم، لتضع زمامه فى يد غيره قبل جلاء قواتها عن مصر[١].

ويُشير بلنت لعرابى إلى الخطر المحيط بجوردن فى الخرطوم والذى يجبر الحكومة البريطانية على الوصول لاتخاذ قرار سريع، وأنه قد اقترح عليها أنْ يذهب كمبعوث للمهدى للحصول على السلام، ولإنقاذ حياة جوردن، وفى حالة قبول اقتراحه لا بد من موافقتها على خطته بشأن وجود حكومة صالحة فى مصر، ويضع بلنت أمام عرابى عدة تساؤلات واستفسارات، فيطلب منه صراحة الشروط التى تمكنه من العودة مع رفاقه لمصر، وأنه يعلم أن فى استطاعته قبول العمل مع حليم باشا ـ الابن الأصغر لمحمد على، وقد سعى لتولى عرش الخديوية أثناء الثورة العرابية ـ ويتطرَّق إلى مدى موافقته للعمل مع الخديو السابق إسماعيل، ويذكر أنه تلقى رسائل منه فى مرات عديدة، وأن أصدقاءه حدثوه عن أنه وعد بالعمل مع عرابى إذا عاد للعرش ـ كان يتوق لذلك، وبذل المجهودات إبَّان أحداث الثورة ـ ويعود بلنت ليقف من المرسل إليه على مدى تصديق هذا الوعد، ويشير إلى اقتراحه ـ فى أية حالة ـ بأن قيادة الجَيْش سوف تكون من نصيبه[٢].

* * *

وبعد ذلك العرض ينتقل بلنت إلى رغبته فى معرفة ما إذا كان هناك أى أمير من بين أمراء المسلمين يرشحه عرابى ويقبل العمل معه، ويركز على الهدف الأساسى، وهو أن يكون فى مقدور الحاكم الجديد عقد السلام مع المهدى، ثم يوضح أن السياسة دائمة التغيير، وما هو صحيح اليوم قد لا يكون صحيحًا فى الغد، وما عورض بالأمس محتمل قبوله بعد ذلك. وأخيرًا يُصرِّح له أنه من الضرورى طرح رأيه على المؤتمر الجارى عقده، ويطلب منه أن يحرر له أفكاره وأفكار رفاقه، وأنه إذا عقد النية على العودة لمصر لتقلد منصب النظارة تحت حكم إسماعيل، فيبرق إليه بكلمة «مقبول»،

---

(١) Blunt-Arabi, London, April 26, 1884 in Blunt, Gordon At Khartoum, p. 544.

(٢) Ibid.

وإذا كان العكس تكون الكلمة «مرفوض»، ويعود بلنت ويؤكد لصديقه أنه لا يعنى أن تكون هناك صداقة تربطه بإسماعيل، وإنما كل ما يهدف إليه معرفة رأيه الحقيقى عن قدرته للعمل معه[1].

ويأتى رد عرابى على بلنت فى ٢ يونيو، ليسجل أن إسماعيل شخص مخادع وصاحب سمعة سيئة لانعدام أمانته، وأنه السبب لما حاق بمصر من انهيار، وأن الديْن الذى يخنقها يرجع إلى أفعاله، ولا يوجد من بين الأسرة المالكة من لديه المؤهلات المطلوبة لتولى العرش، ولكنه يُعدِّد الأدوات التى يمتلكها حليم باشا لتولى الحكم، ويُحلل أحقيته فى أنه الوريث المباشر لمحمد على، ويلقى الترحيب من المصريين، وتعرض لمحن جسيمة لفترة طويلة ووقع عليه الظلم، وفى النهاية يصل إلى بيت القصيد، بإمكانيته عقد معاهدة بين المهدى والحكومة المصرية، ثم يبين لصديقه أنه فى حالة اعتزامه الذهاب إلى المهدى، فعليه أخذ بعض الخطابات المختومة بخاتمه لاستخدامها كدليل على أنه صديق مخلص للعالم الإسلامى، وأنه كان الواسطة التى أنقذت حياته وحياة رفاقه[2].

ومعروف أن بلنت كان على صلة بالمسئولين، وقد يكون مثل هذا الاتجاه عرض على بساط البحث، وخاصة أن الثورة المهدية أقلقت مضاجع بريطانيا، وكانت شغوفة على إخمادها بأية صورة، أيضًا سبق أن وضح خشيتها من وجود صلة بين عرابى والمهدى، ولكن سرعان ما أوصد هذا الباب بانتصارها. ولم تضم الوثائق بعد ذلك أية إشارة لارتباط عودة المنفيين بانخراطهم فى الحياة السياسية، حيث اقتصر نشاط بلنت على السعى وبذل المجهودات لإسقاط حكم النفى، والعفو عن عرابى ورفاقه كما سيتبين فى حينه[3].

* * *

ومثَّلت شخصية برودلى ثقلا فى علاقة المنفيين بغير المسئولين البريطانيين، وهو

---

(١) Ibid, pp. 544, 545.

(٢) Arabi-Blunt, Colombo, June 2, 1884 in Blunt, Gordon At Khartoum, pp. 547, 548.

(٣) انظر الفصل الرابع.

أحد المحاميين الرئيسيين اللذين توليا قضية الدفاع عن عرابى ورفاقه، ومن المسلم به أن تنشأ عاطفة بين المتهم والوكيل الذى يدافع عنه أمام المحكمة، إذ يغمر الأول الإحساس بأن حياته قد وضعها بين يدى محاميه، وبالتالى فالأخير يقوم بمهامه مدققا فى كل كلمة يحملها القانون، وباحثا عن كل ثغرة ينفذ منها لينقذ موكله. ومما لا شك فيه أن برودلى أدى دوره بكفاءة، حقيقة كان الحكم متفقا عليه ولم يتطلب الأمر شروحات قانونية، لكنه كسر من الجمود، وخفف عن المسجونين، وتمكن من إقامة جسر من الصداقة استمر حتى النهاية، وبطبيعة الحال كان عرابى ورفاقه وهم فى حالة من الضعف والهوان فى أشد الحاجة لمن يقف بجوارهم فى ذلك الوقت العصيب، ووجدوا فى برودلى اليد المخففة لآلامهم، وقد لازمهم طوال الفترة التى مثلوا فيها أمام المحكمة إلى أن ودعهم وقت الرحيل.

وقد تبين من خلال المراسلات التى جرت بين المنفيين وبلنت أن عرابى نال الحظ الأوفر منها، ولكن إذا نظرنا إلى الخطابات المتبادلة بينهم وبين برودلى نجد هناك اختلافا، فالسبعة كتبوا له، بالتالى يرد عليهم، فلم يكد يمر شهر حتى يتسلم كل طرف خطاب من الآخر، وأحيانا كانت الخطابات جماعية، واعتبرت صورة حية لمعيشتهم، حيث سطرت الظروف التى عاشوا فيها. ومما يذكر أنهم كانوا سعداء لتعلمهم اللغة الإنجليزية ليكتبوا له بها، ومن الملاحظ أن الخطابات التى وصلته فى الفترة الأولى كانت باللغة العربية، ثم أصبحت باللغة الإنجليزية، ومن خلالها نلمس الحب الذى جمعهما، والمجاملات التى حرص عليها الطرفان، فيتبادل الجميع الصور بينهم حيث يعتبرونها تنوب عن المشاهدة، وعندما يقوم برودلى بنشر مؤلفه المتضمن الدفاع عنهم، تتوافد عليه خطابات الشكر منهم(١).

* * *

وتتضح السمة الخاصة بأن المنفيين لا يزالون يعتبرون أن محاميهم قادر على استرجاع ممتلكاتهم ـ على أساس أن الحكم الصادر بالنفى لم يدرج به ما يتعلق بالتجريد منها، وأن من سبق وحكم عليه بنفس الحكم حفظت له أملاكه ـ وتسوية

---

(١) Broadley, The Trial..., Vol. II.

أمورهم المالية الخاصة بالديون، واسترداد نياشينهم، والسعى للإفراج عنهم لدى المسئولين فى لندن، كما يشكون حالهم وفاقتهم، ويبسطون أمامه طلباتهم[١].

وقد انفرد عرابى بتسطير الكلمات الخاصة بالحالة السياسية، فسجَّل أن المنفيين لم يقترفوا إثما وإنما دافعوا عن بلادهم، وأنهم ليسوا بأشقى من باقى المصريين الذين غمسوا في بحر المظالم، وينتقد الأوضاع القائمة فى مصر وكيف أنها تقلقه وتزعجه، ثم ينقل آراءه فى الإصلاح، وتدور حول النقاط التى سبق أن كتبها أثناء وجوده بسجن الدائرة السنية وسلمها برودلى إلى دفرن، وقد اشتملت على بنود متعددة، تمثلت فى أن تكون مصر للمصريين لا ملكًا لشخص واحد أو عائلة واحدة ويتحول أهلها إلى عبيد، وأن ينتخب الوالى ـ بمعرفة رؤساء الأمة ـ من الذين حسنت سيرتهم من المصريين، ويكون عالمًا فاضلًا عفوفًا محبوبًا مقيدًا بالقوانين ومُنفِّذا لها، وينتخب مشايخ القرى والبلدان بمعرفة الأهالى الذين اشتهروا بالطهارة وحسن المعاملة، ويشكل مجلس نواب لعرض اللوائح والقوانين عليه، وواجبه حفظ حقوق الأمة، وتطبيق قاعدة المساواة فى الضرائب بين السكان قاطبة، ويوضع حد للمرابين الذين يسلبون الأهالى، وتبطل السخرة، وتلغى المحاكم المختلطة، وتوحد القوانين القضائية، ويكتفى بالموظفين الأجانب بقدر الضرورة، وتترك السودان للمهدى بشرط تبعيتها لمصر وتدفع خراجا سنويا، وتحتفظ قناة السويس بكفالة جميع الدول الموقعة على معاهدة برلين، وتعوض مصر بمبلغ كاف لتسديد ديونها، ويخفض الدين وفائدته، ويخفض وركو ـ الجزية ـ الآستانة،وتسهل المعاملات التجارية مع الدول، وتُعدل الضرائب وفقا لحالة الأراضى، وينتهى عرابى ببعض الإصلاحات الخاصة بديْن المقابلة وديون الأهالى[٢]. وفى ذلك وقفة مع نفسه إزاء البرنامج الذى كان يأمل تنفيذه عند نجاح الثورة. وبديهى أن السلطات المسئولة كانت على بينة من تلك المراسلات بناء على سياسة الرقابة، ولم تجد فيها ما يشكل خطرا عليها، وعليه استمرت ولم توقف.

* * *

---

(١) Ibid, Vol. II, III.

من الطريف أن خطابات بعض المنفيين تبدأ بنداء «صديقى العزيز وروح حياتى مستر برودلى».

(٢) Ibid, Vol. II, Arabi-Broadley, Colombo, Dec. 8, 1883.

وبجوار بلنت وبرودلى، هناك شخصيات بريطانية عابرة، فيتردد اسم دلاور، تلك الشخصية التى قدمت المساعدات مع بلنت أثناء المحاكمة،ومن ثم فلم ينس عرابى فى كلماته إلى برودلى أن يبعث بسلامه وتحياته لصاحبها واصفا إياه بنصير الإنسانية(١). أيضًا شكلت اللقاءات الصحفية التى حرص عليها عرابى مع الصحفيين الإنجليز عند زيارتهم للجزيرة قناة اتصال ساعدت على عرض قضية المنفيين على الرأى العام الإنجليزى(٢).

أما داخل جنة آدم، فقد توثّقت العلاقة بين بعض المنفيين وبين توماس ليبتون T. Lipton صاحب مزارع الشاى الذى وجه دعوته إليهم عام ١٨٩١، فلباها عرابى وعلى فهمى بهدف التغيير، فمنطقة المزارع جبلية مرتفعة وذات مناخ ملائم، وقد سمحت السلطات البريطانية بتلك الزيارة محاولة منها لامتصاص ضيق المنفيين والحد من الشكوى الخاصة برطوبة وحرارة كولومبو. وأرسل صاحب الدعوة وكيلين لمرافقة الضيفين، اللذين استمتعا بالطريق حتى وصلا إلى المنطقة حيث التقيا بالمسلمين وزارا مسجدهم، ثم نزلا فى ضيافة ليبتون فترة عادا بعدها إلى مقرهما(٣).

ومن المسلم به أن هذا التحرك رصد جيدًا، كما أن تلك العلاقة التى ربطت عرابى بذلك الرجل البريطانى أثارت بعض القلق، فحينما نشرت الصحيفة السيلانية Over Land Times أنه عند سفر ليبتون، وقبل صعوده للباخرة كان عرابى فى وداعه مما ساعد على ذيوع صيته، سأل إبراهام Abraham عضو البرلمان وزير المستعمرات عما إذا كان قد بدا من عرابى أى تجاوز أو تمادى فى إساءته لاستعمال الامتيازات الممنوحة له، وهل من الممكن انتقاصها أو وضع نهاية لحجزه فى سيلان؟(٤). بمعنى الحد من تحركاته أو إطلاق سراحه. وهكذا يتبين أن العلاقة التى ربطت بين الإنجليز والمنفيين اتخذت أنماطًا متعددة، إذ سعى كل طرف فيها ـ بطريقته الخاصة ـ إلى تنفيذ سياسته وتحقيق أهدافه من منطلق الإمكانات التى يمتلكها.

---

(١) Ibid, Vol. III, Arabi-Broadley, Colombo, June 10,1883.

(٢) Ibid, The Daily Graphic, May 27, 1901.

(٣) عرابى، المصدر المذكور، ص ص ٦٦١ ـ ٦٦٣.

(٤) F.O. 78/4589, Parliamentary Question, W. Abraham, Jan. 27, 1892.

الفصل الثالث

الحياة فى جنة آدم

مثَّلت حياة المنفيين فى جنة آدم صورة حملت بين طياتها البؤس والشقاء والضياع، حيث أُحيطوا بظروف مادية ونفسية ومرضية صعبة، انعكست على تصرفاتهم وعلاقاتهم، ولم تثمر أية مجهودات للتحسين من أوضاعهم إلا بالنزر اليسير، وتعثرت رغباتهم وحيل دون تحقيقها، ورغم ذلك لم يصمتوا، وإنما مضت توسلاتهم للخروج من جنة آدم، وواصلوا المساعى من أجل العودة إلى مصر، لكن الرافضين أصروا على موقفهم.

* * *

كانت للحالة المالية لعرابى ورفاقه دورها فى جفاف وقسوة الحياة فى المنفى، فبعد صدور الأمر الخديوى فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٢ بمصادرة أملاكهم، رفعت مذكرة من نظارة المالية لرئاسة مجلس النظار بشأن ترتيب معاش لكل منهم يبلغ ٣٠ جنيهًا بالروزنامجة ابتداء من ٢١ ديسمبر، وأن تتولى النظارة توصيله، وتمت الموافقة، وصدر قرار مجلس النظار فى هذا الصدد فى ١٥ فبراير ١٨٨٣ [(١)]. وسافر المنفيون، وفى أول لقاء لهم مع حاكم سيلان، طلبوا العمل على رفع المبلغ المسموح به لهم إلى ٥٠ جنيهًا حيث إن المقرر لا يفى بأعبائهم رغم التقشف الذى يعيشون فيه، وإنهم فى حاجة إلى إلحاق أولادهم بالمدارس، وتوفير العلاج الطبى، ومن ثم فقد رتب اتصالهم بمدير التعليم العام للاتفاق على المدارس التى تناسبهم، وأعلمهم بأن هناك أربعة أطباء إنجليز، وعليهم اختيار أحدهم، وأن يكون ثمن الدواء على نفقتهم. ويبلغ

---

(١) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢.

لونجدن وزير المستعمرات بمطالبهم وبأنه أفهمهم أن يضعوا فى الاعتبار دفع إيجار المنازل التى يقطنونها عند حلول ميعاد الاستحقاق، ثم يعلق بقوله «وإنى أرى فعلًا أن هذا المبلغ غير كاف خصوصًا لأصحاب العائلات الكبيرة مثل على فهمى، وأُوصى بالعمل على رفعه ببحث الأمر مع الخديو»(١).

ويبعث عرابى للحاكم بخطاب فى هذا الشأن، فيرفعه إلى وزير المستعمرات الذى يرى أن الطلب معقول، ويطلب مخابرة الحكومة المصرية فى زيادة المعاش بمعدل ٢٠ روبية يوميًا(٢). ويرسل وزير الخارجية لدفرن للاتصال بالمسئولين المصريين وتحقيق المطلوب، ويلتقى المبعوث البريطانى برئيس النظار ويعرض عليه الأمر، فيبين له سوء الحالة الاقتصادية مما حدا بالحكومة إلى الاستغناء عن عدد من موظفيها ليس لديهم مورد غير مرتباتهم، وأن المبلغ الذى يرسل للمنفيين سنويًا، بالإضافة إلى ما تدفعه الحكومة كفرق تحويل العملة يكلفها الكثير، وأن أى زيادة تدرج فى الميزانية تؤدى إلى حرج مركزه ومركز زملائه، وما لبث أن توصل دفرن إلى حل وسط، وذلك بأن ترسل الحكومة مبلغ ٥٠٠ جنيه إضافية إلى حاكم سيلان يقوم بتوزيعها عليهم وفقًا لما يراه(٣). واجتمع مجلس النظار وقرر تلك المنحة السنوية فى ٢٨ مايو ١٨٨٣ بحيث يوزعها الحاكم حسب احتياجات كل منهم، وورد بذلك إخطار إلى نظارة المالية، كما تقرر احتساب المبلغ من الاحتياطى الوارد فى الميزانية(٤).

* * *

ووضح تعاطف لندن فى هذه المسألة، وكانت قد رأت قبل صدور قرار مجلس النظار بأيام، ضرورة تصرف الحكومة المصرية، ليتمكن المنفيون من مواجهة المعيشة مع أسرهم، وحتى لا يتعرضوا لأزمات مالية تكون دائمًا موضع شكواهم لدى الحاكم، كما أشارت إلى أنها تقصد العمل على راحتهم، هذا فى الوقت الذى

---

(١) F.O. 78/4267, Longden-Derby, Kandy, Jan. 30, 1883, No. 41.

(٢) Ibid, Downing street, March 5, 1883.

الروبية = ١٥٣ , ١٠ من القروش.

(٣) Ibid, Dufferin-Ganville, Cairo, April 6, 1883, No. 102.

(٤) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٢٤،

F.O. op. cit., Malet-Granville, Cairo, May 29, 1883.

طلبت فيه أن تتحمل حكومتهم إيجار المنازل المؤقتة التى سكنوا فيها وثمن أثاثها دون الخصم من معاشاتهم الشهرية، وقد بلغت مصاريف ذلك حوالى ٣١,٥٠٠ روبية، وطلبت الخارجية البريطانية من الحاكم العام محاولة تخفيض المبلغ، كما لمحت بأن ذلك لن يقوى من شكيمتهم، وأنهم لا يعتبرون خطرًا عليها خلال إقامتهم فى سيلان[١]. وذلك بعد أن أمنت نفسها.

ونشأت مشكلة، وتعقدت الأمور بخصوص توزيع المنحة، ومما يلاحظ أن عرابى حصل على نصيب الأسد منها، فقد خصص له مبلغ ١٨ جنيهًا، ٧٥٢ مليمًا[٢]، فهل كان هناك حرص على إرضائه بمنحه هذا المبلغ دون الآخرين رغم أن غيره كان يعول أكثر منه؟ وهل جاء ذلك نتيجة لتوصية؟ لقد أشار دوجلاس فى خطاب له لوزير المستعمرات بأن هذه الزيادة بناء على موافقة الحكومة المصرية، وربما وضع فى الاعتبار أنه رئيس الجماعة وعليه التزامات فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية الجديدة وما تتطلبه من مصروفات، وأصبح المبلغ المتبقى حوالى ٢٧٥ جنيهًا، ويذكر نائب حاكم سيلان لدربى أن مسألة التوزيع ليست سهلة، لأن المنفيين يشكون من الفقر ومصادرة أملاكهم، وأن من معه عدد صغير من أسرته يُبين أن وراءه عددًا آخر مسئولًا منه فى مصر، ثم يعرض عليه المعلومات التى جمعها، وهى توضح أن زوجتىْ محمود سامى وعلى فهمى لهما ممتلكات تسمح لهما بالعيش، وأن يعقوب سامى ميسور الحال، أما محمود فهمى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى فليس لديهم إلا معاشاتهم، وعليه فقد خصص لهم المبلغ المتبقى بعد أن حجز منه ١٧ جنيهًا للطوارئ[٣].

* * *

وولَّد هذا الوضع مرارة بينهم، وتظلَّم يعقوب سامى معتمدًا على أساس أنهم جميعهم فى المنفى سواء، وكلهم يعتبرون فقراء، ولا بد من معاملتهم بالتساوى، وتبعه من شعر أن الظلم وقع عليه[٤]. ورُفع الأمر إلى لندن، فأشارت بأنه بعد

---

(١) Ibid, Downing Street, May 22, 1883.

(٢) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢.

(٣) F.O. 78, Op. Cit., Douglas-Derby, Colombo, Aug. 2, 1883.

(٤) Ibid, Sept. 11, 1883, F.O-Baring, F.O., Oct. 24, 1883.

تخصيص المبلغ المقرر لعرابى من المنحة، تُطبق المساواة على الباقى ما عدا محمود سامى حيث لا يستحق رفع معاشه لأن إيراد زوجته فى مصر ٣٠٠٠ جنيه، وأنه إذا تظلم أحد من الخمسة، فعليه إثبات دخل الباقين حتى يمكن تمييزه عنهم(١). وانتهى الأمر بأن تمتع بالزيادة ثلاثة منهم فقط، لكنهم عادوا ووافقوا على التنازل عن مبلغ من الروبيات لزملائهم ليتساووا معهم، ورفض عرابى إعطاءهم جزءًا من الزيادة التى خصته(٢).

وعلى أية حال، فإن تلك الزيادة قد أثارتهم أكثر مما نفعتهم، وظل باب الشكوى مفتوحًا، وتعددت التظلمات من طلبة عصمت ويعقوب سامى وعلى فهمى، ويذكر الأخير أنه يعول ١٤ شخصًا مقيمين معه، ويتحمل مصاريف المدارس التى تصل إلى ١٩ جنيهًا شهريًا، وأن ما يتبقى له لا يكفى للغذاء والمعيشة والعلاج(٣)، خاصة وأن مرض زوجته كلفه الكثير. ويبعث طلبة عصمت إلى لابوشير Labouchere ـ عضو البرلمان البريطانى ـ ليصف له سوء حالته المعيشية ويطلب رفع معاشه، فيكتب العضو إلى وزارة المستعمرات، ويعرض وجهة نظره التى تضمنت وجوب رفع الحكومة المصرية لما يتقاضاه المنفيون، حتى يتمكنوا من المعيشة، ويغطوا النفقات المطلوبة منهم، خاصة وهم مسئولون عن عائلاتهم، وأنهم كانوا قادة فى بلدهم وأرسلوا إلى سيلان بواسطة بريطانيا، وبالتالى ليس من المعقول أن يعطوا منحا لا تكفيهم، وأن هؤلاء الرجال سوف يعودون إلى بلدهم إن آجلًا أو عاجلًا، ولذا فلا بد أن يكون البريطانيون أصدقاء لهم(٤).

* * *

ووُضعت جميع مكاتبات المسئولين البريطانيين المتعلقة بسوء الحالة المالية للمنفيين أمام جرانفل، وكلها تؤيد التظلمات المرفوعة منهم، وبعد دراستها رأى وزير الخارجية صعوبة إمكان رفع المعاشات مرة ثانية، وانتهى إلى أنه ليس لحكومة جلالة الملكة سلطة التنفيذ، وأنه يمكن لحاكم سيلان التصرف بحرية فى المنحة، وأن عليه

---

(١) F.O. 78/4268, F.O-Colonial Office, F.O, Jan. 2, 1884.

(٢) Ibid, Gordon-Derby, Ceylon, Jan. 28, 1885, No. 39.

(٣) Ibid, Gregory,-Derby, Hyde Park, May 30, 1884.

(٤) Ibid, Labouchere-Colonial Office, Twickenham, May 28, 1884.

عمل ما فى وسعه لتلبية رغبات المنفيين[1]. ويتضح من ذلك أن الخارجية البريطانية لم تكن لتظهر الرغبة فى الضغط على الحكومة المصرية مرة أخرى، فى الوقت الذى حملتها فيه أجور البوليس المكلف بحراسة المنفيين والأجور الإضافية للحراسات الليلية وأجور البوليس السرى[2]. ومن الثابت أن جرانفل ساق حجة واهية واستند عليها حيث من المسلم به قوة اليد البريطانية على مصر.

ولعبت مسألة الديون دورها فى الشكوى على أساس أنها توصد باب القول بأن زوجات بعضهم أغنياء، فقد عرض على اللجنة المالية سندات بمبالغ كبيرة محررة من محمود سامى لدائنين من الأجانب، أيضًا لبعض المقربين إليه مثل حماه[3]. كما شكا على فهمى وزوجته لبرودلى وطلبا منه التدخل لدى الحكومة لإنقاذ نصف المنزل الذى رغبت فى إشهار بيعه بالمزاد اعتمادًا على سندات تؤكد حق الزوجة فى ديون مستحقة لها على زوجها، واتضح أن ممتلكاتها امتدت إليها يد الحكومة، فاستولت على بعض الأراضى والمنازل والمركبات الخاصة بها[4]. والواقع أن الحكومة اختصت باضطهاد هذه الزوجة تحقيقًا لرغبة الخديو توفيق فى الانتقام منها ومن زوجها، نظرًا لتلك الصلة التى كانت تربطهما بالقصر قبيل الثورة. وواصل المنفيون طريق الاستعطاف بالتماساتهم للمسئولين البريطانيين-رئيس الوزراء ووزير المستعمرات وأعضاء البرلمان - يستجدون فيها لرفع المبلغ المقرر لهم ويسجلون مصروفاتهم بالتفصيل والضيق الذى يعانونه[5]. ومن الملاحظ أن عرابى لم يكن

---

(١) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O, July 24, 1884.

(٢) Ibid, Downing Street, Jan. 24, 1884.

(٣) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٢٤، محضر ٦٢ فبراير ١٨٨١، F.O. 78/4267, No. 240

(٤) Broadley, The Trial..., Vol. II, Aug. 31, 1883, F.O. 78/4268, Cairo - F.O, Cairo, Aug. 16, 1884, No. 806.

(٥) F.O. op. cit., Aly Fahy-Derby, Colombo, March 24, 1884, Aly Fahmy-Salisbury, Colombo, Aug. 31, 1885, Yacoub Samy-Derby, Colombo, Aug. 16, 1885, Yacoub Samy-Salisbury, Aug. 31, 1885, Mahmoud Fahmy, Mahmoud Samy, Abdel Al Helmy-Horble, Colombo, Aug. 10, 1885, Yacoub Samy, Aly Fahmmy-Churchill, Aug. 26, 1885.

كان لطلبة عصمت وضعه الخاص لمرضه وما يتطلبه من مصاريف أعجزته، وقد كتب رسالة مطولة إلى وزير المستعمرات يشرح له فيها ظروفه الصعبة ونفقاته المرتفعة.

يشترك فى تلك الشكاوى، والسبب أن ما حصل عليه من زيادة فى معاشه كفل له الحياة دون ضنك.

* * *

ومرة أخرى يكتب حاكم سيلان إلى لندن، ويرفق بكتابه التماسات جديدة للمنفيين، ويذكر أنه وفقا لتحرياته يدلى بالقول إن أصحاب الطلب يعيشون أزمة مالية، وإن هناك من الأسباب ما يدعو الحكومة المصرية لزيادة المبالغ التى يتقاضونها لمواجهة أعباء المعيشة[١]، وعرضت وزارة المستعمرات الأمر على الخارجية البريطانية، فأفادت بأنها ستقوم بالاتصال بنوبار رئيس النظار لزيادة المعاشات[٢]، وبالفعل حررت للقنصل البريطانى العام فى القاهرة للتفاهم مع المسئولين فى رفع المبلغ ٤٤٤ روبية ـ ما يعادل ٤٥ جنيهًا ـ شهريًا ليوزع عليهم ما عدا عرابى، مُبينة أنها ناحية إنسانية، وأنه لا بد من العمل ليتمكن هؤلاء من المعيشة، ووجوب إتمام هذه الزيادة فى وقت قريب، ووفقًا لذلك فإن الحكومة المصرية ستكلفها الزيادة ٢٥٢ جنيهًا سنويًا علاوة على المنحة السابقة، ويصبح المبلغ الذى تتحمله ٣٣٠٧ من الجنيهات سنويًا[٣].

ولم تنقطع شكوى المنفيين رغم ما وعدوا به، فبعثوا بها إلى روزبرى فى مارس ١٨٨٦ [٤]. وفى تلك الأثناء أجرى بيرنج Baring المعتمد البريطانى فى مصر اتصالاته بنوبار، فوافق الأخير على زيادة المنحة وفقًا لما حددته الخارجية البريطانية، وأن يقوم حاكم سيلان بتوزيعها حسبما يتراءى له[٥]. وقدمت اللجنة المالية مذكرتها

F.O. 78, op. cit., Toulba Esmat-Secretary of State of the Colonies, Colombo, Aug. 10, 1885.

(١) Ibid, Gordon, Queen's House, Colombo, Sept. 11, 1885.

الالتماسات المرفقة مقدمة من طلبة عصمت ومحمود فهمى وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ويعقوب سامى.

(٢) Ibid, F.O, Sept.18, 1885.

(٣) Ibid, F.O-Colonial Office, Nov. 1885.

(٤) Ibid, Mahmoud Samy,Abdel Al Helmy,Toulba Esmat-Rosebery, Colombo, March 15, 1886.

(٥) Ibid, Baring-F.O, Cairo May 15, 1886, No. 214.

تولى بيرنج منصب قنصل بريطانيا العام فى سبتمبر ١٨٨٣، وأطلق على شاغل هذا المنصب فى ظل الاحتلال المعتمد البريطانى.

إلى مجلس النظار فى هذا الشأن، وتقررت الزيادة[1]. وأبلغ المعتمد البريطانى لندن أنه علم من تيجران ناظر الخارجية بالنيابة أن تلك الزيادة وسابقتها هى منحة دائمة وغير مؤقتة[2]. ووزعت المنحة الجديدة على المنفيين، ومع ذلك نجد عبد العال حلمى يشكو الفاقة ويبين أن تعليم ابنه يكلفه ١٠٠ جنيه إسترلينى سنويًا بكلية توماس الإنجليزية[3]. وبطبيعة الحال لم يكن هناك أى أمل فى زيادة أخرى.

وبعد مضى ستة أشهر على صرف الزيادة، فوجئ يعقوب سامى بخصم خمس معاشه - ما يقرب من ٨ جنيهات - فقدم شكواه لمعرفة السبب، وبعث حاكم سيلان يستفسر مبينا أن استقطاع أى مبلغ من مقررات المنفيين يؤدى إلى اضطراب معيشتهم، وأنه يجب تسليمها كاملة، وأن أية ديون سابقة على أى منهم فى مصر يجب عدم خصمها من معاشاتهم، وخاصة أن الحكومة المصرية صادرت جميع أملاكهم، وما يقبضونه يفى بحاجتهم المعيشية بكل صعوبة ولا يمكن أن يمس بأى حال من الأحوال، وأن هذا يؤدى إلى إلقاء العبء على حكومة جلالتها التى لن تتحمل دفع أية نفقات تتعلق بهم[4]. وتجيب لندن بالإفادة أنه قد تم الاتفاق مع الحكومة المصرية عام ١٨٨٢ على وصول المبالغ كاملة للمنفيين وعدم خصم أى جزء منها لصالح ديونهم فى مصر، ومن ثم أُخطرت القاهرة بذلك[5].

ووصلت تلك التعليمات مرفقا بها عريضة يعقوب سامى، وعلى الفور التقى بيرنج برئيس النظار فى ١٠ فبراير ١٨٨٧ وعرض عليه الأمر وشرح له الموقف، وفى اليوم التالى وصله الرد ومرفق به رأى المستشار القانونى للحكومة، ويتبين منه أن خصم المبلغ كان بناء على حكم صادر ضد يعقوب سامى من المحكمة المختلطة لوفاء دين عليه قيمته ٢٠٠٠ جنيه لصالح الدائن «كاثير وشركاه»، وأن المحكمة أخطرت البنك مباشرة لاستقطاع المبلغ، وأنه طبقًا للمادة ٤٩٠ من القانون المدنى المختلط لا بد من خصم خمس معاشه الشهرى، حيث إن ما يتعلق بأرضه التى صادرتها الحكومة قد أشهرت بيعها وسددت جزءا من ديونه واستولت على متطلباتها، واختتم الرد بأن

---

(١) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، محضر ١٣ مايو ١٨٨٦.

(٢) F.O. 78, op. cit, Baring-F.O, Cairo, Sept. 7, 1886.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. III, Nov. 22, 1886.

(٤) F.O. 78, op. cit., Gordon-Stanhope,Colombo,Dec. 11, 1886, No. 460.

(٥) Ibid, Downing Street, Jan 27, 1887.

الحكومة لا تعتبر مسئولة عن تحمل ديون المنفيين[١]. وأُعدت مذكرة فى هذا الشأن للعرض على سولسبرى Salisbury رئيس الوزراء البريطانى، وذُيلت بأن المنحة المقررة للمنفيين تمت باتفاق بين الدولتين ولا يجوز الخصم منها[٢]. ونتيجة لذلك صدرت التعليمات للقاهرة بإعادة الاتصال برئيس النظار لإنهاء المسألة لصالح المتضرر، وبالفعل أصدر أمره ليس فقط بعدم خصم جزء من معاشه وصرفه كاملًا، بل وإعادة الفرق الذى أُنتزع منه[٣]. والواقع أن لندن أمكنها التفرقة بين السياسة الاحتلالية والعمل على الظهور بشكل المتعاطف مع من لا حول لهم ولا قوة. حقيقة أن الأعين راقبتهم، لكن الحرص على جعل معيشتهم دون الكفاف كان محل الاهتمام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الحفاظ على رباط الصداقة الذى ربطهم بها والتأكيد على الولاء لها وضعا فى الاعتبار.

استقرت الحالة على الوضع المالى القائم دون قلاقل، وعندما توفى عبد العال حلمى قررت الحكومة فى ١٩ إبريل ١٨٩١ صرف معاش لزوجته قدره ٣٠ جنيهًا بناء على التماسها، وحجزت ما تبقى من نصيبه رغم ميول بعض المسئولين البريطانيين فى توزيعه على باقى المنفيين ما عدا عرابى[٤]، مع العلم بأن مصروفاته زادت نتيجة لزواجه وإنجابه. ومما يذكر أن الطلب الذى تقدم به فى هذا المجال، هو إبداء رغبته فى إلحاق ابنه إبراهيم بالعمل لدى نظام حيدر أباد، راجيًا أن يجد الشباب من أولاد المنفيين عملًا يتعايشون منه، مُبينًا أن ابنه كان فى زيارة لتلك المنطقة، ووجد فرصته بها، ثم ينتقل إلى أنه يعول عددًا كبيرًا من الأولاد، ويلزم لهم مصاريف من تعليم وخلافه،والمعاش الذى يتقاضاه محدود، ولهذا فهو يشجع كل من يقدر على العمل من أولاده ليساعده على المعيشة، ويشير إلى أن خدمة ابنه لن تتعارض مع السياسة البريطانية فى الهند، ويبعث ردچوى Ridgeway حاكم سيلان للندن ليخبرها أنه حوَّل

---

(١) Ibid, Cairo-F.O, Cairo, Feb. 10, 1887, No. 102.

(٢) Ibid, Note to The Marquis of Salisbury,March 17, 1887.

(٣) Ibid, Baring-F.O, Cairo, May 9, 1887, No. 294.

(٤) F.O. 78/4589, Cairo-F.O, Cairo, April, 11, 1891, No. 86, Knutsford-Havelock, Aug. 17, 1891, No.. 245, Havelock-Knutsford , Oct. 14, 1891, No. 245.

نالت زوجتا محمود فهمى ويعقوب سامى نفس الحق، محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، ٧ يوليو ١٨٩٤، ٢ سبتمبر ١٨٩٩.

الطلب إلى مفتش عام البوليس الذى لم ير مانعًا، وأنه هو نفسه يزكى مثل هذا العمل، وعليه فقد أخطر حكومة حيدر أباد، ويطلب الموافقة حتى تتخذ الإجراءات لتحقيق طلب عرابى[١]. وبذلك تتضح الظروف المادية التى فرضت نفسها على هؤلاء الرجال الذين عاشوا يتضرعون من أجل لقمة العيش، وإن تفاوتت الطرق التى استخدموها.

* * *

لم يكن الضيق المالى وحده الذى أحاط بالمنفيين، فقد أسهم الوقوف أمام رغباتهم الشخصية فى التعاسة التى عششت داخل حياتهم، فعند سفرهم لم يصطحب إلا ثلاثة منهم زوجاتهم، وتركت باقى الزوجات فى مصر، إما لكون بعضهن كانت حالتهن الصحية لا تسمح لهن بالسفر مرافقات لأزواجهن، وإما لأنهن لم يعرفن كيف ستكون الإقامة فى سيلان فرفضن، وإما أنهن فضلن انتظار ما سيتم بخصوص أملاك أزواجهن[٢]. وعندما استقرت الأوضاع، لم تنقطع طلبات المنفيين بخصوص إحضارهن، فيبعث عرابى إلى برودلى مبينًا أن الحكومة المصرية لم تف بالوعد الذى قدمه دفرن له بإرسال عائلته ـ زوجته وباقى أولاده ـ على نفقتها، لأنه ليست لديه الإمكانات المادية ليتولى مصاريف سفرها[٣]، وفى الوقت نفسه يبلغ دفرن لندن برغبة زوجة عرابى فى اللحاق به بعد شفائها[٤]. ويحذو عبد العال حلمى وطلبة عصمت حذو عرابى، فيقدمان التماساتهما إلى حاكم سيلان بطلب إحضار عائلتيهما من مصر على نفقة الحكومة المصرية وعدم قدرتهما على تحمل ذلك، ويرفق لونجدن التماساتهما مع كتاب له لوزير المستعمرات[٥].

وكانت حالة طلبة عصمت تستدعى الإشفاق لمرضه وحاجته لزوجته لتكون

---

(١) F.O. 78/4966, Arabi - Ridgeway, Kandy, May 31, 1898, Ridgway-London, Colombo, June 26, 1898, No. 205, Downing Street-Under Secretary of state (F.O.), July 25, 1898, No. 205.

(٢) F.O. 78/4268, Gordon-Derby, Colombo, Dec. 19, 1883.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. III.

خطاب من عرابى إلى برودلى فى ١٠ يونيو ١٨٨٣، وخطاب آخر فى ٨ ديسمبر ١٨٨٣.

(٤) F.O. 78/4267, Dufferin-Granville, Cairo, April 6, 1883, No. 102.

(٥) Ibid, Longden-Derby, Colombo, June 25, 1883, No. 304.

بجواره والتى لم تتمكن من السفر معه لمعاناتها من مرض فى عينيها، ولذا فقد تركها بناء على نصيحة برودلى له حتى يتم شفاؤها وتلحق به، وعاشت فى حالة سيئة إذ لم يتمكن من إرسال أى مبلغ لها، وبالتالى باعت كل ما تملك لتعيش وتنفق على علاجها(١). وتبلغ الخارجية البريطانية ممثلها فى مصر، فيجرى اتصالاته مع وكيل نظارة الخارجية المصرية، ويعلم منه أن رئيس النظار لا يمانع فى سفر الزوجتين ودفع النفقات طالما أنهما لا تبديان روحًا ثورية(٢). وطلبت الخارجية البريطانية من وزارة المستعمرات إعلام المعنيين بالأمر بموافقة الحكومة المصرية بالرغم من أنها كانت قد صرحت للمنفيين باصطحاب زوجاتهم، وأن من يتخلف تسقط نفقة سفره، ولكنها تنازلت عما صرحت به. أما فيما يختص بزوجة عرابى، فإنه إذا عاود طلب حضورها إليه، يتولى دفرن الحصول على تصريح لها بالسفر على نفقة الحكومة المصرية(٣).

* * *

وعاود عرابى طلب سفر زوجته، فتكلم بيرنج مع تيجران، فأبلغه الأخير أن محمد شريف لا يعارض، وعند التنفيذ أبدت الزوجة عدم رغبتها فى مغادرة مصر(٤)، ولا يعرف السبب الحقيقى لرفضها. أما بالنسبة لسفر زوجتىْ عبد العال حلمى وطلبة عصمت فقد عادت الحكومة المصرية وأرجأته دون ذكر السبب، وربما اختص بتكلفة السفر أو الرغبة فى التعذيب والانتقام. وكثرت شكاوى الزوجين وزوجتيهما إلى المسئولين البريطانيين الذين رفعوا الأمر للخارجية البريطانية التى أخطرتهم بأن الأمر يتوقف على خديو مصر وحكومته(٥). ومما يذكر أن الاتجاه داخل سيلان كان يؤيد تلبية طلب الزوجين سواء الحاكم العام أو مفتش عام البوليس، والأخير رأى فى ذلك إتماما لراحتهما وقضاء على قلقهما فى مقابل كلمة الشرف التى أعطوها ووفائهما لتعهدهما، وأنه يمكن إبحار الزوجتين على باخرة نقل خاصة بالجنود(٦).

---

(١) F.O. 78/4268, Toulba Esmat-Secretary of state for the Colonies, Colombo, Aug. 10, 1885.

(٢) F.O. 78/4267, Malet-Granville, Cairo, Sept. 5, 1883, No. 394.

(٣) Ibid, F.O-Colonial Office, F.o, Sept. 18, 1883.

(٤) Ibid, F.O-Baring, F.O, Oct. 24, 1883, No. 271, Baring-Granville, Cairo, Nov. 12, 1883, No. 507.

(٥) F.O. 78/4268, Gregorey-Derby, Hyde Park, May 30, 1884, Labouchere-Colonial Office, Twickenham, May 28, 1884, F.O.-Colonial Office, F.O, July 24, 1884.

(٦) Ibid, Gordon-Derby, Colombo, Dec. 19, 1883, Campbell's Report, Dec. 3, 1883.

وألجأ هذا الوضع المعلَّق الزوجين إلى أن يرفعا طلبهما بأن يكون إحضار زوجتيهما على نفقة الحكومة البريطانية[١]، وعليه رأى جرانفل إغلاق هذا الباب، فبين أنه سبق وأعطت الحكومة المصرية حق مرافقة الزوجات والأبناء للمنفيين وقت سفرهم[٢]، وفي ذلك ما يعنى أنه طالما أضاعوا الفرصة، فعليهم تحمل النتائج. وكانت وجهة نظر وزارة المستعمرات إعادة الاتصال مرة أخرى بالقاهرة للعمل على سفر الزوجتين على نفقة الحكومة المصرية إذا كانت التكلفة معقولة، وتم التفاهم مع جرانفل على ذلك، وبعثت الخارجية البريطانية لممثلها بمصر فى هذا الصدد، فكتب إليها بموافقة المسئولين المصريين على شريطة تقسيم نفقة السفر وخصمها شهريًا من المنفيين[٣]. ومن ثم وضعت العقبات أمام تحقيق الطلب.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه اتبعت نفس الطريقة عندما شكا على فهمى من سوء حالة زوجته الصحية وعدم تحملها الإقامة فى سيلان والرغبة فى سفرها لمصر، فحُولت الشكوى إلى مفتش عام البوليس ففحصها، وبناء على ذلك كتب حاكم سيلان تقريره إلى دربى موضحًا أن ما جاء بالشكوى صحيح، فالزوجة تعانى من أزمة حساسية Asthama تزداد مع رطوبة كولومبو، وأن الزوج ليس فى استطاعته تحمل نفقة سفرها أو دفع ثمن العلاج والأدوية بعد أن نفذ ما لديه ليغطى تلك التكاليف للدرجة التى امتنعت فيها الزوجة وبناتها عن الخروج من المنزل لعدم وجود ما يرتدينه من ملابس صالحة[٤]. وكان جرانفل قد بُلغ بتلك الحالة، ولكنه وجد أن يتحمل الزوج نفقات عودة زوجته[٥]. وهكذا تعثر التنفيذ فى هذه الحالات الإنسانية ولم تجد التوسلات.

ومثلت الخلافات بين المنفيين عاملا كدر عليهم حياتهم، فمما لا شك فيه أنه

---

(١) Ibid, Downing Street, Nov. 26, 1884.

(٢) Ibid, F.O.-Gregory, F.O, Dec. 1st, 1884.

(٣) Ibid, Downing Street, Dec. 24, 1884, Cairo-F.O., Cairo, Feb. 14, 1885, No. 152.

(٤) Ibid, Gordon-Derby, Ceylon, Jan. 28, 1885, No. 39.

لم يعتمد المنفيون على الطبيب المعالج الذى خصص لهم فى البداية، وإنما لجئوا لغيره على نفقتهم.

(٥) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O., Dec. 19, 1884.

فى ظل الظروف التى تعرضوا لها قبيل نفيهم، ثم تلك التى أحاطت بهم من كل جهة بعده، قد أثرت على نفسيتهم، ورسمت لهم صورة اختلفت كثيرا عن الأصل، فالهزيمة وما تبعها من أحداث غرست داخلهم الإحباط، وجعلتهم يؤمنون بالأمر الواقع ويستسلمون لما حاق بهم ويعيشون المأساة مما انعكس على علاقاتهم، فانقسموا على أنفسهم، وفقدت الوحدة مكانها لديهم. ولم تظهر عليهم الخلافات فى البداية، حيث ترجمت الخطابات التى بعثوا بها إلى برودلى الحياة اللصيقة التى يحيونها حتى لقد كان منها ما يكتب على لسانهم جميعًا، وعندما كان ينفرد أحدهم بخطاب، فهو لا ينسى أن يبعث بسلام زملائه، كما تجمَّع السبعة حول هدف تعلم اللغة الإنجليزية ونجحوا في ذلك(١). ولكن بطبيعة الحال لم يستمر الوئام طويلاً، وفرضت المنازعات نفسها عليهم، فلم يفتخروا بالبطولات التى قاموا بها، وإنما تراجع البعض منهم، فيصرح محمود سامى وطلبة عصمت ويعقوب سامى بأن ما أقدموا عليه كان خوفًا من عرابى(٢). وربما يكون الدافع الرغبة فى إقصاء ما اتهموا به بعيدًا ليتمكنوا من العودة إلى مصر.

واتسع نطاق المشاحنات، وبديهى أن يتعرض عرابى لنقمة البعض، حيث دبت الغيرة بسبب تلك المكانة التى يتمتع بها فى سيلان وهذه الشعبية التى أُغدقت عليه، ووقع الخصام بينهم، وانتشرت أصداؤه داخل سيلان وخارجها، وإن جرت فى البداية بعض المحاولات للصلح وآتت أكلها حينا حتى لقد كتب بلنت إلى عرابى لينقل له سعادته عندما علم أن الأمور عادت إلى مجراها كما كانت بينهم وأنهم يعيشون أصدقاء أوفياء(٣). ولكن سرعان ما انتهى ذلك، وجاء زواج عرابى من زوجتين ليخلق بعض الحساسية، وقد ترتب عليه حدوث مقاطعة(٤). وينصح عبد الله النديم عرابى فى رسالته له بالارتباط كى إذا عادوا لوطنهم لا تساء بهم الظنون وتميل عنهم

---

(١) Broadley, The Trial..., Vol. I, How We Defended..., p. IX, Vol. III.

(٢) Ibid, Vol. III.

خطاب من عرابى إلى برودلى فى ٨ ديسمبر ١٨٨٣.

(٣) خطاب من بلنت إلى عرابى فى ٢٦ إبريل ١٨٨٤، الأهرام، عدد ١٣٩٧٤ فى ١٥ فبراير ١٩٢٣.

(٤) النديم، رسالة إلى صديقه أحمد عرابى باشا، د.ت. انظر ملحق رقم ٢.

القلوب «فائتلفوا قبل الإياب، واقتلوا الضغائن بالعقاب، وحققوا لمن عندكم ترك العدوان حتى تتركوا لكم ذكرا جميلا فى سيلان»[1].

* * *

وأعطى الاحتفال باليوبيل للملكة ڤيكتوريا فى عام ١٨٨٧ ـ العيد الخمسينى لحكمها ـ المثل للانقسام بينهم، وشكل يعقوب سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى مجموعة، وعرابى ومحمود سامى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت مجموعة أخرى، واكتتبت المجموعة الأولى بمبلغ لصالح الاحتفال أوصلته عن طريق المفتش العام للبوليس، كما أعدت كلمة بهذه المناسبة سُلمت للسكرتير الخاص للحاكم[2]. وبناء عليه خُصص لها مكان متميز فى الاحتفال، بينما المجموعة الأخرى احتلت المقاعد العادية[3]. وعندما كتبت إحدى الصحف عن مشاركة المنفيين بزعامة عرابى وفهمى، كتبت المجموعة الأولى إليها توضح أنه لم يكن على فهمى أو محمود فهمى بصحبة عرابى، وأن الثلاثة لم يشاركوه، وأن كل واحد مسئول عن تصرفاته الشخصية، وتطلب من الصحيفة تعريف العامة بعدم استعمال كلمة عرابى ورفاقه حيث لا بد من ذكر الأسماء[4].

وسجَّلت الصحافة فقدان التآلف بينهم، وتعرَّضت لمنازعاتهم وعدَّتهم سجناء وأسرى حرب، وبينت أنه طالما هم تحت الحراسة، فينبغى على حكومة سيلان أن تجعلهم معزولين، وأن تأكيد ولائهم للملكة يمكن القول عنه إنه مداراة بدليل أن عرابى لم يعط كلمة للحاكم فى يوم الاحتفال، وأنه كان من الأفضل ألا يستعرضوا أنفسهم فى مكان يمثل فيه نواب الملكة[5]. أما عن الكلمة التى قدمها أصحاب المجموعة الأولى فشملت الإشادة بالملكة، وسرد ألقابها وما قدمته على مدار الخمسين سنة من حكمها ومايتمنونه لها، وأن الألم الداخلى الذى ألم بهم لمعيشتهم كغرباء قد زال نتيجة المعاملة الحسنة والراحة والعدالة ووسائل الرحمة والإنسانية والاحترام الذى

---

(١) نفس المصدر، انظر ملحق رقم ٢.

(٢) Broadley, The Trial..., Vol. III, Jacoub Samy-Broadley, Colombo, June 6, 1887.

(٣) Ibid, The Times of Ceylon, July 11, 1887.

(٤) Ibid.

(٥) Ibid.

يلاقونه، وأن إخلاصهم للولاء وخضوعهم نابع من القلوب، وأنهم يلتمسون الركوع تحت أقدام عرش جلالتها، وفى نهاية الكلمة يقدمون الشكر والأمنيات الطيبة لممثل حكومتها، وينقلون شعور السعادة الذى يتنابهم بلا حدود لتمتعهم بامتياز مشاركتهم هذا اليوم السعيد. وتلقوا الشكر من الحاكم والوعد بنقل كلمتهم لجلالتها[١]. وبذلك تنجلى الحالة التى وصل إليها المنفيون.

* * *

ويكتب طلبة عصمت لبرودلى فى ١٤ مارس ١٨٩٤ ليسطِّر له كيف كان الابتعاد عن عرابى الذى ساءت علاقته برفاقه، ولم يعد يراه أحد منهم أو يزوره، ويحاول أن يوقع به حيث يرجع السبب إلى أنه غير راض عن أن يكونوا أصدقاء له[٢]. ومن الثابت أن كاتب الخطاب كان من شيعة عرابى،ولكن لم يكن هناك خط يلتزم به إذ بدا التخبط فى العلاقات واضحًا، ويشير عبد الله النديم فى رسالته إلى عرابى للحال المؤسف الذى وصلوا إليه، ويلقى اللوم عليهم لمعارضتهم لقائدهم وغضبهم من غير سبب وتكاتفهم ضده، ويتعجب من أن ذلك لم يكن فى الحسبان أن يصدر منهم، ويستفسر عن الأسباب وينصح صديقه «إذا انحرفت بانحرافهم أبرمتهم، وإذا لاينتهم ربحتهم، وإن جادلتهم خسرتهم، ولا تقل وعظت فأكثرت، وحذرت وأنذرت، ودعوتهم ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا... فلا تضق ذرعًا بإخوانك وقل لهم افعلوا ما شئتم فإنكم أحباب، وهذه عوارض تمحى بانمحاء الأسباب... ولا تعاجل وانظر الآجل وكأنك بهم وقد عادوا أحبابًا.... وجاءوا إليك معتذرين يوم يقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» ويثنى على أفعال كل منهم، ويطالبهم بإقصاء الخصام والترابط وجمع الكلمة وتوثيق العهد[٣]. وكان من الصعب عودة الوصال بعد أن زحفت الصغائر إلى داخلهم واهتزت شخصياتهم، وهذا أمر طبيعى لتلك الصدمات التى تلقوها.

* * *

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, Toulba Esmat-Broadley, Kandy, March 14, 1894.

(٣) النديم، رسالة إلى صديقه أحمد عرابى باشا، د. ت. انظر ملحق رقم ٢.

وانحصر النشاط فى المنفى على تلك المجهودات المتواضعة التى بذلها بعض المنفيين فى المجال الثقافى، خاصة عرابى ومحمود سامى اللذين أسهما فى هذا الميدان، فكانت مهمة الأول التعبئة لإنشاء دور العلم على الأسس الإسلامية، بينما قام الآخر بتدريس اللغة العربية وعلوم الدين فيها.

وكان لمحمود فهمى وضعه المختلف، فهو يميل إلى الانفراد، وينأى بنفسه عن المشاحنات، ومن ثم فقد تفرغ لكتابة سفره الضخم «البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر» الذى ضم أربعة أجزاء، وقسَّم تاريخ العالم إلى ثلاثة أقسام، الأول: العصور القديمة، والثانى: العصور المتوسطة (الوسطى)، والثالث: العصور الأخيرة (الحديثة). وبالطبع احتل تاريخ مصر الحديث مكانه فى الجزء الأول من تلك الموسوعة، وانتهى به المؤلف عند قيام الثورة العرابية وتولى شريف النظارة، ثم انتقل إلى تسجيل سيرته الذاتية حتى بداية عام ١٨٩٢.

والواقع أن ظروف الحياة الصعبة التى فرضت على المنفيين قيَّدت من نشاطهم وجعلتهم يصبون اهتمامهم بالدرجة الأولى على التفكير فى الطرق التى توصلهم للخروج من جنة آدم، فمنذ اللحظة الأولى لوصولهم أرض سيلان والتطلع يحدوهم إلى العودة لوطنهم، وعقدوا الأمل فى ذلك على بريطانيا، إذ آمنوا أن مصيرهم بل ومصير مصر مرتبط بها، وقد بين برودلى أنهم سيتحلون بالصبر وينتظرون العدالة إن آجلًا أو عاجلا[١]. ومما شجعهم على تثبيت هذا الشعور أن من تولوا الدفاع عنهم بدءوا يتحركون، فيكتب نابيير إلى بلنت عقب حوالى ثلاثة أشهر من نفيهم ليشير إلى دور الحكومة البريطانية فى مسألة النفى واختيار سيلان، ثم ينعطف على أنه ليس معنى ذلك أن يقضوا حياتهم خارج بلادهم، وخاصة أن الحقيقة تظهر أنهم غير مذنبين[٢]. وتبنَّى بلنت هذا الاتجاه وكتب لعرابى يقول «لقد كثر عدد الذين يعترفون بالخدمات التى قدمتها لمصر، وأملى كبير لعودتك إلى وطنك»[٣].

وقد عكست أشعار محمود سامى البارودى مرارة حياته فى المنفى، فترجم فيها

(١) Broadley, The Trial..., Vol. I , How We Defended..., p. VII.

(٢) F.O. 78/4267, Napier-Blunt, Cairo, April 16, 1883.

(٣) خطاب بلنت إلى عرابى فى ٢٦ إبريل ١٨٨٤، الأهرام، عدد ١٣٩٧٤ فى ١٥ فبراير ١٩٢٣.

حنينه للعودة إلى وطنه، الذى صَوَّره بجنة دانية القطوف، عبقة الشذى، أيضا سجَّلت شوقه لأهله وناسه، ومعاناته من الفراق والغربة والأوجاع، وشكواه من الزمن وغدره ونفاقه وظلمه، كما عبرت عن إحساسه بأن المخلصين للوطن مضطهدون، وأن الشرفاء يقاومون وتنزل بهم العقوبة، كذلك أوضحت تخاذله وانقلابه على الثورة ورجالها محاولًا التنصُّل من تبعاتها، مبرئا نفسه من أحداثها، مكيلا التهم لأتباعها مبعدا ومنكرا أى مطامع له كانت من ورائها. ومن اللافت للنظر أن محمود فهمى - مع مرور الأيام - اختار أن يقضى ما تبقى من عمره فى المنفى، وسجَّل أنه وجد على أرض سيلان راحته، ولا يريد بها بديلا.

وشكَّلت الحالة الصحية السيئة للمنفيين ركيزة استُند عليها لتحقيق المطلوب، وكان طلبة عصمت أشدهم حاجة إلى ترك سيلان، فهو مصاب بداء الربو من قبل نفيه، ولزم الفراش عقب وصوله إلى كولومبو إذ ازداد المرض عليه، وقد تناول شرح حالته لبرودلى فى شكواه التى بعث بها إليه[١]. وكتب طبيبه المعالج تقريره الذى تضمن أن حالته الصحية متدهورة، موضحًا أنه من الخطر بقاؤه فى هذا المناخ، وأوصى بوجوب نقله إلى جهة تتناسب مع حالته، وعليه يطلب دفرن من القنصل البريطانى العام الاتصال بالحكومة المصرية لمعرفة رأيها[٢]. وفى نفس الوقت تقدم صاحب الشأن بطلب الانتقال إلى بيروت على اعتبار أن مناخها أكثر جفافًا ويتلاءم مع حالته المرضية، ويرفع الحاكم الطلب إلى لندن، ويرد عليه دربى بأنه إذا رأى ضرورة فى نقله، فإن الحكومة المصرية تقترح أن يكون المكان الجديد الكاب[٣]. ويرفض طلبة عصمت اعتمادًا على ما بيَّنه طبيبه بأن حالته الصحية ستزداد سوءًا إذا عاش فى هذا المكان[٤]. عندئذ رأت الخارجية البريطانية نقله إلى إحدى مدن الملايو[٥]، فيعارض، وأيضًا يأبى الذهاب إلى چفنة، ويطلب الإقامة فى قبرص أو سوريا أو

---

(١) Broadley, The Trial..., Vol. II.
خطاب من طلبة عصمت إلى برودلى فى ١٩ فبراير ١٨٨٣.

(٢) F.O. 78, op. cit., Dufferin-Granville, Cairo, April, 28, 1883.

(٣) Ibid, Longden-London, Colombo, May 10, 1883, Derby-Longden, May 14, 1883.

(٤) Ibid, Longden-Secretary of State, Colombo, May 22, 1883, Toulba Esmat-Secretary of State (for the Colonies), Colombo, Aug. 10, 1885.

(٥) Ibid, Colonial Office, June 19, 1883.

تونس[1]. وبالطبع لم يتحقق طلبه، ويشكو حاله لوزير المستعمرات ويستعطفه ويعاتب الحكومة المصرية، ويطلب أن تراعى الإنسانية وتعمل على إنقاذ حياته من المرض الذى يكلفه الكثير وقد يودى به[2]. ويتملكه اليأس ويكتب لبرودلى ليعبر له عما يجول بخاطره من أنه لن يعيش ليرى لحظة العودة لأرض وطنه[3].

* * *

ومع سقوط حكومة جلادستون وتولى حكومة سولسبرى عام ١٨٨٥، اعتقد المنفيون أن ذلك فى صالحهم، فيكتب عرابى لبرودلى موضحًا أن الوقت قد حان لأن تنظر الحكومة الجديدة فى أعمال سابقتها مع مصر حتى تتغير الأفكار بصدد المنفيين وتعلم أن أعمالهم كانت غير عدوانية، وإنما هى لرفع المظالم والامتيازات ونشر العدل والمساواة مع احترام الأجانب والمعاهدات والحرص على المصلحة العامة[4]. ولم يوضع فى الاعتبار ما توقعه عرابى من الحكومة الجديدة، فلم تستمر فى الحكم طويلًا، وعاد جلادستون للحكم عام ١٨٨٦، بالإضافة إلى أن السياسة البريطانية اتخذت شكلًا يكاد يكون موحدًا تجاه المنفيين.

وجاءت فرصة قرب الاحتفال باليوبيل للملكة ڤيكتوريا ليطلب المنفيون العفو عنهم بهذه المناسبة، فكتبوا التماسًا أرسلوه لها فى ٢٠ يناير ١٨٨٧ وبعثوا بنسخة منه إلى برودلى، وبالطبع حفظت ديباجته الإشادة بالملكة، وبأنهم منفيون فى المستعمرة الزاهرة تحت حكمها، وبعد التهنئة عرضوا حالاتهم، فبينوا أن الحكومة المصرية قد بذلت العفو لكثير من الضباط وغيرهم من الذين اشتركوا معهم فى حركتهم، وسمحوا لهم بالالتحاق بالوظائف، وينتقلون إلى أن بعضًا من أولادهم الذين اصطحبوهم معهم أتموا دراساتهم فى المدارس الإنجليزية، وعادوا إلى مصر والتحقوا بخدمة الحكومة، وأن فى هذا دليلًا على حسن الإخلاص نحو الخديو،

---

(١) Ibid, Douglas-Derby, Colombo, Aug. 20, 1883, F.O. 78/4268, Toulba Esmat-secretary of State (for the Colonies), Colombo, Aug. 10, 1885.

(٢) F.O. 78/4268, op. cit.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. III, Toulba Esmat-Broadley Colombo, Jan. 22, 1886.

(٤) Ibid.

خطابات من عرابى إلى برودلى فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٥.

ويُعرِّجون على أنهم فقدوا وظائفهم ونزلوا إلى أعمق درجات الإهانة، وتجردوا من الرتب والنياشين، واحتجبوا عن الفرص لاسترداد ما فقدوه، وافترقوا عن الأهل والأحباب وحرموا منهم،ورغم راحتهم فى المنفى فإنهم لا يمكنهم إخفاء الحقيقة، وهى اشتياقهم للرجوع لمصر. وأوضحوا كيف أن سلوكهم فى كولومبو يشهد عليه حاكمها، وأنهم يتمسكون بكلمة الشرف التى أعطوها قبل سفرهم، ثم يشكرون الملكة وحكامها لرأفتهم وعدالتهم، ويدعون لها بطول مدة الحكم والصحة والقوة، ويعلنون خضوعهم وطاعتهم لها وللخديو، وفى النهاية يلتمسون العتق والعودة للوطن[١]. وتوالت بعد ذلك الخطابات الفردية إلى برودلى وبلنت للسعى وراء عريضتهم للملكة[٢].

* * *

وعندما حضر وليم جريجورى إلى سيلان لحضور الاحتفال، التقى بعرابى ورفاقه ونصح بالكتابة للحكومة البريطانية فى هذا الشأن ووعد بالمساعدة، فحُررت العريضة وسُلمت له وشملت الرغبة فى الانتقال إلى قبرص، وحولت لندن الطلب للحكومة المصرية التى رفضت وخيَّرت المنفيين بين الكاب وزيلع[٣]. وواصلت الالتماسات طريقها، ففى ١٥ سبتمبر ١٨٨٧ قدمت مجموعة يعقوب سامى التماسها إلى الملكة، واشتمل الثناء عليها وعلى الخديو، وسرد كيفية إنقاذ المنفيين من حكم الإعدام وأملهم فى الإشفاق عليهم وإعادتهم مع عائلاتهم لبلادهم. وأرفق بالالتماس كتاب إلى الحاكم يستعطفونه للوساطة بعد أن خبر أخلاقهم ولمس طاعتهم فى تنفيذ التعليمات خلال السنوات الخمس للنفى، وقام جوردن بالمهمة ورفع تظلمهم إلى المسئول البريطانى وسجَّل «وإنى أشهد لهم بحسن السير والسلوك خلال المدة التى قضوها فى المنفى، وأرجو النظر إلى شكواهم بعين الرأفة والعطف»[٤]. وعرض الأمر على الخارجية البريطانية، فوجدت أنها لا ترى استعجال الحكومة المصرية، ولكن

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid.

خطابات فى ١٢ مارس، ١٠ مايو، ٦ يونيو ١٨٨٧.

(٣) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٦١.

(٤) F.O. 78, op. cit., Gordon-Hollaud, Nuwara Eliya, Sept. 19, 1887, No. 394.

لا بد من الرد عليهم، وأرسل بيرنج مذكرة بالمسألة إلى «ذو الفقار» ناظر الخارجية، ووصلته الإجابة بأن الحكومة لا تمانع فى عودة عائلاتهم فى حالة رغبتهم، ولكنها لا توافق على عودتهم، وطلبت إخطارهم بذلك(١).

واطلع المنفيون على رد الحكومة، وطلب يعقوب سامى من الحاكم سفر عائلته، وعليه بعث جوردن إلى سولسبرى يعلمه بأنه أعطى التصريح، ويرجو إخطار القنصلية البريطانية فى القاهرة لعمل التسهيلات، وتكتب الخارجية البريطانية لبيرنج لتبلغه(٢). وكف المنفيون عن التماساتهم بعض الوقت، وفى تلك الأثناء كان بلنت يواصل مساعيه من أجل عودتهم، فقد التقى بدفرن فى السفارة البريطانية بروما فى ١٦ نوفمبر ١٨٨٩ ورجاه فى هذا الصدد(٣). ولم يلبث المنفيون أن قدموا للحاكم التماسًا يحمل طلبهم المعهود، ومرة أخرى يزكيهم جوردن لدى لندن ويذكر أنهم كانوا على خلق طيب ولم يصدر منهم شىء مخالف إبَّان إقامتهم، فلم يعقدوا الاجتماعات، ولم يقوموا بأى عمل ضد النظام فى مصر، وأنهم أرفقوا الشهادات الطبية التى تثبت عدم قدرتهم على تحمل الرطوبة، وقد تعهدوا بالبعد عن السياسة وعدم إثارة الرأى العام، ثم يوصى الحكومة البريطانية بالعمل على مساعدتهم لدى الحكومة المصرية(٤).

* * *

وكان على رأس الحكومة المصرية مصطفى رياض، وله الخلفيات مع المنفيين، ودلَّت مواقفه عقب هزيمة الثورة مباشرة على رغبته الجامحة فى التشفى والانتقام، وحاول بلنت استثمار عدم الوفاق بين رئيس النظار وبيرنج الذى وضح فى الفترة الأخيرة من حكم النظارة، وذلك لصالح عرابى ورفاقه، وفى لقاء جمع بلنت بصديقه محمد المويلحى طرحت المسألة، ونصح الأخير بأنه على عرابى الاستجابة لاتجاه المعتمد البريطانى، وفى مقابلة بلنت للأخير فى ١٢ يناير ١٨٩٠ جرى الحديث حول الاتجاهين المتضادين فى مصر: الاتجاه الأوربى المتحرر والاتجاه التقليدى الجامد،

---

(١) Ibid, F.O-Cairo, F.O, July 27, 1888, Cairo-F.O. Cairo, Aug. 12, 1888, No. 279.

(٢) Ibid, Downing Street, Dec. 7, 1888, F.O.-Baring, F.O, Dec. 7, 1888, No. 235.

(٣) Blunt, My Diaries, Part I, P. 30.

(٤) F.O. 78/4589, Downing Street, June 26, 1890, Gordon-Kuntsford, Colombo, May 22, 1890.

وهنا انتهز بلنت الفرصة وأشار إلى عرابى بإعجاب وبأنه وسط بين الاتجاهين، ثم ذكر أنه علم أن محمد عبده عفى عنه وسمح له بالعودة من منفاه وعين قاضيًا فى بنها، فرد عليه بيرنج بأن جميع المنفيين تقريبًا قد استدعوا، فرجا بلنت تعميم ذلك بحيث يشمل المنفيين فى سيلان، فاعترض المعتمد البريطانى وصرح بأن عرابى قام بثورة فاشلة ويجب عليه تحمل العقوبة، فأجابه محدثه بأنها كانت ثورة ناجحة لولا الجيش البريطانى الذى بلغ قوامه ٢٠ ألف رجل، ولديه من الإمكانات ما يعطيه التفوق[١]. معنى هذا أن بيرنج لا يميل لصدور العفو عن قادة الثورة العرابية.

* * *

وبعث المعتمد البريطانى إلى لندن ـ ردًا على بحث تظلم المنفيين ـ يبلغها أن الخديو ليس لديه أى استعداد لعودتهم[٢]. وقدمت مذكرة إلى رئيس الوزراء البريطانى فى ٢٦ أغسطس ١٨٩٠ حملت توسلات المنفيين، فطلب الاتصال مرة أخرى بالحكومة المصرية، فعادت لتؤكد رفضها، كما صورت الانطباع السيئ لدى الرأى العام ضدهم، وأنها ستجرى البحث فى موضوع نقلهم إلى قبرص[٣]. وحينما أُثير سؤال فى مجلس العموم البريطانى حول سوء الحالة الصحية للمنفيين وعدم تحملهم رطوبة سيلان[٤]، أخطرت الخارجية البريطانية وزارة المستعمرات بأنه سيكلف طبيب حكومى لفحصهم وتقرير حالتهم الصحية، وإذا وجد أن الجزيرة لا تناسبهم ومناخها يعرضهم للخطر، ففى هذه الحالة ستنقلهم لجهة أخرى، وأنه لا محل للتفكير فى عودتهم إلى مصر[٥]. إذن فالسياسة العليا تتفق فى عدم السماح لهم بالرجوع لوطنهم.

---

(١) Blunt, May Diaries, part I, p. 30.

(٢) F.O. 78, op. cit., Baring-F.O,Cairo, June 28, 1890.

(٣) Ibid, Aug.26, 1890.

(٤) من المعروف أنه كان لبلنت وبرودلى دورهما فى العمل على توصيل القضية للبرلمان البريطانى خاصة عقب تشكيله الجديد عام ١٨٨١،

Broadley, The Trial..., Vol. III.

خطاب من يعقوب سامى إلى برودلى فى ٨ أبريل ١٨٨٦.

(٥) F.O. 87, op. cit., Colonial Office, Aug. 16, 1890.

وكتب مفتش الصحة بكولومبو ـ وهو الطبيب الذى وُكلت له تلك المهمة الرسمية ـ تقريره فى ٤ أكتوبر ١٨٩٠ بعد أن شكّل لجنة بهذا الخصوص، وجاء فيه أنه ليس هناك تأثير ضار لمناخ سيلان على صحتهم، ورفع الحاكم التقرير إلى ناتسفورد Knutsford وزير المستعمرات موضحًا أنه من يرغب منهم فى الانتقال إلى مكان آخر فعليه اختياره فى سيلان نفسها، ومن ثم أُعلم رئيس الوزراء البريطانى بنتيجة الكشف الطبى، وتطلب الخارجية البريطانية من وزارة المستعمرات إبلاغ المنفيين بأنهم سيبقون فى مكانهم[١].

* * *

ورغم التوصل لهذا الرأى فإن وزير المستعمرات اقترح إمكانية نقلهم إلى مدينة بنجالور Bangalore [٢] ـ تقع بالقرب من مدارس فى الهند ـ وجاء ذلك بناء على ما عرضه حاكمها على وزارة المستعمرات، فقد سجَّل انطباعاته عن عرابى فذكر أنه يعرفه جيدًا، فعند وصوله إلى سيلان كان رجلا قوى البنية، ممتلئ الجسم، متمتعا بالصحة، له الشخصية القوية على مرافقيه،وصاحب ابتسامة لمن يبدى اهتماما به، ولكن حين رآه بعد خمس سنوات من منفاه، صدم بالتغييرات التى حدثت له، حيث ساءت حالته، وبدا كما لو نقص طوله قدمًا، وانتابه اليأس، وزهد الحياة، وظهر عليه كبر السن، وهاجمه المرض، وأصيب قلبه بداء الحنين للعودة للوطن. وبعد وصف حالته يرشح للمنفيين چفنة ثم يشير إلى بنجالور ويعتبرها جنة الهند ويبين أنها تتمتع بالجفاف، وتضم الأندية ووسائل التسلية والحوانيت، وتتوفر بها جميع الحاجيات الأساسية والثانوية، وبالتالى فهى تناسبهم، وأخيرًا يبدى استعداده لعمل الترتيبات اللازمة لهم من منازل مفروشة إلى غيره. ووُضع الاقتراح أمام الخارجية البريطانية، فرأت بحثه[٣]. ولكن على ما يبدو أنه لم يلق تأييدًا لتعارضه مع الخطة الأساسية التى رسمت بهدف فصل المنفيين عن الهند. وهدأ الموقف بعض الشىء،

---

(١) Ibid, Downing Street, Nov. 7, 1890, Havelock-knutsford, Colombo, Dec. 10, 1890, No. 399, F.O. Colonial Office, F.O, Nov. 15, 1890.

(٢) Ibid, Downing Street, Jan. 2, 1891.

(٣) Ibid, Ledivant-Colonial Office, Bangalore, Dec. 3, 1890, F.O-Colonial Office, F.O, Jan. 8, 1891.

وأُحبطت آمال المنفيين فى عودتهم إلى مصر أو حتى انتقالهم إلى مكان أكثر ملاءمة لصحتهم.

* * *

وفى ١٩ مارس ١٨٩١ توفى عبد العال حلمى نتيجة إصابته بحساسية فى صدره، ودُفن فى كولومبو، ولفت ذلك نظر الرأى العام البريطانى، فتقدم شوان Schwan عضو مجلس العموم بسؤال لوزير المستعمرات عما إذا كان أثار انتباهه أن المتوفى قد شكا من معاناته لأزمة صدرية، وأنه كان يتألم كثيرًا ويتوسل لنقله من المكان الذى يعيش فيه، وأن عرابى يقاسى من الروماتيزم الذى لا يتفق هو الآخر مع الرطوبة، ورغم ذلك فالتقرير الطبى يقول عكس هذا ويُسجل أنه لا ضرر على المنفيين، ثم يسأله عما إذا كان قرأ المقال الذى نشرته الصحيفة السيلانية Ceylon Mail الصادرة فى ٢١ مارس عن المنفيين وخاصة طلبة عصمت الذى لم يفارقه مرض الربو، وأخيرًا يسأل عمَّا إذا كانت الحكومة البريطانية تعتبر أن الحاجة إلى نقلهم لمكان جاف قد أصبحت مُلحة(١). وطلبت لندن التقرير الطبى الخاص بوفاة عبد العال حلمى، وجاء فيه أنها تمت بسبب نزيف فى المخ حدث نتيجة لحساسية الصدر التى صحبها انتفاخ فى الرئتين وإغماء، وأن الطبيب المعالج تردد عليه منذ ١١ مارس وأعطاه العلاج، لكنه لم يتمكن من وقف خطورة الحالة(٢).

* * *

وخشى طلبة عصمت على نفسه، والتجأ للحاكم وقدم له التماسه وتظلم وترجى نقله إلى مكان جاف(٣). وفى نفس الوقت استلم الحاكم خطابًا من لندن مرفقًا به استفسار مجلس العموم عن صحة المنفيين، وطلبت منه الرد. وعلى الفور عَيَّن لجنة طبية رسمية لفحصهم، وعما إذا كان طرأ أى تغيير على صحتهم منذ آخر فحص لهم، خاصة طلبة عصمت وعرابى لتأكيد أو نفى مرضهما، وجاء التقرير بأن أربعة منهم

---

(١) Ibid, Eastern Department, April 16, 1891.

يذكر عرابى أن جنازة عبد العال حلمى قد حلقت فوقها أسراب من الطير مما أخذ العجب بالناس لهذه الظاهرة الغريبة، واعتبر ذلك من كراماته. عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٦١.

(٢) Ibid, Downing Street, April 25, 1891, Havelock-Knutsford, March 27, 1891.

(٣) Ibid, Downing Street, June 8, 1891.

لا تغيير فى صحتهم، وأن طلبة عصمت ليست صحته بحالة مرضية، ونصحت اللجنة بنقله من كولومبو إلى كاندى أو چفنة حيث مناخهما أفضل ويناسب المصابين بمثل مرضه، أما عن عرابى فسجل التقرير أن حدة الروماتيزم قد قلّت[1]. ووفقا لذلك رأت الخارجية البريطانية أنه لا مانع لديها من نقل طلبة عصمت إلى قبرص أو سانت هيلانه St. Helena أو الكاب. وتم الاتصال بالقاهرة لتبليغها، وعارض الخديو بشدة المكان الأول ووافق على الجهتين الأخيرتين[2]. وأبدت الخارجية البريطانية استعدادها لتحمل مسئولية الإشراف عليه ومراقبة تحركاته، وطلبت سؤاله حتى يمكن اتخاذ اللازم[3]. وبعرض الأمر على صاحب الشأن رفض وفضل الاستمرار فى سيلان عن الانتقال لهاتين الجهتين[4]. وعندما جُدد العرض عليه بناء على إعادة طلبه المعهود، ركز على قبرص لتشابهها فى المناخ مع مصر، وأنها المكان المناسب لصحته[5]. وبالطبع رفض الطلب لتعارضه مع رغبة الخديو.

وفى ذلك الوقت كان بلنت يسعى لدى بيرنج، فعقب وفاة عبد العال حلمى فاتحه فى المسألة، لكنه عارض عودة المنفيين بشدة،وصرح أنه فى حالة ما يتقرر احتلال مصر بصفة مستديمة، فإنه لن يعارض فى عودتهم، وحاول بلنت أن يستحضر له مثالا، فذكر محمد عبده وكيف تغير موقفه[6]، بمعنى أنه أصبح بعيدا عن الثورية وسلسا مع السياسة البريطانية، ولكنه لم يصل معه إلى نتيجة. وفى يوليو ١٨٩١ أثير الموضوع فى البرلمان عن طريق لابوشير، وكانت إجابة الخارجية البريطانية متمثلة فى فرجسون Ferguson حيث ذكر أن الحكومة البريطانية لم تتخذ موقفا نهائيا تجاه المنفيين وأنه جارى البحث فى هذا الشأن[7]. فأعطى هذا نوعًا من الأمل.

وخرجت الصحيفة البريطانية Pall Mall Gazette فى ٢٧ يناير ١٨٩٢ بمقال

---

(١) Ibid, Havelock-Knutsfod, Kandy,June 23, 1891, No. 246, Principal Civil Medical Office, Colombo,June 17, 1891.

(٢) Ibid, F.O., July 23, 1891, F.O.-Colonial Office, F.O, Aug-4, 1891.

(٣) Ibid, F.O-Colonial Office, Aug. 24, 1891.

(٤) Ibid, The Governor of Ceylon-knutsford, Aug. 12, 28, 1891.

(٥) Ibid, Police Office, Colombo, Sept. 24, 1891.

(٦) Blunt, My Diaries, Part I, p. 45.

(٧) Ibid, p. 54.

لمراسلها فى كولومبو سجّل فيه رؤيته لعرابى بعد انقطاع دام سبع سنوات، فذكر أن ملامحه تغيرت واتسع عقله وأصبح يتكلم الإنجليزية بطلاقة، وبعد أن كان رجلا طويلا ذا جسم عسكرى قوى، غدا رخو العضلات، وقد أُنهك من إصابته بالملاريا، وتعثرت قدماه من مرض الروماتيزم، واشتعل الرأس والذقن شيبًا، بالرغم من أن عمره لا يتجاوز ٥١ سنة، فإنه يبدو فى السبعين، إذ انحنى ظهره، ويُبين الكاتب أن عرابى شكا له سوء الحال والمنقلب والجو القاتل الذى يعيش فيه هو وزملاؤه حيث زحفت عليهم الأمراض بأنواعها، وأن نفيهم فى تلك الجزيرة يعنى الموت البطىء، ثم عبر عن رغبتهم فى العودة لمصر وكيف توصد الأبواب أمامهم[١]. وكان هذا المقال موضع سؤال من كوى Coy عضو البرلمان حيث استعلم من وزير المستعمرات عما إذا كان قرأه، وهل يمكن للحكومة البريطانية العمل على عودة المنفيين لأرضهم أو نقلهم إلى قبرص[٢]. وعليه يتضح أن القضية أصبحت متداولة ولكنها لم تحسم.

* * *

وطرأ على عام ١٨٩٢ حادثان مهمان، فقد تولى جلادستون الوزارة للمرة الرابعة، ومن ثم عاد حزب الأحرار للحكم، كما اعتلى عباس حلمى الثانى أريكة الخديوية، وبدا وكأن الأمر ربما يكون فى صالح عرابى ورفاقه.وتحرك بلنت، وفى لقائه مع السكرتير الخاص لروزبرى ـ الأخير شغل منصب وزير الخارجية فى عهد وزارة سولسبرى الثانية ـ ناقشه فى مسألة فك سراح عرابى، فوجد منه فتورا مما لم يشجعه على الاستمرار، وأعقب ذلك لقاؤه بدفرن بالسفارة البريطانية فى باريس، فطلب منه مساعدته لتحقيق ما يسعى إليه، فوجد منه قبولا حيث تكلم عن عرابى بطريقة لطيفة، ووعد بأن يقول كلمة طيبة فى حقه عندما تتاح الفرصة[٣]. ومن اللافت للنظر أن الاهتمام منصب على عرابى دون رفاقه فى أحيان كثيرة، حيث فرضت الزعامة نفسها عليه فى المنفى، ولا يعنى ذلك أنه المقصود وحده، وإنما استُخدم اسمه ليكون مرفقًا به باقى أسماء المنفيين تلقائيًا. وتواصلت المجهودات، وفى ٧ نوفمبر من نفس العام

---

(١) F.O. 78, op. cit., Pall Mall Gazette, Jan. 27, 1892, An Interesting Chat with Arabi Pasha "Our Days are Drawing to a Close".

(٢) Ibid, Parliamentary Question.

(٣) Blunt, My Diaries, Part I, Sept. 3, Oct. 19, 1892, pp. 74, 80.

بعث بلنت برسالة إلى روزبرى استعرض فيها الظروف التى يخضع لها المنفيون، وبعثت الخارجية البريطانية بصورة منها إلى كرومر فى مصر[1].

* * *

ودرس المعتمد البريطانى الموقف جيدًا، وكتب للندن يشرح الأبعاد، فذكر أن الخديو الجديد على استعداد لسماع شكوى المنفيين فى سيلان، وأنه مقتنع أن وجهة نظر عرابى وموقفه يختلفان تماما عما مضى، وأنه فى لقاء معه عندما نقل له تهانى الملكة، تطرق فى سياق الحديث عن التماسات عرابى ورفاقه، ولكنه لم يعرض رأيه، ولم يطلب من الخديو الرأى، وإنما تبين أنه لا يعارض فكرة بلنت ـ وهى بالطبع لصالحهم ـ ويواصل كرومر قوله إنه بالنسبة لصغر سن عباس فقد يعرض الأمر على نظّاره، وإنه ـ أى كرومر ـ لن يتحدث معهم فى ذلك إذ يعارضون بشدة مسألة العودة، ويجدون من يؤيدهم من أصحاب المراكز ذات الأصول التركية، وبالتالى فلن يضغط عليهم، ويُبين أن العفو عن عرابى ـ إذا حدث ـ سيكون خطوة جريئة من الحكومة البريطانية، ولها وقعها الحسن فى تهدئة الرأى العام مما يسهل بقاء قوات الاحتلال فى مصر، وأنه فى حالة ثبوت هذه الرؤية، لا بد من ضغط سياسى لإقصاء اتجاه الرافضين، ثم ينتقل إلى تحليل شخصية عرابى، فيقول إنه لم يقابله شخصيًا، ولكنه واثق من أن حركته كانت ضد الأتراك والأوربيين، واتخذت الطابع العسكرى والوطنى، وأن ما لاقاه الفلاحون من الظلم على يد الأتراك الذين يعتبرون المصريين أقل مستوى منهم، جعل عرابى يتزعم حركة الإنقاذ ومعه غالبية المصريين، فاشتركت معه الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا، وأن الذين حوكموا يعدون قلة، وقد وقع عليهم دور القيام بالحركة، ويصفها بأنها كانت حركة اجتماعية، وبالتالى فهو يرى عودة القائد سيكون لها تأثير حسن فى نفوس الشعب. وفى الوقت نفسه يذكر أن فيها خطرا سياسيا كبيرا، ثم ينتهى إلى أن ضعف الخديو ونقص تعليمه يجعله فى حاجة لطلب معاونة الإنجليز المستمرة ليظهر قويًا، ويركز على أنه فى هذه الحالة لن تكون هناك خطورة من عودة عرابى[2]. وبذلك تتضح نظرية السياسة الكرومرية، ومن خلالها

---

(١) F.O. 78, op. cit., Cromer-F.O, Cairo, Dec. 2, 1892.

فى ٢٤ مايو ١٨٩٢ لقب بيرنج بلقب لورد كرومر.

(٢) Ibid.

نلمس أن التعنت والجمود اللذين أبداهما المعتمد البريطانى فيما سبق تواريا جانبا نظرًا لتغيير الظروف.

* * *

والتقى بلنت بالخديو فى ٢٨ فبراير ١٨٩٣ وسأله العفو عن المنفيين مُصرحًا أنه استلم خطابات من عرابى تفيض بعبارات الولاء له، وأنه ـ أى بلنت ـ على يقين من إمكان اعتماد الخديو عليه لإخلاصه له، كما أشار إلى أن محمود سامى سيكون هو الآخر مفيدًا له للغاية، وأبدى أمنيته فى السماح للمنفيين بالعودة، وتقبل عباس الحديث بارتياح مما شجع محدثه على الاستمرار، فأظهر أسفه على أن الخديو توفيق كان فى مشاحنة مع عرابى مما تسبب عنه دخول الإنجليز مصر، وأنه لا يعفى من هذه المسئولية. وأظهر أن سياسة عرابى تطابق تمامًا سياسته وعلى وجه التحديد فيما يتعلق بالتخلص من الحكم الأجنبى، وهنا أجابه الخديو بأنه لا يمكنه إعطاءه ردًا قاطعًا حول هذا الموضوع حتى يتم التشاور مع الآخرين، ولكنه سيضع مسألتهم محل اعتبار، وحينما تتاح الفرصة المناسبة، فإنه يأمل أن يكون قادرًا على تحقيق طلبه، فأجابه بلنت بأنه لا يريد الضغط عليه فى تلك اللحظة نظرًا لعلاقته المتوترة مع كرومر، وأسدى له النصيحة بأن يكون مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية من بين مستشاريه[1]. ومع علم بلنت بموقف مصطفى رياض المضاد، لكنه التقى به فى ١٧ مارس ١٨٩٣ وكان رئيسا للنظار وبسط الأمر معه، فسمع منه الكثير مما قام به عرابى وكيف تسبب فى الاحتلال البريطانى، وانتهى إلى أن الفرصة غير مواتية لإتمام هذه الخطوة[2].

* * *

وحاول عرابى استدرار عطف الرأى العام البريطانى عن طريق عرض المسألة على الصحافة، ففى عام ١٨٩٣ وبينما كان محرر الصحيفة البريطانية The Daily Graphic فى زيارة للجزيرة، بعث إليه عرابى ببرقية عاجلة يطلب منه إجراء حديث بهدف أن يكتب مقالًا ـ عقب عودته للندن ـ يقترح فيه إطلاق سراحه من الأسر. والتقى الصحفى به فى نوارا إليا Nuware Eliya بالجبل، وحضر المقابلة على

(١) Blunt, my Diaries, Part I, pp. 92, 93.

(٢) Ibid, pp. 94, 95.

فهمى وابن عرابى، ودار الحديث عن مقال نشر فى الصحيفة البريطانية The Daily Telegraph تحت عنوان «سجين الحرب» استعجل فيه كاتبه العفو عن عرابى، وراح الأخير يسرد قصته حتى وصل إلى معركة التل الكبير ووصفها بأنها المشهد الأخير الذى أسدلت عليه الستار. ثم طلب من الصحفى أن يصف للشعب الإنجليزى حاله، وكيف أصبح هرمًا قبل الأوان، وأن عشر سنوات المنفى ضاعت فيها صحته وأصبح لا يصلح لأى شىء، وغير قادر على الخيانة أو الإخلال بكلمة الشرف، وأن عينيه غطاهما السحاب الذى سيحجب عنهما رؤية الضوء إلى الأبد، وعندما سأله الصحفى عن نظرته للمستقبل، أجاب إنه يريد الموت بين ناسه، ويشاهد مصر قبل أن تأتى ساعته الأخيرة، وفى حالة سماح الحكومة البريطانية بعودته سيذهب كصديق لبريطانيا لا كعدو، وأنه يوافق على وضعه تحت رقابة البوليس أو الحراسة العسكرية، وتكتب عنه التقارير وترفع للمسئولين، وأكد تمسكه بوعده الذى أعطاه بعدم تدخله فى السياسة بطريقة أو بأخرى، وينتهى إلى أنه وضع أمله فيه ويطلب العفو والرحمة ويشيد بالإنجليز[1]. ودلَّت هذه المحاولة على الخضوع والاستسلام، لكنها كانت إحدى الأبواب التى طُرقت.

* * *

وعاود المنفيين الأمل فى تحقيق مطلبهم، فيكتب طلبة عصمت إلى وزير المستعمرات ليعيد شرح ظروفه، ويُبين أن الأجواء أصبحت صالحة لإمكانيات نوال الرغبات عن ذى قبل، حيث يحكم مصر خديو جديد أصدر العفو عن ٣٣٨ شخصًا من الذين رفض والده العفو عنهم، وأن حزب الأحرار يحكم إنجلترا وهو صاحب قوة وبأس[2]. وبعثت الخارجية البريطانية إلى كرومر تنقل له المظلمة، فأعد بدوره مذكرة بشأنها وسلمها إلى تيجران ناظر الخارجية، وسأله عما إذا كان عباس حلمى سيلبى طلب المتظلم بالسفر لقبرص، فعلم منه أنه حول المذكرة عليه، وأنه سيكون مثل والده حذرًا من ذلك، خشية من تمسك باقى المنفيين بالانتقال إليها، ولأنها قريبة من مصر، ومن ثم فعلى المتضرر اختيار مكان من المستعمرات يكون بعيدًا عنها،

(١) Broadley, The Trial..., Vol. III, The Daily Graphic, May 27, 1901.

من الملاحظ أن عرابى لم يبد ندمًا على ما قام به.

(٢) F.O. 78, op. cit., Toulba Esmat-Colonial Secretary, Colombo, July 14, 1893.

وينتقل ناظر الخارجية إلى معاناة الحكومة من إطلاق سراح عبد الله النديم[1]. وعليه أخطرت الخارجية البريطانية وزارة المستعمرات برفض الخديو وإبلاغ صاحب التظلم بذلك[2].

وانفعل طلبة عصمت وكتب إلى برودلى يشير لما سبق أن أقرته اللجنة الطبية عام ١٨٩١ عن سوء حالته الصحية، وكيف دخلت قبرص فى مجال الاختيار كمكان ينتقل إليه، وأنه فضلها، فرفضها توفيق، ثم عاد وعارضها ابنه رغم تسامحه مع حسن موسى العقاد ومحمد عبده وعبد الله النديم، وينتهى إلى أنه فى المنفى بناء على رغبَة الحكومة البريطانية لا الحكومة المصرية، ويطلب منه السعى لتحقيق طلبه[3].

* * *

وساءت حالة عرابى ورفاقه بوفاة محمود فهمى فى ١٧ يونيو ١٨٩٤، وكلّف حاكم سيلان مفتش عام البوليس لمعرفة سبب الوفاة، وإذا ما كان هناك سبب مباشر أو غير مباشر عمل على سرعتها، وهل لمناخ سيلان دخل فيها؟ وجاء التقرير الطبى أنه أصيب بشلل فى جنبه الأيسر وثقل لسانه، وجرت معالجته فتحسن، لكن استمر ذراعه مشلولًا، ثم توجه إلى كاندى ومكث بها أربعة أيام، عاد بعدها لبيته فى كولومبو، وزاره الطبيب، وبعدها انتقل إلى كاندى مرة أخرى حيث استضافه ابن عرابى، ولم يمض إلا وقت قصير حتى لقى ربه، وأنه ليس للظروف المناخية دخل فى الوفاة وسببها السكتة القلبية، كما قدِّم تقرير لطبيب آخر كان على صلة شخصية بالمتوفى، يذكر فيه صفاته وكيف كان نشيطًا ويهوى المكتبة ويقوم بترجمة كتب التاريخ من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية[4]. وبذلك نقص من عدد المنفيين اثنان، وأصبح كل واحد من الباقين ينتظر دوره حاملًا فوق أكتافه مشقة التفكير فى الموت بعيدًا عن الوطن. وهكذا نطقت صورة حياة عرابى ورفاقه فى جنة آدم بالعذاب الذى تجرعوه ظلمًا وبهتانًا، لا لذنب اقترفوه سوى الرغبة فى انتشال مصر مما كانت تعانى منه.

---

(١) Ibid, Cromer-F.O, Ramleh, Sept. 4, 1893.

(٢) Ibid, F.O-Colonial Office, Sept. 20, 1893.

(٣) Broadley, The Trial..., Vol. III, Toulba Esmat-Braodley, March 14, 1894.

(٤) F.O. 78, op. cit., Havelock, Kandy, July 14, 1894, No. 247, Colonial Surgeons Office, Report by Dr. Rockwood, Report by Dr. Kynsey.

الفصل الرابع

الخــلاص

كان من الصعب استمرار الأوضاع على ما هى عليه، فحالة المنفيين تزداد سوءًا، والمساعى تمضى على دربها من أجل الاستحواذ على أية نقطة يمكن إفادتهم بها، وبالفعل فقد تمكنت من أن تنحت فى الصخر، ولاح أن طريق النهاية قد قرب، وانعكس ذلك على بعضهم. بينما ألقى العبء على كاهل البعض الآخر، الذى ازدادت عليه المعاناة حتى شاءت الإرادة بخلاصه.

مع تولى مصطفى فهمى رئاسة مجلس النظار فى ١٢ نوفمبر ١٨٩٥، وابتعاد مصطفى رياض عن التحكم بدت بوادر طفيفة توحى بأنه قد قرب فك المنفيين من أسرهم، ففى لقاء جمع بلنت ومحمد عبده فى ١٤ مارس ١٨٩٦، أفاد الأخير عن التوقعات المنتظرة بشأن السماح لعرابى بالانتقال إلى قبرص أولًا ثم العودة لمصر، وأن رئيس النظارة أخبره بذلك، وأن كرومر يرحب بالخطوة فى حالة موافقة الخديو، وعليه سارع بلنت وقابله وفتح معه الموضوع، فعاد عباس حلمى ليسأله عن عرابى، فلقى إجابة تشيد به، حيث وصفه بلنت بأنه وطنى شريف، وصرح بتحمله مسئولية ولائه، فوعده الخديو خيرًا وبمناقشة الأمر مع رئيس نظاره(١).

* * *

وتابع المنفيون أسلوبهم المعهود، وفى مايو ١٨٩٧ أرسل طلبة عصمت ويعقوب سامى ومحمود سامى التماساتهم التى تعددت جهاتها، إلى الملكة ڤيكتوريا وإلى

---

(١) Blunt, My Diaries, Part I, pp. 219, 223.

رئيس وزرائها وإلى كرومر. يستعرضون فيها قصة نفيهم وما يقاسونه، وتقدم العمر بهم، وكيف أنهم يصلّون ويدعون من أجل الرجوع لوطنهم أو حتى الانتقال إلى قبرص، وأنهم لم يعد لهم حول ولا قوة، إذ زهقت أرواحهم، واندثر ما يخشى أن يفعلوه، وليس فى وجودهم بمكان قريب من مصر أى خطر عليها، وأن تجربة بقائهم فى سيلان خمس عشرة سنة دليل على استكانتهم وعدم تدخلهم فى السياسة. ومن اللافت للنظر أنهم يبعثون بخطاب إلى ولسلى Walsley - تولى القيادة العامة لجيش الغزو البريطانى فى منتصف أغسطس ١٨٨٢، وهو الذى خطط للاستيلاء على مصر عن طريق قناة السويس - يناشدونه ويرجونه الوساطة فى قضيتهم، وبذلك تتبين درجة الخضوع التى فرضت نفسها عليهم، كما أيقنوا ما للمعتمد البريطانى من نفوذ، وإمكانية تأييده لهم، فقدموا له فروض الطاعة والولاء، ويُبلغون برودلى بهذه الالتماسات ويطلبون مساعدته[١]. وفى نفس الوقت تكتب زوجاتهم وبناتهم متظلمات للملكة البريطانية، وتحمل شكواهن نفس معنى ما احتواه التماس المنفيين[٢]. ويبعثن بعريضتهن للخديو متضرعات إليه، ويرسلن لرئيس النظار يستعطفنه لتحقيق طلبهن[٣].

ويرفق كرومر مع كتابه إلى سولسبرى فى ١٠ يونيو ١٨٩٧ صورة الالتماس الذى وصله من المنفيين الثلاثة، ويصرح له بأنه لا شك فى أن الغرض الأساسى من هذا الالتماس هو طلب العودة لمصر، وينقل له تحرياته، وتدل على الخط غير الثابت، فيذكر أن النظار لديهم حذر شديد فى تلك المسألة خاصة مع ظروف الاضطرابات التى تمر بها مصر، ويُبين أنه لا يمكن الحكم على الوضع السياسى إذا عاد المنفيون، وبالتالى ليس من الحكمة المجازفة بهذه العودة، ومن ثم فإنه يرى بقاءهم فى مكانهم، ويشير إلى أنه يجب وضع المتغيرات الكبيرة التى حدثت فى مصر منذ عام ١٨٨٣ فى الاعتبار، وأن نفى عرابى ورفاقه كان بسبب تزعمهم لثورة ضد توفيق، وأن الخديو الجديد وضع نفسه فى مرتبة الزعامة، فبدأ بالحركة العربية ثم تحول للحركة المضادة

(١) Broadley, The Trial..., vol. III, May 17, 20, 1897, F.O. 78/5176, Cromer-Salisbury, Cairo, June 10, 1897, No. 85.

(٢) F.O. 78, op. cit., Kandy, May 20, 1897.

(٣) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢.

لأوربا[١]. وعليه يتضح أن موقف المعتمد البريطانى الذى كان قد بدا تعاطفه مع المنفيين، انعطف إلى سيرته الأولى. وتلقت وزارة المستعمرات كتابا من الخارجية البريطانية يفيد رفض الحكومة المصرية التماسات المنفيين الثلاثة وعائلاتهم[٢].

* * *

ولم يغفل أعضاء البرلمان البريطانى عن توجيه الأسئلة بين الحين والآخر بشأن إطلاق سراح المنفيين بعد قضائهم لتلك الفترة الطويلة فى النفى، وسياسة الحكومة البريطانية ـ خاصة بعد الانتخابات ـ فى هذا الصدد[٣]. وساءت حالة طلبة عصمت الصحية وتدهورت. وبعثت سيلان للندن، وبُلغ كرومر بإجراء اتصالاته، فالتقى مع رئيس النظار، الذى عرض الحالة على الخديو، فعارض وقال إنه إذا عاد طلبة عصمت إلى مصر، فسيطالب باقى المنفيين المعاملة بالمثل، فأوضح له المعتمد البريطانى أن وضعه يختلف عن باقى رفاقه،وعند التصريح له بالعودة، يخطر الباقون بأن ما تم حالة فردية استثنائية نظرا لارتباطها بمرضه الخطير، ولا تطبق عليهم،كما ذكر أن صاحب الشأن ليس له دور مهم كزملائه،وقد أتى عليه الدهر وإمكاناته معدومة[٤].

* * *

ونجح المعتمد البريطانى، واتصلت الخارجية البريطانية بوزارة المستعمرات، وأبلغتها نبأ الموافقة على التصريح لطلبة عصمت بالعودة إلى مصر، وأن هذا التصريح خاص به ولا ينطبق على زملائه، وليس من حقهم المطالبة به[٥]. وفى ٢٧ يناير ١٨٩٩ صدر الأمر العالى بالترخيص له «بالعودة إلى القطر المصرى والإقامة فيه»[٦]. واستفسر كرومر من لندن عن تحديد ميعاد السفر، فطلبته من حاكم سيلان. فأعلمها بأنه سيبحر على الباخرة كونيچن لويس Conigen Luise فى ١٧ فبراير، ثم

---

(١) F.O. 78, op. cit., Cromer-Salisbury, Cairo, June 10, 1897, No. 85.

(٢) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O., Oct. 5, 1897.

(٣) Ibid, Eastern Department, June 17, 1897.

(٤) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O, 27, 1898.

(٥) Ibid, F.O-Cromer, F.O, Jan. 13, 1899, No. 8.

(٦) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢.

عدل الميعاد فأبحر على الباخرة بروسن Preussen فى ١١ فبراير[١]. ولم تمض إلا شهور قليلة وتوارى فى تراب مصر.

وتنفيذًا للتعليمات وجه حاكم سيلان فى ٣١ يناير ١٨٩٩ خطابا إلى المنفيين الأربعة مُعلنًا أن الخديو عدّ حالة طلبة عصمت اضطرارية وأن الحكومة البريطانية وممثليها فى سيلان والقاهرة لا يعتبرون فى عودته حقًا لهم أو إيذانًا بالأمل فى رجوعهم لمصر، حيث لا ينطبق وضعه على وضعهم بأى حال من الأحوال. وجاء رد عرابى ليبين فيه أنه استلم الخطاب وفهم مضمونه، ويشكر الحاكم والخديو علّى التصريح لزميله بالعودة، ويشير إلى التزامه بكلمة الشرف التى أعطاها منذ ست عشرة سنة، ويشيد بالحكومة السيلانية على حسن معاملتها، ويفضى بالشكر لحكومة جلالتها، ويرجو أن تكون قد تغيرت وجهة نظرها فيه،وأخيرًا يُعبر عن أمنيته فى قضاء المتبقى من عمره مع عائلته فى مصر. واقتصر رد الباقين على تقديم وافر الشكر على ما قامت به الحكومة البريطانية وحاكم سيلان نحو طلبة عصمت، ورفع الحاكم صورة خطابه والردود عليه للندن[٢].

ولم يكف المنفيون عن المطالبة بالعودة بعد انحدار حالتهم الصحية، وارتفعت أصواتهم بالشكوى، فيلتمس على فهمى العودة، ويرفق مع التماسه تقرير الطبيب المعالج، والذى يقرر أنه تحت العلاج منذ تسع سنوات لإصابته بالدوسنتاريا وعسر الهضم وتضخم الطحال والكبد والإكزيما باليدين، وأن غذاءه الوحيد هو اللبن، وصرح الطبيب أن حالته الصحية فى اضمحلال، وامتداد إقامته فى سيلان سيقضى على حياته، وقد أشرك هذا الطبيب زميلا معه، فاتفقا فى التشخيص والرأى، ومن ثم أرسل حاكم سيلان إلى المكتب الصحى لوضع تقرير رسمى عن الحالة، فسجَّل الطبيب أنه من المعلومات التى حصل عليها من كاندى ـ دون أن يقوم بالكشف عليه ـ علم أنه يتمتع بصحة عن زملائه[٣]، وأخذ الحاكم بهذا التقرير.

---

(١) F.O. 78, op. cit., Cromer-F.O, Cairo, Jan. 25, 1899, No. 27, F.O-Colonial Office, F.O, Jan. 25, 1899, Downing Street, Feb. 10, 1899.

(٢) Ibid, Colonial Secretary Office, Colombo, Jan. 31, 1899, W. Rigeway-Colonial Office, Ceylon, Feb. 20, 1899, 1899, No. 47.

(٣) Ibid, Governor of Ceylon, Nuwara Eliya, April 18, 1899, No. 139, keyt's Report, Kandy,=

وحدث نفس الشيء مع يعقوب سامى الذى التمس العودة، وأرفق هو الآخر تقرير الطبيب المعالج، واشتمل على أنه تحت العلاج منذ سنتين نتيجة لانهيار عصبى وضعف عام، وأنه أصيب مؤخرًا بشلل فى نصفه الأعلى، وحالته الصحية حرجة، بالإضافة إلى تقدم سنه،وانتهى التقرير لضرورة عودته لبلده، وصادق طبيب آخر عليه(١). وبعض مضى خمسة أشهر عاد الطبيب المعالج وكتب تقريرًاعن حالة المريض الخطيرة والميئوس منها، ووجوب إطلاق سراحه ليرى أرض وطنه قبل وفاته. وبالرغم من ذلك، فإن من وُكلت لهم المهمة الرسمية بالكشف عليه، لم يقوموا به، وقرروا فى التقرير الرسمى أنه بحالة جيدة وأحسن المنفيين صحة، ولم يضعوا اعتبارًا لأى تقرير سابق. وعقب تسعة عشر يوما من تقريرهم توفى يعقوب سامى فى ٣٠ أكتوبر ١٨٩٩ (٢). واعترف المسئولون البريطانيون أن سبب الوفاة يرجع إلى الإهمال فى الكشف الطبى عليه(٣). وهكذا سقط الواحد تلو الآخر. ودفن ثلاثة فى أرض سيلان بعد أن أعياهم المرض وقضت عليهم الغربة.

* * *

وساءت صحة محمود سامى، وكتب مفتش عام الصحة تقريرًا. وكان صادقًا هذه المرة، ذكر فيه أن المريض يعانى من جلوكوما Glucoma فى عينيه أزمنت معه، وكادت أن تفقد عينه اليمنى البصر، ولا تقوى عينه اليسرى على عد أصابع اليد، وهذا المرض ليس له علاج وسينتهى بالعمى لتمزق القرنية، وأنه يعانى من اكتئاب نفسى راسخ وشديد نتيجة مرضه ووحدته بأرض أجنبية. ولذلك أثره السيئ فى النهاية. وأرفق ردجوى التقرير بكتاب له للندن يعرض فيه حالة المريض الصحية المتدهورة، ويشير إلى أنه «ربما تصرح له الحكومة المصرية بعودته لوطنه بالنسبة لظروفه»(٤).

= April 7, 1899, Hayman's Report, Kandy, April 6, 1899, Allanpery, Office of the Principal Civil Medical Officer, Colombo, April 8, 1899.

(١) Ibid, Governor of Ceylon, Nuwara Eliya, April 18, 1899, No. 139, Keyt and Craib's Report, Kandy, April 7, 1899.

(٢) Ibid, Walker-Chamberlain, Colombo, Oct., 11, 1899, Keyt's Report, Sept. 12, 1899.

(٣) Ibid, Downing Street, Nov. 2, 1899.

(٤) Ibid, Ridgeway, Colombo, March 18, 1899, No. 102, Perry's Report March 16, 1899.

وتنقل لندن اقتراح حاكم سيلان إلى كرومر لإجراء اللازم[1]، فيلتقى بالخديو ويدور الحوار بينهما حول باقى المنفيين، ويخرج بعدها ليكتب لرئيس الوزراء البريطانى «لم أتمكن من عمل شيء سوى موافقة الخديو على عودة محمود سامى فى الحال»[2]. وتكتب الخارجية البريطانية فى ١٢ يوليو ١٨٩٩ لوزارة المستعمرات لتفيدها بالعفو الخديوى عنه، وأنه أصبح يمكنه العودة لمصر، وتطلب تبليغ حكومة سيلان[3]. وفى اليوم نفسه يصدر الأمر العالى بالترخيص له «بالعودة إلى القطر المصرى والإقامة فيه»[4]. وعندما نقل له حاكم سيلان النبأ، ما كان منه إلا أن بعث بخطاب شكر لكل من الملكة ڤيكتوريا والخديو لصدور العفو عنه والسماح برجوعه إلى وطنه[5].

وبعد عودته صدر الأمر الخديوى فى ١٧ مايو ١٩٠٠ بمنحه الحقوق المدنية وجواز امتلاكه، ورُدت إليه أملاكه الموقوفة، وكان الوحيد من بين المنفيين فى سيلان الذى نال رضا الخديوى، وقد يرجع ذلك إلى جذور البارودى وانتمائه الطبقى.

* * *

لم يعد هناك فى جنة آدم سوى عرابى وعلى فهمى، وكان كرومر قد أرجأ النظر فى التماساتهما لوقت لاحق، وكما عبر «ربما تكون الفرصة متاحة فى العام القادم»[6]. معنى هذا أنه اتبع سياسة المماطلة حيث تتفق مع رغبته، فلم يجزم فى أمر العفو، بل وضعه فى أيدى الخديو ونظاره رغم يقينه بتلك الظروف التى مرت بالمنفيين وقضت عليهم، حقيقة إنه قام ببعض المحاولات التى تشير إلى عكس ما يبطن ليموه وينأى بنفسه عن اللوم ويحمل غيره مسئولية الرفض، ونجح فى ذلك وخاصة أن الخديو كان موقفه معروفًا، فيتحدث إليه بشأن عودة عرابى، مصرحًا بأنه فقد قوته وصلابته، وهو يعلم تماما أن مثل هذا الطلب سوف يتبرم منه ويأتى بالنتيجة المضادة. وبالفعل

(١) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O. May 30, 1899.

(٢) Ibid, Cromer-Salisbury , Cairo, July 10, 1899.

(٣) Ibid, F.O-Colonial Office, F.O, July 12, 1899.

(٤) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤١، رئاسة مجلس النظار، قلم عربى، أمر عال فى ١٢ يوليو ١٨٩٩.

(٥) F.O. 78, op. cit., Governor of Ceylon, Kandy, July 31, 1899.

(٦) Ibid, Colonial Secretary Office, Colombo, July 15, 1899.

فقد تكدر عباس حلمي وشكاه لبلنت وتحدث بانفعال عنه،وبين كيف يحزنه موقفه إذ سبق ورفض السماح للخديو السابق إسماعيل بالعودة إلى مصر وكان يعانى من مرض السرطان وانحصر طلبه الوحيد فى أن يرى القاهرة قبل موته.وحاول بلنت تهدئة روع الخديو بما يكون فى صالح عرابى، ولكنه لم يتمكن، فيذكر «واستغرقتنا المناقشة فى هذا الموضوع طويلًا، وحينما كنت فى طريقى إلى المغادرة، انتهت بوعده المتأرجح بالعفو عن عرابى»(١).

وبذلك ينكشف أنه بالرغم من أن المنفيين السبعة قد تفرقوا ولم يعد لهم كيان يعمل له حساب، فسقط أربعة منهم صرعى المرض، والخامس فى طريق النهاية، ولم يبق إلا اثنان فى المنفى أصابهما الوهن والمرض، فإنه طالما أن أحدهما عرابى، تسقط تلك الاعتبارات فى نظر الخديو على أساس أنه الرأس المدبرة والمفكرة، وأن رفاقه ليست لهم قائمة من غيره، حقيقة إنه حمل حقدًا على علىّ فهمى، ولكن نقمته انصبت على عرابى. وانهارت نفسية المنفيين، ولم يغفلا لحظة عن طلب العودة، وتلقى برودلى خطاباتهما فى هذا الشأن، ويصف له على فهمى انحدار صحته وكبر سنه ومرض ابنته ونصيحة الطبيب بترك سيلان، ويُسطِّر له عرابى ضيقه ومعاناته من هذه السنوات العجاف، ومن الملاحظ أنه أدخل زميلا معه فى الشكوى، وكان برودلى يرد عليهما ويعدهما بالعمل على تحقيق رغبتهما(٢). وفى يناير ١٩٠١ انتشر القول عن العفو قبل أوانه مما سبب كدرا وضجرا للمنفيين، وكان عرابى يأمل أن يكون عيد ميلاد الخديو فرصة لاسترداد حريته، ولكنه مر دون حدوث ما ينتظره، فكتب إلى صديق له فى ٢٠ فبراير ينعى حاله ويعزيه فى وفاة الملكة البريطانية(٣).

* * *

واستمر الوضع متجمدًا حتى قام دوق كورنول ويورك ولى عهد بريطانيا وزوجته بزيارة لجنة آدم، فوجدها عرابى فرصة لمقابلته وعرض القضية عليه، وطلب الوساطة

---

(١) Blunt, My Diaries, Part I, April 2, 1900, p. 363.

(٢) Broadley, The Trial..., vol. III.

خطاب من على فهمى إلى برودلى فى ٣ مارس ١٩٠٠، خطاب من عرابى إلى برودلى فى ٨ مايو، ٢٩ نوفمبر ١٩٠٠.

(٣) Ibid, The Daily Graphic, May 27, 1901.

منه، وتمت المقابلة فى ١٣ إبريل، واستغرقت بعض الوقت، وأعطاه الدوق وعدا ملكيا بأنه سيطلق سراحه حين عودته لبريطانيا[١]. ويكتب عرابى بعد المقابلة لصديقه ليعبر له عن الأمل الذى راوده عقب كلمة الشرف التى حصل عليها من الدوق، ويصور له اشتياقه للعودة لوطنه لينهى حياته فى ترابه، ويرى أهله وناسه، ثم يشير إلى أنه إذا تحطمت أمنيته فليس أمامه إلا أن يصبر حتى يدثر فى تراب الغربة بجوار أصدقائه، وأنه فى هذه الحالة سيحكم التاريخ على قضيته برحمة، وأما فى الدار الآخرة فحكم الله عادل على الجميع[٢].

وفى ذلك الوقت كان بلنت قد توصل لإمكانية الحصول على العفو عن طريق الضغط الملكى، ومن غير المستبعد أن يكون أعلم عرابى بها واتفقا على تنفيذها، وفى مقابلة له بالأدميرال لامبتون Lambton قائد اليخت الملكى - يعرف عرابى وأدلى بشهادة لمصلحته وقت المحاكمة، والتقى به فى سيلان فى عام ١٨٩٨، وصحب ولى العهد فى زيارته الأخيرة للجزيرة - حادثه فى مسألة العفو عن عرابى ليقينه من مركزه لدى سيده الدوق وقدرته على السعى لديه لتحقيق المطلوب، وعاد لامبتون والتقى بلنت بحجة مشاهدة جواده ودار الحديث طويلًا عن عرابى[٣]. وبديهى أنه نقله لولى العهد.

ولم يكن معتادًا أن تُقحم الأسرة المالكة البريطانية نفسها فى الأمور السياسية وتفرض رأيها، ولكن حدث أن تدخل ولى العهد فى هذه المسألة لدى الخارجية البريطانية[٤]. والواقع أن الحكومة البريطانية اتسم موقفها بالتأرجح، وسلمت كرومر الأمر، ومما يذكر أنه قد راودت جلادستون نية السماح للمنفيين بالعودة، ولكنه لم يمكنها[٥]. وعليه فإن ما أصر عليه الدوق لم يتعارض مع

(١) Ibid, Bath Herald, Oct. 5, 1911, Blunt, My Diaries, Part II, May 25, 1901.
عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٧٩.
(٢) Broadley, The Trial..., vol. III, The Daily Graphic, May 27, 1901.
(٣) Blunt, My Diaries, Part II, March 16, Oct. 26, 1901, pp. 421 , 428.
(٤) Ibid, Oct. 26, 1901, p. 428.
(٥) Ibid, May 25, 1901, p. 422.

السياسة العامة، وبالتالى رأت الخارجية البريطانية تحقيق الطلب، فضغطت على ممثلها فى مصر للتنفيذ(١).

* * *

وعندما أدرك كرومر الموقف أقصى طريقته جانبًا، وقام بتنفيذ تعليمات لندن دون تباطؤ فى الوقت الذى لم يظهر فيه انصياعه واستسلامه، وإنما حاول إعطاء الانطباع بتعاطفه مع المنفيين، فيكتب للندن ليبين مجهوداته لدى الخديو وإلحاحه الشديد عليه لعودة عرابى وعلى فهمى. ثم يسجل «وإنى على عكس ما يرى نظار مصر من أنه حتى لو أراد هذان الشخصان القيام بعمل فإنهما لا يقويان إذ انتهيا وأصبحا منهوكى القوى»(٢). وينقل جزءا من الحديث الذى جرى بينه وبين عباس حلمى، وأن الأخير عقد المقارنة من جديد، وسأل كرومر كيف يمكن السماح لهما بالعودة لمصر، بينما لم يسمح لجده بها، فأجابه بأن الوضع يختلف، ثم عرَّج الخديو على ما قام به على فهمى تجاه أبيه، وأنه بعد أن كان يعمل معه انقلب ضده، ووصفه بالمحرك الأصلى للثورة(٣). ولكن المعتمد البريطانى بعد إعادة استعراض ضعفهما أوضح له أن ولى العهد البريطانى يصر على صدور العفو عنهما، ومن ثم رضخ وسلم بالأمر. ويُعلم كرومر حكومته «لقد وافق الخديو على عودتهما، ولكن الموافقة كانت على مضض، وأرجو إبلاغ سموه ـ أى الدوق ـ بالنتيجة، وعند صدور الأمر العالى بالعفو عنهما سأنقله لردجوى حاكم سيلان»(٤).

ويعود المعتمد البريطانى ليبلغ الخارجية البريطانية بلقائه رئيس النظار قبل سفره للإسكندرية وإخطاره باستعجال الخديو الذى كان بها، وطلب منه أن يشرح له وجوب تحقيق رغبة الدوق، ومرة أخرى يؤكد أنه يتعارض مع مصطفى فهمى فى وجود أية خطورة من عودة المنفيين، لأن الحركة العرابية قد ماتت، ولن يقوى أى من أتباع عرابى الذين لا يزالون صغار السن على القيام بأى عمل(٥).

---

(١) Ibid, Oct. 26, 1901, p 428.

(٢) F.O. 78, op. cit., Cromer-F.O, Cairo, May 20, 1901, No. 46.

(٣) Ibid, Cairo, May 23, 1901, No. 56.

(٤) Ibid, Cairo, May 20, 1901, No. 46.

(٥) Ibid, Cairo, May 23, 1901, No. 56.

وبناء على هذه الضغوط صدر الأمر العالى الخديوى فى ٢٤ مايو ١٩٠١ بالترخيص لعرابى ورفيقه بالعودة لمصر، وعلى الفور أبلغ كرومر حاكم سيلان مشيرًا إلى أنهما يمكنهما العودة فى أى وقت يناسبهما، وأفاد لندن بذلك(١). وأثارت هذه المسألة مناقشة فى مجلس اللوردات حيث تقدم نيوتن Newten بسؤال لوزير الخارجية يستفسر فيه عن مدى ارتياح الحكومة المصرية لموافقتها على العودة، إذ كان معلومًا أن الموافقة فرضت عليها، وفى أثناء المناقشة بيَّن اللورد أن عرابى عُومل بطريقة كريمة لم يسبق لها مثيل، ويأمل فى ألا يكون لعودته إلى مصر وازع لحدوث أية اضطرابات فيها(٢).

* * *

وفى سيلان صدر الإعلان الرسمى بالعفو، وأبلغ المنفيان به فى ٢٦ مايو، وكانت برقية بلنت بالتهنئة قد وصلت عرابى قبل صدور الأمر العالى بيوم(٣). وتحقق الحلم، وأبرق عرابى لردجوى يترجم له شعور الفرح الذى انتابه، ويطلب منه نقل شكره العميق إلى الملك البريطانى وحكومته والخديو، ثم يصف حالته المالية المتعسرة، وأن خمسين جنيها لا تكفيه هو وعائلته بعد أن أصبح له ستة عشر من الأولاد تقع أعمارهم ما بين الثالثة والثمانى والثلاثين(٤). ويكتب لبرودلى يعلمه بأن مصر التى سيعود لها ستختلف عما تركها منذ تسعة عشر عامًا، وأن مستوى المعيشة مرتفع فيها عن سيلان، ويشكو فقره، وأنه ضاع كل شىء منه وغدا عليل الصحة وضعيف البنية،وأن العفو ليس عفوا حقيقيًا يشمل رد الممتلكات والرتب والنياشين ويحمل صور الاحترام والشرف، ولكنه يعنى تغيير المكان فقط، إذ لا يزال الخديو على موقفه غير الودى(٥). ومن ثم يتضح أنه لم يكن راضيًا بما منح، وبعد أن كان يتوسل ويتضرع

---

(١) Ibid, Cromer-Governor of Ceylon, Cairo, May 25, 1901, No. 48, Cromer-Lansdowne, Cairo, May 25, 1901, No. 48.

(٢) Broaley, The Trial..., vol. III. No. 665.

(٣) Blunt, My Diaries, Part II, Oct. 26, 1901.

(٤) Broadley, The Trial..., vol. III.

(٥) Ibid, Arabi-Broadley, Kandy, June 14, 1901, No. 660.

بالإضافة إلى مرض الروماتيزم الذى كان يعانى منه عرابى، فقد أصيب بضعف بصره.

للعودة، فقدت أهميتها لديه حين حصل عليها وراح يبحث عن استرجاع ما ضاع منه، وتلك هى طبيعة الإنسان. ويكتب مرة أخرى لبرودلى ويطلب منه بذل كل جهده ليزيل عنه المتاعب التى تنتظره، وأنه يمكنه بمساعدة دفرن الحصول على مورد مالى يناسبه فى ظل الظروف الجديدة(١).

وبعثت الخارجية البريطانية لكرومر بخصوص استعلام حاكم سيلان عما إذا كان سفر عرابى وعلى فهمى سيكون على نفقة الحكومة المصرية، وعددت الأفراد المرافقين، وأدرجت معهم الخدم، وتفاهم المعتمد البريطانى مع المسئولين، ووافقت الحكومة على تحمل نفقات السفر، ورفضت التكفل بمصاريف الخدم، وكان على فهمى يرغب فى إحضار بعضهم، ومن الطريف أن كرومر عندما كتب للخارجية البريطانية ليعلمها، ينتهز الفرصة ليشير إلى أن عرابى لم يعد باشا، حيث جرد من رتبه منذ عام ١٨٨٢ وأصبح يدعى أحمد عرابى أفندى، وجاء ذلك بناء على أنها لقبته بهذا اللقب(٢).

* * *

ومضى المنفيان يُعدان نفسيهما للسفر، وغادر على فهمى جنة آدم فى ١٥ أغسطس، أما عرابى فتأخر عنه شهرًا، وكان رحيله من الجزيرة صورة حية للمكانة التى حصل عليها طوال فترة إقامته. وقبل مغادرته لكاندى أقيمت له الاحتفالات التى اتخذت مظاهر متعددة. وتُعلق إحدى الصحف السيلانية بقولها «إن الابتهاج كان عظيمًا لهذا الرجل الديِّن الذى وجد وداعًا على نطاق واسع نظرا لمركزه وشعبيته»(٣). وقبل سفر عرابى قام الأعضاء البارزون من المسلمين بدعوته هو وأولاده وأحفاده لعشاء وداع بالمدرسة الإسلامية للبنين، وزُينت بالأعلام وانبعثت منها الأضواء، واستقبل عند وصوله استقبالا حافلا، وحضر الحفل جمع غفير، وألقيت الكلمات التى

(١) Ibid, Kandy, Sept 3, 1901.

(٢) F.O. 78, op. cit., F.O-Cairo, F.O., June 28, 1901, No. 120, Cromer-F.O., Cairo, July 4, 1901, No. 81.

كان عرابى يصطحب زوجتيه وسبعا من أولاده وبناته وحفيدين.

(٣) Broadley, The Trial..., vol. III, Ceylon Standard, Sept. 16, 1901.

مما يذكر أن منزل عرابى تحول فى عام ١٩٨١ إلى متحف يقصده السائحون.

أشادت بالضيف ومدحته، وكانت باللغة العربية، ثم ارتجل عرابى خطبته وأثنى على المحتفين به وعظَّم أهل سيلان، ومما يذكر أنه بدأ بالشكر لله ولملك بريطانيا وابنه دوق كورنول ويورك وللخديو لمنحه حريته، وعزفت الموسيقى والتف المحتفون حوله[1]. وعقب الحفل زار أصدقاءه، وعندما استقل القطار قاصدا كولومبو، غصت أرصفة المحطة بالمودعين له[2].

ومثلت الأيام التى قضاها عرابى فى كولومبو منذ وصوله إليها فى ٤ سبتمبر انتظارًا للباخرة الألمانية التى ستقله للسويس نموذجًا للحب والوفاء والإخلاص الذى يكنه السيلانيون لتلك الشخصية، وأقامت المدرسة الحميدية احتفالًا، حيث استقبله جميع أبنائها - ٢٤٠ تلميذًا - والقائمون عليها، وعبروا عن أسفهم لتركه الجزيرة، وتمنوا له مستقبلا سعيدا، وقدموا له تهنئة وداعية تناولت مآثره فى سيلان، مكتوبة على ورق مزخرف بالذهب والنقوش الفيروزية اللون. وبعد قراءتها طُويت فى حرير أخضر ثم وضعت فى أسطوانة من الفضة، وأعقب ذلك عشاء وداع كبير[3]. وزار عرابى منزل وجهاء كولومبو من الذين ربطتهم به صلة وثيقة، وعندما حان وقت الرحيل، اتجه للباخرة، وودعه على ظهرها العديد من المسلمين، وقرءوا عليه كلمة كتبت على قرطاس مذهب الحواشى ذى لون لازوردى، يدعون له فيها بالتوفيق، ويذكرون مناقبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفعل الخير كالحث على إنشاء المدارس وإحياء علوم الدين بها، وبعد قراءتها وضعت فى صندوق من الفضة[4]. وهكذا كان تكريم عرابى ووداعه، ويتبين أنه انفرد بهما دون غيره. وهذا أمر طبيعى حيث تمكَّن من أن يستحوذ على محبة الناس ويجذب الأنظار إليه ويحرص على شخصيته الكاريزمية التى لم تفارقه حتى أثناء نفيه.

* * *

وبوصول عرابى للسويس أبرق إلى قائمقام الخديو طالبا صدور الأمر بنقله مع عائلته للقاهرة على نفقة الحكومة، فأجيب إلى طلبه، وكان يحمل معه ١٤٠ طردًا،

---

(١) Ibid.

(٢) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٧٩.

(٣) Broadley, The Trial..., vol. III, Ceylon Standard, Sept. 16, 1901.

عرابى، المصدر المذكور، ص ص ٦٩٧، ٦٩٨، ٧٠١.

(٤) نفس المصدر، ص ص ٦٩٩، ٧٠٠.

نصفها خاص بالأمتعة، والنصف الآخر عقل أشجار نادرة، وثلاث بقرات ليس لها مثيل في مصر، ونقل ذلك جميعه بصحبته على نفس القطار[١]. وارتكب عرابى خطأ حينما صعد لـه مندوب صحيفة المقطم - ذات الصبغة الإنجليزية - قبل نزوله من الباخرة في السويس، فتحدث معه عن أهالي سيلان وكرمهم له، وكان من المفروض أن يمضى على هذه الوتيرة، لكنه أشاد بإصلاحات بريطانيا فى مصر، ثم أظهر ما يعنى أنها صاحبة فضل عليه، وفى نهاية حديثه دعا للخديو لصدور أمره بالعفو عنه[٢].

وكان هذا التصريح الأداة التى استخدمت ضده، وتعرض بسببه للنقد، ففى حديث لبلنت مع محمد عبده أوضح الأخير أنه كان على عرابى التأكد مما قاله قبل أن يبوح به، لأن ما ذكره سبب له المتاعب[٣]. والواقع أن فترة التسع عشرة سنة غيرت شكل علاقته ببريطانيا، فأصبحت لها السمة التى تختلف عن فترة توليه زعامة الثورة. ومما يذكر أنه عقب وصوله إلى سيلان كتب لصديقه أحمد رفعت - رئيس قلم المطبوعات، وقد أسهم بنصيب وافر فى نجاح رسالة الصحافة أثناء الثورة، وعمل أيضًا فى وظيفة كاتب سر مجلس النظار فى عهد نظارة البارودى - يقول «لا يهمنى شىء سوى تحسين حال الأمة المصرية، وذلك موكول لعدالة الحكومة الإنجليزية، وإنى واثق بأمانتهم كل الوثوق»[٤]. وفى خطاب له إلى برودلى يذكر «إنى مترقب لما تأتى به الحكومة الإنجليزية من الإصلاح فى مصر»[٥]. إذن فالاعتقاد بذلك سيطر عليه، ومن ثم فإن ما أقدمت عليه السياسة البريطانية بهدف خدمة مصلحتها أولًا وأخيرًا، اعتبره لصالح مصر مما قلل من شأنه. والواقع أنه لم يكن عرابى وحده الذى فترت عزيمته، ووهنت

---

(١) محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤٢، ٢٨ سبتمبر ١٩٠١، المقطم، عدد ١٣٨٠٤ فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠١. انظر ملحق رقم ٣.

(٢) المقطم، العدد المذكور، Blunt, My Diaries, Part II, Oct. 26, 1901, p. 428
مما يُسجل أنه واصل التصريح بأنه مدين بالشكر للمسئولين البريطانيين خاصة ولى العهد وكرومر.

(٣) Ibid, Oct., 24, 1901, p. 426.

(٤) Broadley, The Trial..., vol. II.
خطاب من عرابى إلى أحمد رفعت فى ٨ جمادى الآخرة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣م).

(٥) Ibid, vol. III.
خطاب من عرابى لبرودلى فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٥.

قوته، وذُلت نفسه، وانطبعت عليه سمة الخضوع، ويتضح ذلك من الخطابات التى أرسلها المنفيون إلى برودلى.

* * *

وعاد عرابى إلى القاهرة فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠١، ورغم أنه كان هناك تكتم شديد، فإن الناس ودعته فى محطة السويس واستقبلته على محطتى الزقازيق وبنها[١]. أما عن وصوله لمحطة مصر، فيبين كرومر أنه حضر عدد من الجمهور ليشهد قدومه، وحدثت هتافات قليلة وتصفيق، ولكن لم تقم مظاهرة من أى نوع، وجُندت الصحف المعارضة له لكتابة المقالات التى تتهمه بأنه جلب الاحتلال البريطانى لمصر[٢]. ورُصدت على الفور تحركاته، ورفعت لدار المعتمد البريطانى، وقد ساد الاعتقاد بأنه سينزوى جانبًا، ولكن رد فعل وصوله كان بيِّنا وعكس المتوقع، فيسطِّر أحد التقارير «منذ عودته ومنزله لا يخلو من الزوار، وبخاصة الفلاحون، وأغلبهم يمثل الطبقة الوسطى، وأيضًا يحضر إليه بعض الباشوات، وعندما يؤدى الصلاة فى مسجد السيدة زينب، يمتلئ عن آخره، ويحضر آلاف الناس لتحيته، ويقبلون يديه وملابسه. وكان الازدحام حوله شديدًا مما تعذر معه على البوليس حفظ النظام بخلاف استقباله بالمحطة عند وصوله... إنه منذ كان بالمنفى وقبلها وحتى الآن يعتبر نفسه محامى الطبقة الدنيا والطبقة الوسطى والعامل على التحرير من الباشوات الإقطاعيين والأجانب، ويسعده أن يرى نفسه له شخصية أمام الرأى العام، وهذا يجعل الخديو يغار منه، وهذه الغيرة واضحة ضده فى الصحافة الموالية للقصر والمؤيدة لمصطفى كامل وحزبه، وأن علماء الأزهر ينادون بضرورة وقف الزيارات له حتى لا تؤدى لسوء العاقبة كما حدث من قبل»[٣].

وخدم هذا الوضع التخطيط البريطانى، فيذكر التقرير السابق أنه إبان المقابلات

---

(١) عرابى، المصدر المذكور، ص ٦٨٠.

(٢) F.O. 78, op. cit., Cromer-F.O., Cairo, Oct 1st. No. 129.

(٣) Ibid, Rennel Rodd's Report, Oct. 5, 1901, No. 130.

وأيضا يذكر بلنت فى يومياته أن العامة تبعوه، وكان الفقراء يقبلون يده عندما يذهب للصلاة فى المسجد.

Blunt, My Diaries, Part II, Oct. 26, 1901, p. 426.

التى أجراها عرابى فى مدة أربعة أيام عقب وصوله، كان يمتدح معاملة البريطانيين له، وكيف أنهم يحترمون جميع الأديان. وبالتالى بدا نصيرا لهم ضد مناوئيهم، حتى إن التقرير ينتهى إلى «لا يستبعد أن يكون لعرابى بعد أن أصبح صديقًا للإنجليز شأن قد يظهر فيما بعد ضد الخديو وأتباعه من معارضى الصحافة والحزب الوطنى»(١).

* * *

ولم تنجح تلك الخطة إذ سرعان ما انفض الناس من حوله. وكما هو معروف عن طبيعة الشعب المصرى، فإن العاطفة تجد المكانة لديه. فرغم مرور تلك السنوات الطويلة، فإن صورة القائد استمرت فى الخيال، ولهذا كان الاندفاع إليه دون وعى خاصة من العامة. ولكن بعد هبوط تلك الجذوة الوقتية، واشتعال الحملات التى جنَّدها مصطفى كامل للقضاء عليه مستغلا شكل العلاقة التى ربطته بالإنجليز فجعلها سيفا مصلتا على رقبته، جاءت النهاية وأثمرت المجهودات عن القطيعة له، للدرجة التى اعتبر برودلى أن عودته لوطنه كانت خطأ، وقارن بين وجوده فى جنة آدم، وما وصلت إليه حالته فى مصر(٢).

وهذا ما كان يتوقعه بلنت وقت صدور العفو، إذ سجل فى يومياته «جاء العفو متأخرًا جدًا، وسيجد عرابى أن العالم خطا سريعا أثناء غيابه، وأن الحزب الوطنى اتبع خطوطا جديدة لا تتفق معه»(٣). وعاش باقى أيامه يستجدى الخديو وحكومته تارة، والملك البريطانى وحكومته تارة أخرى فى منح حقوقه المدنية ورد أملاكه ورفع معاشه، ولم يستجب لأى من مطالبه(٤). وهكذا خرج عرابى من جنة آدم وهو على يقين أن جنة مصر التى يتوق ليدخلها سوف ينعم بها، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. وبعد اجتياز طريق الخلاص الوعر والتغلب على العقبات التى اعترضته وذلك الثمن الذى دفع غاليًا، لم يكن هناك شىء فى المقابل.

---

(١) F.O. 78, op. cit., Rennell Rodd's Report, Oct. 5, 1901, No. 130.

(٢) Broadley, The Trial..., Vol. III, Bath Herald, Oct. 5, 1911, No. 729.

(٣) Blunt, My Diaries, Part II, May 25, 1901, p. 422.

(٤) محافظ الثورة العرابية،خطاب من عرابى للخديو فى ٢٢ ديسمبر ١٩٠٥، خطاب من عرابى إلى رئيس الوزراء فى ٣١ أكتوبر ١٩٠٧، Broadley, The Trial..., Vol. III, Arabi-King Edward VII

F.O. 371/451, F.O.-Gorst, June 4, 1908, No. 135, Gorst-F.O, Cairo, May 10, 27, 1908, No. 18114, 18223.

الخاتمة

من خلال تتبع هذه السطور، ينجلى أن النهاية المؤلمة للثورة العرابية أطلقت العنان لبريطانيا التى نفذت مخططها للاستيلاء على مصر، وبعد أن تحقق غرضها لعبت بمحاكمة الثوار وفقًا لما تقتضيه مصلحتها. ونُفى عرابى ورفاقه فى إحدى جزر مستعمراتها، ووضح تدخلها قبل رحيلهم فى تسيير الأمور كيفما تشاء داخل مصر، وتهيئة مناخ العزلة على الأرض الجديدة التى سوف يفدون عليها، ولكنها لم تتمكن من تطبيق سياسة الحصار عليهم. فمنذ اللحظة الأولى لوصولهم تجسدت عواطف السيلانيين ـ خاصة المسلمين ـ تجاههم، وهنا لا بد من الإشارة دون تحيز بأن الاهتمام كان منصبًا على عرابى الذى ارتبط هو الآخر بهم، والواقع أنه نال شعبية كبيرة، إذ سبقته إلى جنة آدم وقفته وسيرته وبطولته وتحدياته.

وشدَّد المسئولون البريطانيون الرقابة بأنواعها على المنفيين، فأصبحوا على دراية وبيِّنة بجميع تحركاتهم. واتسم عرابى ورفاقه فى هذه الفترة بصفات لم تكن فيهم قبل النفى، فقد استسلموا للأمر الواقع، ونفذوا ما هو مطلوب منهم، وتملكهم اليأس، فراحوا يسبحون بحمد بريطانيا ويثنون عليها ويشيدون بها منذ إنقاذها لرقابهم، وعقدوا الآمال على أنه بيدها تحسين ظروفهم وخاصة المالية، وتحقيق رغباتهم ونقلهم إلى أماكن تتلاءم مع صحتهم العليلة، كما وجدوا فيها المقدرة على الصفح عنهم وعودتهم إلى وطنهم، ومن هذا المنطلق جرت الاتصالات مع بعض من ظنوا أن بيدهم الحل والعقد فى لندن.

والحقيقة أن الظروف الصعبة التى عاشها المنفيون من إحباط نتيجة فشل ثورتهم، ومناخ أضرَّ بهم وأودى بحياة البعض منهم، وضيق ذات اليد الذى انعكس على

نفسيتهم وأثر فى تصرفاتهم، كل ذلك ولَّد الإنشقاق بينهم وصدع ائتلافهم، لكنهم جميعا اشتركوا فى التطلع لمبارحة المكان، وكادت الأقلام تجف من المظالم التى دونوها وبعثوا بها إلى المسئولين، وبالرغم من التحقق ـ سواء فى القاهرة أو لندن ـ من صحة ما جاء فيها، فإن السياسات لعبت بها عوامل متعددة، فقد رفض كل من توفيق وعباس حلمى الثانى وحكومتيهما تحقيق أى مطلب للمنفيين والأسباب معروفة،والمعتمد البريطانى كان هو الآخر قد أبى بشدة إطلاق سراحهم، وإن تخلل هذا الخط بعض المنحنيات نتيجة لاعتبارات خاصة، والخارجية البريطانية مع سماعها لمطالبهم لم تتخذ موقفا حاسمًا، فبينما تنعطف تجاههم بهدف الاستئثار بهم وكسب صداقتهم ومحاولة منها لتجنب المعارضة فى البرلمان وخارجه خاصة عندما يسقط أحدهم، فإنها تسبح مع تيار الرفض أحيانًا أخرى حينما تتغلب عليها سطوة السيطرة فى عصر طغت فيه إمبرياليتها، ومن ثم فقد سلَّمت الزمام لممثليها فى مصر وسيلان.

وبالرغم من صدور العفو عن اثنين من المنفيين نتيجة المساعى المكثفة، كان الإصرار على استمرار عرابى فى المنفى، مما يؤكد أن الخشية من عودته مثلت حاجزا قويا حال دون التحقيق، ولم يأت له الموت كما حدث مع ثلاثة من رفاقه، وإنما استمر يواصل محاولاته من أجل العودة، وكان مؤمنًا أن مفتاح خلاصه فى لندن، وهذا ما انتهى إليه أمره، فصدر أمر العفو له ولرفيقه على فهمى.

واتُخذت الاحتياطات من أجل ألا تقوم لعرابى قائمة فى مصر، وساعدت الحركة الوطنية القائمة على ذلك، إذ كالت التهم للثورة العرابية، وعدَّتها السبب فى الاحتلال البريطانى لمصر، ووصفتها بالثورة المشئومة. ولم تثمر النتائج الأولى لهذه السياسة حيث كان لا يزال قائد الثورة فى الوجدان المصرى، بالإضافة إلى الإحساس بالرأفة التى غمرت الناس تجاهه لمعاناته وتحمله الغربة وتذوقه العذاب، لكن مع السمة التى التصقت به منذ سفره فى تودده لبريطانيا، وظهرت عليه واضحة عقب عودته، جاء التحول عنه مما أفقده الكثير.

وعلى أية حال فإن سنوات النفى الطويلة قد قامت بدور إيجابى وفعَّال إزاء هؤلاء الرجال الذين سجَّل لهم التاريخ المواقف المشهودة أثناء ثورتهم، والمواقف الضعيفة إبَّان تأديتهم للعقوبة التى فرضت عليهم، ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار وجوب

مراعاة الظروف الصعبة التى مروا بها، وهى من القوة بحيث تمكّنت منهم، وفى الوقت نفسه فإنهم إذا كانوا واجهوها بالتكاتف والتعاون والموقف الموحد ورفض الاستسلام والتمسك بالمبادئ التى قاموا بثورتهم من أجلها، لتغيرت الأوضاع ولأصبحوا فى عداد شهداء الوطنية.

المصادر

أولًا ـ الوثائق غير المنشورة

(أ) العربية

١ ـ المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

* محافظ الثورة العرابية، محفظة ٤١، محفظة ٤٢.

٢ ـ المحفوظة بدار الكتب (قسم المخطوطات).

* رسالة من عبد الله أفندى نديم إلى صديقه أحمد عرابى باشا فى سيلان، وهى تضم مجموعة من الخطابات ضمن كتاب أصدره محمد أحمد خلف الله تحت عنوان «عبد الله النديم ومذكراته السياسية» ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦.

(ب) الأجنبية

١ ـ المحفوظة بدار المحفوظات العامة بإنجلترا.

Public Record Office, Kew, Surrey, England.

I. F.O. 78, Turkey (Egypt) Egyptian Exiles in Ceylon, Arabi and Companions: - Vol. 4267 (1882-1883), Vol. 4268 (1884-1889), Vol. 4589 (1890-1894), Vol. 5176 (1895-1901).

II. F.O. 78, Turkey (Egypt), Vol. 3589, Domestic Various (Jan, Feb. 1883), Vol. 4966, Diplomatic Various (July - Oct. 1898).

III. F.O 371, Egypt 1908, Vol. 451.

٢ ـ المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

* الأرشيف النمساوى، محفظة ١٤، محفظة ١٥ (مترجمة للعربية).

* مجموعة برودلى

Broadley, The Trial, Exile and Pardon of Arabi Pacha (1882-1902), Vols. I, II, III.

وضمت كتابه الذى حمل عنوان: How We Defended Arabi And His Friends

ثانيًا ـ الوثائق المنشورة

خطابات منشورة بالكتب الآتية:

- Blunt, W.S. Secrete History of the English Occupation of Egypt, London, 1907.
  Gordon At Khartoum, London, 1911.
- Chaillé _ Long _ Bey, Les trios prohètes: Le Mahdi _ Gordon, Arabi, Paris, 1886.
- Ninet, J., Arabi Pacha, Paris, 1884.

ثالثًا: المذكرات الشخصية

(أ) المخطوطة (العربية)

* عرابى، أحمد، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية عام ١٢٩٨، ١٢٩٩ هـ الموافق ١٨٨١، ١٨٨٢ م، الجزء الثانى (محفوظة بدار الكتب).

(ب) المنشورة (الأجنبية)

- Blunt, W.S., My Diaries (1888-1914), First Published in two volumes 1919, 1920.

رابعًا ـ الدوريات

(أ) العربية: الأهرام، ١٩٢٣، المقطم، ١٩٠١.

(ب) الأجنبية:

- Bath Herald, 1911, Budport News, 1911, Ceylon Standard, 1901, The Daily Graphic, 1901, The Graphic, 1910, The Out Look, 1911, Pall Mall Gazette, 1892, The Times of Ceylon, 1887.

الملاحـق

الملحق الأول: تقرير أحمد عرابى.

الملحق الثانى: رسائل عبد الله النديم إلى صديقه أحمد عرابى باشا فى سيلان.

الملحق الثالث: صحيفة المقطم، عدد ١٣٨٠٤ فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠١ (المراسلات):

- مراسلة وكيلها بشأن حديثة مع عرابى عند وصوله للسويس.
- مراسلة مكاتبها فى دمنهور تتعلق بدفاعه عن عرابى.

الملحق الرابع: خريطة سيلان.

الملحق الأول

تقرير أحمد عرابى

أحمد عرابى المصرى: هذا تقريرى[1] عن الحوادث التى حصلت فى مصر من تاريخ يناير ١٨٨١ لغاية شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ مقدم من طرفى إلى وكيلى الشرعى مستر برودلى ليدافع به عنى أمام المحاكم المصرية.

---

(١) هناك نسختان شبه متقاربتين لهذا التقرير، الأولى تحمل عنوان «تقرير أحمد عرابى باشا المصرى المقدَّم إلى المحاميين برودلى ونابيير فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢» وهو محفوظ بمكتبة محافظة الإسكندرية (البلدية سابقًا). أما النسخة الأخرى «مذكرة أحمد عرابى باشا إلى المحامين الثلاثة الإنجليز وهو بالسجن رهن المحاكمة» فهى مرفقة بكتاب تحت عنوان «مذكرات محمود باشا فهمى وزير أشغال الثورة العرابية المنفى والمتوفى بسيلان» والذى نشرها ـ الشناوى ـ أحد الناشرين، ولم يسجل عليها تاريخ النشر، والنسخة التى بين أيدينا كاملة ودون أى اختصارات.

وينقسم التقرير إلى قسمين: الأول يضم بابين اختص بواقعة قصر النيل وما تلاها من أحداث حتى ليلة ما قبل ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية. ويتعلق القسم الثانى بالحرب مع الإنجليز وهزيمة العرابيين وتقديمهم للمحاكمة.

ومن الواضح أن التقرير يصوّر الحالة التى كان عليها عرابى، فهو مسجون بين أربعة جدران، فُرضت عليه أقصى وأقسى أنواع المعاملة، تمثَّل أمام عينيه عقوبة الإعدام، ورأى أن الأمل الوحيد فى التخفيف عنه تمتلكه بريطانيا التى تحقق لها ما أرادت واحتلت مصر، وبالتالى وجد أنها المنقذة له من حبل المشنقة. ومن هذا المنطلق، فقد أشاد بها، وحتى يرضيها عرَّج على الأجانب وجاملهم، وبذلك حاد عما كان يردِّده أثناء الثورة وقبل الهزيمة. ومما لا شك فيه أن ذلك كان بتوجيه من ممثلى الدفاع، هذا فى الوقت الذى هاجم فيه الخديو وأتباعه كما سيتبين من التقرير.

القسم الأول

الباب الأول: فيما يتعلق بالحوادث التى حصلت قبل الحرب

إن الجيش المصرى كان مركبًا من اثنى عشر آلايا بيادة فى سنة ١٨٨٠، وأريد تقليله إلى ستة آلايات فقط فى سنة ١٨٨١ ميلادية فى مدة نظارة عثمان باشا رفقى(١). وكانت العادة بمصر الميل إلى التعصب الجنسى، فكانت جميع الترقيات والنياشين والمكافآت للجنس الچركسى لكونهم من مماليك العائلة الخديوية ومماليك الذوات الذين هم مماليك العائلة الخديوية أيضًا، وبعد هذه الطائفة الأتراك وغيرهم الذين هم ليسوا بمصريين والمولدين(٢). وبعد ذلك جنس المصريين لا يصير تقدمهم ولا استخدامهم إلا للضرورة لعدم وجود غيرهم، ولذلك لحد هذا التاريخ ما كان يوجد بالعسكرية مرتبة باشا أى (چنرال)(٣) من أبناء البلاد المصرية مع لياقتهم واستعدادهم الذى لا ينكر، فشرع ناظر الجهادية فى ترتيب اللازم من الچركس ثم الأتراك وغيرهم من المولدين وما زاد عن ذلك حين اللزوم يكون من المصريين، فأثر ذلك فى قلوب الضباط المصريين، فاجتمعوا فى منزلى وكنت فى وليمة عند أحد الحجاج، فأرسلوا إلىّ فوجدتهم فى غضب شديد، فهونت عليهم الأمر بأن يتقدم عرضحال إلى رئيس النظار رياض باشا(٤) بطلب المساواة بين المستخدمين،وترك التعصب الجنسى،

---

(١) من أصل چركسى، ولد عام ١٨٣٩ وتوفى عام ١٨٨٦، تلقى تعليمه العسكرى فى مصر، واشترك فى حملتى كريت والحبشة (إثيوبيا).

(٢) من أصول غير مصرية، لكنهم ولدوا فى مصر.

(٣) Lieutenant General هى رتبة فريق، Major General هى رتبة لواء. ومن يحصل على الرتبة الأخيرة يُمنح لقب باشا.

(٤) هو مصطفى رياض، ولد عام ١٨٣٤ وتوفى عام ١٩١١، وشغل وظائف إدارية وعسكرية، وعمل ناظرًا لعدد من النظارات، وتولى رئاسة النظارة ثلاث مرات، وكان له الموقف المضاد من حركة الضباط.

وسن قوانين عادلة تكفل لكل إنسان حقه، وتوجيه مسند نظارة الجهادية إلى رجل وطنى حسب قوانين الدول العادلة، وأن يكون العرض مختوما عليه من اثنين أو ثلاثة فقط تنيبونهم عنكم. فاستقر رأيهم على ذلك، وأنابوا عنهم الميرالايات[١] الثلاثة المصريين وهم أنا أحمد عرابى[٢] وعلى فهمى[٣] الميرالاى وعبد العال حلمى[٤] الميرالاى.

وبناء على ذلك تقدم العرض بما ذكر إلى رئيس النظار، وما ذلك إلا لحصول الألفة والمحبة وصفاء القلوب بين جميع المستخدمين بل بين جميع ساكنى مصر، وإزالة ما فى قلوبهم من العداوة المتولدة عن عدم المساواة والميل إلى التعصب المضر بمصالح العموم، فانبنى على ذلك عقد مجلس من النظار والاختيارية[٥] من الچركس تحت رئاسة الحضرة الخديوية، وانتهى بصدور أمر خديوى بالتحقيق على حسب العادة المصرية، ولكن مقتضى الأمر يشعر كل مطلع عليه بأن يصير مجازاتنا بالإعدام بطريقة مصرية أى غير ظاهرة إذ إن عباراته لم يسبق لها نظير فى حق من يتظلم من مظلمة إلى رؤساء الحكومة، وكان ذلك فى ٣٠ يناير سنة ١٨٨١ ميلادية.

وفى يوم ٣١ منه تحرر لنا إفادات من ناظر الجهادية بتوجهنا إلى الديوان بقصر النيل فى صباح يوم غرة فبراير لأجل زفاف شقيقة الحضرة الخديوية، وفى الميعاد المحدد توجهنا إلى الديوان فوجدناهم اجتمعوا فيه: جميع الباشاوات وأمراء الآلايات المستخدمين والمتقاعدين، وفى الحال تلى علينا أمر الخديو بهذا الجمع، وصار

---

(١) المفرد ميرالاى أى أميرلاى، وهى رتبة عسكرية (عميد حاليًا).

(٢) هو أحد أبناء شيوخ قرية هرية رزنة بالشرقية، ولد عام ١٨٤١ وتوفى عام ١٩١١، تلقى تعليمًا دينيًا، ثم انخرط فى العمل تحت لواء العسكرية دون أن يلتحق بمدارسها، وترقى سريعًا من تحت السلاح أثناء حكم سعيد، وتوقفت ترقيته على يد إسماعيل، وكانت له الشخصية القوية، وسرعان ما تولى قيادة الثائرين على الأوضاع.

(٣) من الضباط المصريين الذين ترقوا من تحت السلاح، وتمكّن من الوصول إلى مكانة عالية، فأصبح ياورا لتوفيق وقائدًا للحرس الخديوى.

(٤) لم ينل حظه من التعليم، والتحق بالجيش، وترقى حتى رتبة قائمقام (عقيد حاليًا) من تحت السلاح، وكان اليد اليمنى لعرابى، واحتل الموقع على خريطة الثورة العرابية، وتولى المسئولية فى دمياط.

(٥) المختارون من المقربين.

إعلامنا بأنا مرفوتون من محل خدمتنا وبتعيين بدلنا فى المجلس أمراء للآلايات التى كنا بها، وجردونا من سيوفنا وأخذونا إلى السجن. وفى حالة مرورنا كان فيه ضباط من أصاغر الچركس شاهرين الطبنجات علينا حتى دخلنا أوضة السجن، ومن بعد قفل الباب سمعنا خسرو باشا يضحك ويقول بلسان التركى (زنمبلى هرفلر) كلمة استهزاء معناها (فلاحين شغالة بالمقاطف)، ثم صدر أمر ناظر الجهادية قبل ذلك إلى قائمقام بك أورطة مستحفظية مصر إبراهيم بك فوزى بتقوية عساكر القرة قولات[1]، ومنع العساكر التى تريد الدخول إلى مصر، وباستحضار باقى عساكر الأورطة تحت الطلب، وبأنه يلقى القبض على جميع القائممقامات والبكباشية والصاغات[2] الذين من أبناء العرب المستخدمين والمستودعين منهم، ويرسلوا كل من قبض عليه إلى الحبس بالقلعة، وعند انتهاء القبض عليهم يرقيه إلى رتبة ميرالاى، ثم إنه أرسل أمر إلى مصلحة وابورات الميرى باستحضار وابور وحضوره إلى قصر النيل وما ذاك إلا لحملنا فيه، وقيل إنه كان به ثلاثة صناديق من صاج بها ثقوب بقصد وضعنا فيها ورمينا فى البحر حسب عادة الحكومة فى مدة الخديو السابق.

ولما تم الأمر على ذلك قامت عساكر اجى بيادة إلى قصر النيل وأخرجتنا من السجن[3]، وفى الوقت نفسه وقفتُ على المحل المرتفع الذى أمام الديوان، وصحت على العساكر بصوت عال أن يلزموا الأدب وألا يمد أحد منهم يده بسوء إلى أحد الچركس أو غيرهم، فإنهم إخواننا وألا يقع منهم ما يخل بواجبات الإنسانية، ولولا وقوفى هذا لجبرهم الغضب على التهور. ثم صرفت العساكر إلى محلهم وتوجهت معهم إلى قشلاق[4] عابدين، وتحرر منى بمعنى ما سبق إيضاحه إلى حضرات قناصل چنرالية[5] دولتى إنجلترا وفرنسا وباقى وكلاء دول أوربا نستغيث بهم، ونطلب منهم النظر فى أمرنا بوجه الحق والعدل، وأن جميع الأورباويين فى ذمتنا، وأرسلت تلك

---

(١) أقسام البوليس.

(٢) قائمقام (عقيد حاليًا)، بكباشى (مقدم حاليًا)، صاغ (رائد حاليًا).

(٣) هذه الحادثة معروفة باسم «واقعة قصر النيل ـ أول فبراير ١٨٨١» ويؤرخ لها على اعتبار أنها قد بدأت بها أولى خطوات الثورة العرابية.

(٤) ترجع إلى الكلمة التركية قيش أى الشتاء، وأُطلقت على المعسكر الشتوى أولًا، ثم ارتبطت بثكنة الجنود.

(٥) القنصل الچنرال بمعنى القنصل العام، وهو يمثل الهيئة الدبلوماسية لبلاده ويعاونه القناصل.

المكاتبة إلى وكيل فرنسا حضرة البارون دى رنج[١] وترجيناه فيها إبلاغ ما فيها إلى باقى وكلاء الدول،كما وأن ورقة العزومة التى حضرت لى بختم ناظر الجهادية لزفاف شقيقة الخديو بطريق التحايل، تسلمت أيضًا إلى قنصلاتو فرنسا.

وفى أثناء ذلك اجتمعت الذوات بطرف الخديو بعابدين، وأجمعوا أمرهم على حضور جميع الآلايات والطوبجية، ويكلفوا عساكر برنجى آلاى بأن يلقوا السلاح ويسلموا لهم، فإن أبوا تضرب عليهم المدافع، وفى ذلك ما لا يخفى من حصول فتنة عظيمة داخلية لولا أن آلاى السودان حضر من طرة حين بلغه ما حصل لنا من الإهانة والسجن ذاك الذى أوقف عزمهم عن التشبث فى استعمال القوة، وقد أدركنا حضرة وكيل إنجلترا السياسى المستر إدوارد مالت[٢] ووكيل فرنسا السياسى حضرة البارون دى رنج، وتوسطا فى إصلاح الأمر، وصدر من الخديو عفو عام.

وأعطيت لنا أوامر خديوية بإبقاء كل واحد فى وظيفته وفى آلايه كما كان، وصدرت أوامر للآلايات بإبطال طريقة التعصب الجنسى، وأن الجميع يكونون إخوة على حسب طلبنا، وترتب محمود باشا سامى[٣] ناظرا للجهادية بدل عثمان باشا رفقى اتباعا فى ذلك للقوانين العادلة. وفى يوم اثنين من فبراير طلب جناب الخديو ضباط برنجى بيادة وتحالف معهم على حفظه، وأنه قد عفى عنهم حقيقة. ولما تحقق لى ذلك توجهت إليه واستأذنت، فأذن لى فتمثلت بين يدى جنابه الرفيع والتمست منه أن يدخلنى ضمن هذا اليمين، فقبل منى ذلك، فحلفت صادقا إنى أحافظ عليه كما أحافظ على نفسى، وانصرفت داعيا بتشييد ملكه على قواعد العدل والمساواة.

وفى يوم الجمعة الموافق ٤ فبراير سنة ١٨٨١ أمرنى أنا وأخى على بك فهمى برنجى ميرالاى بأن أتوجه إلى كل من قنصل چنرال إنجلترا وفرنسا ونبلغهما بأننا

---

(١) ربطت الصلة بين العرابيين وقنصل فرنسا العام دى رنج De Ring، واعتمدوا عليه فى شرح مطالبهم الخاصة بالعدالة، والخلاص من سلطة الچراكسة الاستبدادية، وقد شجعهم القنصل على ذلك، وكانت له دوافعه، وفى مقدمتها الوقوف أمام المصالح الإنجليزية فى مصر مقابل توطيد النفوذ الفرنسى بها.

(٢) انزعج قنصل إنجلترا العام Malet مما حدث عن طريق القوة العسكرية، وخشى من إقالة النظارة والمراقبة الثنائية، وتحكم الجيش فى شئون مصر.

(٣) هو المعروف بالبارودى، ورغم أصوله الچركسية، فإنه انحاز للمصريين، وكان صاحب مبادئ حرة، وله الدور الفعَّال فى أحداث الثورة العرابية. وعلى جانب آخر فهو الشاعر الموهوب.

متكفلون وضامنون الراحة العمومية والمحافظة على الأورباويين وعلى أموالهم، فتوجهت مع أخى المذكور لزيارة حضرات القناصل الجنرالية، وبلغناهما ما أمرنا به من أن هذا البلاغ هو حقيقة أفكارنا، وعليه نبنى جميع أعمالنا.

ولحد هنا انتهت مسألة غرة فبراير سنة ١٨٨١.

الباب الثانى: فى الحوادث التى أعقبت ذلك

كنا نظن أن ذلك العفو هو حقيقى، وأن تلك الأوامر التى مقتضاها الألفة والمحبّة والتباعد عن التعصب الجنسى صادرة عن خلوص نية، وإذا ببذر الشقاق والعداوة يبذر فى أرض القلوب الخالية من الشرف، ذلك بأن يوسف كمال باشا الچركسى وكيل دائرة الخديو أمكنه بواسطة واحد باتجاويش چركسى من آلاى السودان بأن يستحضر باتجاوشية السودان المتزوجين من دائرة الخديو، وصرف لهم نقودا وأغراهم بأن يحملوا العساكر على مخالفة الضباط وعدم سماع أوامرهم، ووعدهم بأنهم سيترقون ضباطا وهذه التنبيهات عن أوامر الخديو. ولما تحقق ذلك بالجرنال[1] صار رفت الباشا المذكور من الدايرة ظاهرا، ولكنه جارى إشغالها خفية.

ولما لم تنجح هذه المكيدة قام بعده ببث الفتن والدسائس إبراهيم أغا الخاص بخدمة الخديو، ذلك بأنه أمر فرج بك الزينى السودانى من مستودعية الجهادية بأن يغرى باتجاوشية السودان على قتل ضباطهم، كإقرار المذكورين واعترافهم بذلك عند التحقيق، ووجد معه ورقة مختومة بختم إبراهيم أغا المذكور ومذكور بها أنها بناء عن أمر الخديو، وتلك الورقة اطلع عليها محمود باشا سامى وقتها، وحكم مجلس العسكرية على فرج بك المذكور بعزله وتنزيله إلى رتبة بكباشه، وإرساله إلى مصوع فصدر أمر الخديو بإرساله بشرفه ورتبته إلى مصوع مستودعا ذلك بأنه لم يفعل شيئا من نفسه بل مأمورا بما حصل منه. ثم بعد ذلك صدر من الخديو أمر بإرسال فرج بك المذكور من مصوع إلى الخرطوم واستخدامه بها لكونها بلده وله فيها أملاك وذلك من غير اطلاع النظار على هذا الأمر، ثم إنه صار إرسال زوجة البك المذكور إلى الخرطوم على طريق سواكن بمصاريف على طرف الدايرة الخديوية بغير تراخيص من الحكومة كما الجارى فى مثل ذلك.

---

(١) المقصود هنا صحيفة التحقيق.

ولما لم ينجح الفساد بواسطة الباتجاوشية وفرج بك السودانى توجهت الأفكار إلى التمكن من الفساد بواسطة اليوزباشى[1] سليم صائب واليوزباشى على لبيب كلاهما من آلاى السودان المذكور الذى تحت إمرة عبد العال بك حلمى وقتها لكون سليم صائب المذكور متزوجا من دائرة الخديو، وصرفت لهما النقود الكافية بواسطة إبراهيم أغا المذكور، وهما صارا يجتهدان فى وقوع الفشل والمفاسد فى الآلاى المذكور وإلى أن تكامل عدد من اتبعهم تسعة عشر ضابطًا، وتحققت دسائسهم ومفاسدهم بمجلس عسكرى خصوصى مختلط من أورباويين وغيرهم تحت رياسة وكيل الجهادية حسن باشا أفلاطون.

ولما تبين أن مصدر ذلك جميعه من الحضرة الخديوية، توقعت عليهم أحكام خفيفة جدا بالسجن من ١٥ يوما إلى شهرين من غير نقص شىء من مرتباتهم، وإرسال البعض منهم ليستخدم فى السودان برتبه وشرفه وبدل النقصان هناك. كل هذا التخفيف مراعاة لخاطر الخديو ومع ذلك لم تنفذ تلك الأحكام، قولًا بأن الخديو عفى عنهم (ذلك بأنهم مأمورون من طرفه) بواسطة إبراهيم أغا خادمه الخصوصى. كل ذلك واضح بجرنال التحقيق، ومثل تلك المفاسد جرى منها فى اجى آلاى وفى ٤ جى آلاى الذى كان بعهدتنا، ولكن كنا نزيلها أولا بأول لعدم كثرة الإشاعات حرصا على مقام الحضرة الخديوية لكونى كنت أول مناضل عنه آمل إصلاحه وإزالة ما فى نفسه.

ولما طال الأمر ولم يتمكنوا من البطش بنا لواسطة عدم موافقة ناظر الجهادية محمود سامى باشا لتلك الأفكار، أمر الخديو محمود سامى باشا بأن يقدم استعفاءه حسب العادة المصرية[2]، فاستعفى وتعين بدله داود باشا يكن صهر الحضرة الخديوية، رجل تربى فى بيت أبيه لا يعرف الحكومة ولا الإدارة ولا الجهادية، فأصدر أوامره بعدم توجه أحد الضباط إلى منزله، وعدم اجتماع الضباط مع بعضها، وكل من وجد مع آخر فى الطريق يجرى ضبطه بمعرفة الضبطية وعساكر المستحفظين أمر لا يوافق الشرع ولا القانون حتى أداه الاستعجال فى حب الانتقام إلى أن صار يتوجه ليلا فى مراكز الآلايات ليتمم على ضباطها.

---

(١) حاليًا نقيب.

(٢) عندما تعارضت السياسة التى اتخذها البارودى لصالح العسكريين مع توجه رياض رئيس النظار، وعدم إطاعة أوامره، التقى بالخديو، واتفقا على إسقاط ناظر الجهادية لوضع حد لنشاطات عرابى وأقرانه، وخاصة المتعلقة بالدستور.

وصار وضع رجال على بيتى وبيت عبد العال بك حلمى ليلا بقصد القبض علينا غدرا والفتك بنا ظلما، ولكن عبد العال بك كان فى آلايه وأنا كنت توجهت ليلتها إلى العباسية فى مركز الآلاى، فخشية أن يتبعنى أحد من الفتاكين دخلت فى بيت أحد أصحابى لزيارته بعد مضى ساعتين من الليل حضرة خليل بك البنان بشارع الفجالة، ولأجل ألا يدركنى أحد بالطريق. فبعد مضى عشرة دقائق مر بالطريق اثنان خيالة بحركة الهجوم وما زالا كذلك حتى وصلا محل الآلاى بالعباسية، فأوقفهما عساكر الدورية وسألوهما عن الطريق الموصلة إلى القبة (بلدة بجوار العباسية) ولا شك أن قصدهما إدراكى وأخذى غدرا، وكان ذلك ليلة ٦ سبتمبر سنة ١٨٨١، وكان معى أحد الضباط اسمه عبد الكريم أفندى حتى إنى ركبت فى عربيته لأجل ألا يعرفنى أحد.

وبالأسباب التى توضحت سُلبت الأمنية، وصار كل إنسان خائف على نفسه يترقب ماذا يصنع به ولما أحس نبهاء الأهالى الذين هم آباؤنا وإخواننا ورؤساء عشائرهم، حضروا إلى مصر ورأوا أنه لا حاسم لسلب الأمنية إلا افتتاح مجلس نواب للأمة المصرية، يضمن لها أرواحها وأموالها وأعراضها، وسن قوانين عادلة يعتمد عليها فى حفظ الحقوق تضاهى قوانين المجالس المختلطة[١]، وحدود تامة للحاكم والمحكوم ليقف كل عند حده ولا يتعداه، مع تغيير هذه النظارة[٢] التى فى مدتها سلبت الأمنية وكثر الخوف.وكتب بذلك عرائض منهم سلمت بأياديهم عند سقوط النظارة إلى دولتلو شريف باشا[٣] عند جعله رئيسا للنظار على يد أبى سلطان[٤]

---

(١) افُتتحت المحاكم المختلطة فى ٢٨ يونيو ١٨٧٥ بعد مجهودات مضنية لوضع حد لفوضى القضاء القنصلى الذى استغل الامتيازات الأجنبية أسوأ استغلال. واختصت تلك المحاكم بالنظر فى القضايا المدنية والتجارية وكافة الدعاوى بين الأهالى والأجانب، وبين الأخيرين فى حالة اختلاف جنسياتهم ما عدا الأحوال الشخصية، وكان لها الاختصاص فى مواد جنائية محددة.واعتمدت مجموعاتها القانونية على القانون الفرنسى وبعض القوانين الإيطالية والبلچيكية، وبذلك فإنها أدخلت مصر فى دائرة التشريع الأوربى.

(٢) هى نظارة رياض الأولى (٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ـ ١٠ سبتمبر ١٨٨١).

(٣) هو من الأتراك الدستوريين المستنيرين، له مواقفه الإيجابية، وموقعه فى الحزب الوطنى، وطموحاته للوصول إلى السلطة. وعن طريق محمد سلطان تمت الصلة بينه وبين العسكريين الثائرين الذين اختاروه ليحل مكان رياض بعد وقفة ٩ سبتمبر ١٨٨١.

(٤) هو محمد سلطان من أصول بدوية، وينتمى إلى طبقة كبار ملاك الأراضى، اهتم بالسياسة عن طريق عضويته فى الحزب الوطنى، وكانت له الأطماع الذاتية والمآرب الشخصية والتطلع للمكانة المرموقة، وقد شغل مناصب مهمة، ولُقب بملك الصعيد.

باشا بالنيابة عن نبهاء الأمة المصرية ورؤسائها، ولكون العسكرية والأهالى بعضهم من بعض ومعاملتهم فى الخير والشر واحدة فُوِّض هذا الطلب للعسكرية، ولكون أن جميع الآلايات استنابت ضباطنا وضباطها لوثوقهم بى واعتمادهم على أمانتى، فوضا إلىّ تلك الطلبات.

وعند شدة التهورات الواقعة من ناظر الجهادية داود باشا، وزيادة الخوف، كُتب من طرفى إلى ناظر الجهادية فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ بأن جميع العساكر ستحضر إلى ميدان عابدين لعرض طلباتها وطلبات أهاليها على الحضرة الخديوية الساعة ٩ عربى من يوم الجمعة. وفى الميعاد المذكور أتت العساكر من محلاتها إلى ميدان عابدين[١] بغاية الأدب والاحتشام، وقبل ذلك تحرر من طرفى إلى كافة قناصل الدول الأوربـاوية بمـا سـيصير إجـراه مع الهدوء والسكون فى الوقت المعين، وإنه لا خوف على رعاياهم ولا على أموالهم،وإنه سيطلب فقط من الخديو ما يجعل البلاد حرة حافظة لحقوقها. ثم عرضنا تلك الطلبات على الحضرة الخديوية بواسطة مستر كوكسن قنصل دولة إنجلترا بالإسكندرية[٢]، حيث كان موجودا وقتها. فقبل الخديو تلك الطلبات[٣] جميعها التى هى مقررة بأول ديكرتو[٤] صدر من جنابه الكريم فى أول ولايته، وأن تلك الطلبات هى من أقصى آماله لكونها شرعية جميعها. وصدر أمره الكريم بتوجيه النظارة ورياستها إلى دولتلو شريف باشا وانصرفت العساكر داعين له بطول العمر والجميع متشكرون له على إحياء البلاد وتحريرها من ضيق ربقة الاستعباد المصرى.

ولما حصل من شريف باشا التأخير عن قبول الرئاسة، تقدم له من عمد الأهالى الذين كانوا موجودين خلف أظهرنا فى ميدان عابدين عرائض يلحون عليه فيها بقبول الرئاسة عليها نحو الأربعة آلاف ختم، فرحا بخلاصهم من تلك النظارة التى من جملة ما أصابهم فى مدتها من الضرر حرمانهم من فوائد سبعة عشر مليون ليرة

---

(١) عُرف هذا الحدث بوقفة عابدين.

(٢) كان كوكسن Cookson نائبًا عن القنصل العام أثناء إجازته.

(٣) تمثَّلت المطالب فى إسقاط نظارة رياض، وتشكل مجلس نواب على النسق الأوربى، وزيادة عدد الجيش وفقا للفرمان العثمانى. ومما يذكر أن الخديو لم يكن راضيًا عنها.

(٤) مرسوم خديوى.

قيمة المقابلة[1] التى كانت تحصلت منهم فى مدة الخديو السابق لأجل سداد الديون الأجنبية التى كانت على الحكومة، بل حرمانهم من أصل المبلغ المذكور برمته، مع أنه كان الواجب اعتبار هذا المبلغ دينا على الحكومة أسوة بباقى ديون الأورباويين. ومن جملة أعمالها رفت الوطنيين من الخدمات الميرية مع استعدادهم وقلة مرتباتهم، واستخدام كثير من الأوروباويين بمرتبات زائدة مع أن أعمالهم لا يمكن إجراها إلا بواسطة الأصاغر من الوطنيين، ولذلك صارت جميع الوظائف المهمة بيد الأورباويين من غير نظر لأعمالهم خلافا للقاعدة العادلة المرغوبة فى كل حكومة عادلة.

ثم تشكلت النظارة وترتب محمود باشا سامى ناظرًا للجهادية. وبناء على تلك الحوادث حضر وفد من طرف الحضرة السلطانية تحت رياسة دولتلو على باشا نظامى[2]، فقبل وصوله بيومين جرى إرسال آلاينا إلى التل الكبير، وإرسال آلاى عبد العال بك إلى دمياط لأجل عدم تمكن الوفد من مقابلتنا ووقوفه على حقيقة ما كان جاريا. ولما أراد الباشا المشار إليه إجراء التحقيق، فلم يرغب الخديو ذلك اعتمادا على أن تلك الطلبات كانت من أفكاره، وأنه عفا عن كل ما حصل، وأن الجند فى غاية الطاعة والانقياد، وانصرف الوفد على ذلك. ثم جرى تشكيل مجلس النواب وافتتاحه بعد تنظيم قانونه، وسنت قوانين عادلة للعسكرية. ولاختلاف وقع بين مجلس النواب ومجلس النظار بعد مضى عدة شهور[3]، استعفى شريف باشا رئيس النظار، وانحلت نظارته.

---

(١) صدرت لائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس ١٨٧٦ أثناء حكم الخديو إسماعيل، واختصت بالأراضى الزراعية، إذ خُفِّضت الضرائب إلى النصف مقابل الدفع مقدما ست سنوات،وأعطت حق الملكية لأطيان الأواسى والأراضى العشورية.

(٢) هى البعثة العثمانية الأولى، حضرت إلى مصر للتعرف على أحوالها بعد وقفة عابدين من حيث قوة العسكريين، وشخصية الخديو، ومكانة السلطان فى مصر، وهل حركة الضباط انتهت بتولية شريف النظارة وتحقيق المطالب؟ وهل الحركة مقتصرة على مصر أم أن لها صلات بالخارج؟ وقد ضمت عددًا من الشخصيات المهمة.

(٣) كان أهم سبب فى الخلاف اللائحة الأساسية لمجلس النواب التى أعطته حق نظر الميزانية، وتشريع القوانين، والتوسع فى مبدأ مساءلة النظارة أمامه.

وإذ ذاك فوضت الحضرة الخديوية انتخاب[1] النظار إلى مجلس النواب، فبمعرفة مجلس النواب وتصديق الخديو صار ترتيب محمود سامى باشا رئيسا[2] للنظار والداخلية ومصطفى باشا فهمى ناظرا للخارجية والحقانية وعلى باشا صادق ناظرا للمالية ومحمود باشا فهمى[3] ناظرا للأشغال وعبد الله باشا فكرى ناظرا للمعارف وحسن باشا الشريعى ناظرا للأوقاف. وحيث كان فى غضون ذلك كنت وكيلا للجهادية جرى انتخابى وترتيبى ناظرا للجهادية الأمر الذى ما كنت أتمناه أبدًا[4]، ولكن لاجتماع واتحاد جميع أفكار العسكرية وأعضاء مجلس النواب على ترتيبى بهذه النظارة إذ بوجودى فيها لا يتصور حصول أدنى خطر على أحد من العسكرية أو من الأهالى وتطمئن القلوب والخواطر. قبلت تلك الوظيفة المهمة مع معرفتى بما أنا محفوف به من مصاعب فى توقيف وتنظيم تيار أفكار العموم المنبعث بقوة سريعة من عيون قلوب مختلفة متعددة، كل يرى سرعة الوصول إلى الغاية الوحيدة التى هى حرية البلاد وحياتها، ولا يبالى بما يطرأ من المصاعب التى ربما تمنع الوصول إلى تلك الغاية المقصودة. كل هذا وأنا أجهد نفسى فى سبيل التقدم مع الراحة والتؤدة حرصا على طلب النجاح مع حفظ الأرواح والأعراض والأموال حتى بذلك نكون أدينا واجباتنا الوطنية ولم يلحق تاريخنا المصرى ما يسود وجهه أمام العالم المتمدن.

وبعد ترتيب هذه النظارة استقامت الأحوال وترتيب الأمور، وخلص كثير من القضايا المهمة المتراكمة فى مجلس النظار، وتنظمت أحوال الجهادية وصار ترقية للمستحقين للترقى بدل النقصان. وبعد ذلك أحسنت الحضرة الخديوية علىّ برتبة باشا وسلمتنى فرمانها السلطانى، مع إظهار الرضا علىّ، كما وجهت قبل ذلك إلى كل من إخوانى على فهمى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت ويعقوب سامى وحسن مظهر رتبة باشا أى جنرال مع إظهار غاية المسرة والممنونية، ونحن الجميع داعون له بدوام توفيقه لنجاح البلاد.

---

(١) اختيار.

(٢) تاريخ النظارة (٤ فبراير ١٨٨٢ ـ ١٧ يونيو ١٨٨٢) وهو التاريخ المسجل فى الأمر الخديوى الصادر لمحمود سامى البارودى، ولكن الواقع أن الأخير قدم استقالة نظارته فى ٢٦ مايو ١٨٨٢.

(٣) هو ضابط مهندس، ولد عام ١٨٣٩، وتوفى عام ١٨٩٤، واشترك فى حرب الصرب (١٨٧٦/ ١٨٧٧) وبنى ١٧ قلعة على ساحل البحر المتوسط، وله الدور المعروف مع بوادر قيام الحرب مع الإنجليز.

(٤) لقد جانب عرابى الواقع فى هذا القول.

وكنا نظن أننا خلصنا من تلك العراقيل والمصاعب التى كنا نعانيها، ووصلنا إلى أرض النجاح الواسعة، ولم يبق إلا سن القوانين العادلة وتحسين حال الدواوين والمحاكم، وأنه لم يبق حقد فى القلوب، وإذا بداعى الخيانة ينادى علينا أين المفر؟ ذلك بأن أحد المماليك الخديوية الذين بمدرسة ألقبة اتفق مع غلام معه فى المدرسة من أولاد الچراكسة فى وصاية عبد العال باشا حلمى على مشترى مقدار من الزرنيخ لأجل تسميم عبد العال باشا، وبالفعل أجروا ذلك بطريقة أن الغلام الذى تحت وصيته واسمه محمد خورشيد وضع السم فى اللبن المعتاد للباشا المشار إليه على شربه ليلًا، ولولا الخادمة ضبطت اللبن والغلام لكان هلك الباشا بعد مضى قليل من الساعات. وأوراق تلك القضية موجودة بالضبطية منها يعلم أن ذلك الفعل بدسائس من سراى الخديو.

ولما لم تنجح تلك المكيدة تألف حزب كبير من الچراكسة وتآمروا وتحالفوا على قتلى وقتل جميع رؤساء الضباط أبناء العرب المصريين[1]، ولما دعى أحدهم المسمى راشد أفندى أنور للتحالف معهم على ذلك، وكان من الذين يخافون الله، ومتحليًا بحلية الإنسانية، أبى عن الإجابة، وتوجه فى الحال، وأخبر طلبة باشا عصمت بحقيقة الأمر، وهو كتب للجهادية بذلك وبإخبارية محمود باشا سامى رئيس النظار ومصطفى باشا فهمى ناظر الحقانية وباقى النظار بتلك المسألة وعرضها على الخديو. جرى تحقيق تلك المؤامرة الچركسية فى مجلس عسكرى تحت رياسة الجنرال الكبير راشد باشا حسنى[2] الچركسى، لكونه رجلا ذا شرف وذمة وأمانة. ومن التحقيق اتضح عظم هذا الحزب وأن مصدره الحضرة الخديوية كما هو واضح بجرنال التحقيق. وتوقعت عليهم الأحكام بإرسالهم إلى البلاد السودانية نفيًا مؤبدًا[3]. وعرض هذا الجرنال على الخديو وتلى عليه بحضور جميع النظار.

---

(١) المقصود الأهالى، وتُعرف هذه الحادثة باسم المؤامرة الچركسية، وكان عثمان رفقى على رأس مدبريها.

(٢) تلقى علومه العسكرية فى فرنسا، ونال أعلى الرتب، وشغل مناصب جديدة مهمة، واشترك فى الحرب الروسية التركية (١٨٧٧/ ١٨٧٨). وقام بدور بطولى فى الحرب ضد الإنجليز عندما أمسك بزمام القيادة بالميدان الشرقى، وجُرح فى معركة القصاصين الثانية (٩ سبتمبر ١٨٨٢) برصاصة فى قدمه.

(٣) والتجريد من الرتب والنياشين.

ولما كانت بلاد السودان بها حرارة قوية شديدة لا توافق صحة الچراكسة المولودين فى بلاد باردة، وأنها تكون سببا فى ضياع حياتهم، طلبت من إخوانى النظار مساعدتى على إنقاذهم من تلك الأحكام وإرسالهم إلى بلادهم أو إلى محل ما يرغبون خارج الحكومة المصرية برتبهم وشرفهم حرصا على حفظ الحياة حتى لمن قصد إتلاف حياتى، فأجابونى لذلك مع التعجب.وعرضنا عريضة مختومة منا جميعا وعرضناها للحضرة الخديوية وتوجهنا إليها جميعا نرجوها قبول هذا الرجاء رحمة بهم فأجاب الخديو بأنه من ضم المتهمين، واحد باشا ولا يمكن تنفيذ أحكام عليه إلا بأمر الحضرة السلطانية، لذلك لا بد من عرض المسألة على الباب العالى، ثم صدر أمره إلى الداخلية بالتنفيذ خلافا للجارى، إذ إن الأصول المتبعة هى أن الترقيات والمجازاة التى تكون من الجهادية تعرض بلا واسطة للمعية، ومن المعية تصدر للجهادية بالتنفيذ بلا واسطة أيضًا، ولكون أن الداخلية لم تتوسط فى عرض هذا الجرنال، ولم يكن لها حق فى الأمر على الجهادية بتنفيذ تلك الأحكام، توجه ناظر الداخلية ورئيس النظار محمود باشا سامى بعد أخذ رأى إخوانه النظار إلى جناب الخديو، وعرضوا عليه أن يصدر أمر الخديو بالتنفيذ على ذات أوراق القضية وترسل للجهادية لإجراء مفعولها وحفظها بها بدون واسطة اتباعا لأصول الجهادية فى مثل ذلك، فصدر أمره العالى على نفس الأوراق وأرسلت للجهادية كما ذكر وجرى مفعوله، وصار إرسال المحكوم عليهم إلى بلاد الشام ومنها توجهوا إلى الآستانة[1]. وبعد افتتاح الحرب، أرسل لهم الخديو وأحضرهم إلى الإسكندرية، وما ذلك إلا لعلمه بأنه هو السبب فيما حصل لهم، وأنهم لم يقدموا على تلك المؤامرة إلا بإرادته.

ثم إنه بعد انصراف رئيس النظار من حضرته الخديوية فى مساء ذاك اليوم، كنا فى وليمة بطرف عمر بك رحمى ومعنا رئيس النظار محمود سامى باشا فجاءه خبر أن حضرات قنصلى دولة إنجلترا وفرنسا الچنرالية حضرا بمنزله، وأنهما يريدان مقابلته، فقام فى الحال وتوجه إليهما وبرفقته نظار الخارجية مصطفى باشا فهمى، فأخبراه

(١) لم يكن توفيق يوافق على حكم العسكريين الذى صدر على المتآمرين - بلغ عددهم ٤٣ - وقد رفضه بناء على نصيحة إنجلترا وفرنسا، وشكا للدولة العثمانية التى انتهزت الفرصة، وطلبت أن تحال أوراق القضية عليها، حيث من بين المحكوم عليهم عثمان رفقى الحائز على رتبة فريق، وأنه لا يمكن تجريده منها إلا بموافقة الباب العالى.

أن حياة الخديو والأورباويين مهددة، فأجابهما أن حياتهم جميعا مكفولة بحياته، وسألهما عن أسباب ذلك، فأجاباه أن الخديو أعلمهما بذلك، وأن محمود باشا هدد الخديو بقوله له إن حياتك وحياة الأورباويين على خطر، فأنكر حصول ذلك وأخبرهما بما عرضه على جنابه العالى بخصوص عدم توسط الداخلية فى جرنال تحقيق قضية الچراكسة ليس إلا، وصادقه على ذلك ناظر الخارجية.

فالحق والحق أقول إن هذه العبارة الحزنة التى لا حقيقة لها هى أصل البلاء الذى صُبّ على مصر صبًا، وهى السبب لجلب المراكب الحربية من دول أوربا إلى ثغر إسكندرية وبورسعيد، وهى السبب فى حادثة ١١ جون[١] بالإسكندرية المفتتة للأكباد، على حين كان المصريون مع الأورباويين فى أهنأ معيشة وأحسن تودد[٢]، إذ لولا وجود المراكب الحربية بالإسكندرية لما حصل ذلك النفور، ولما حصلت تلك المصيبة الشنعاء، وهى السبب أيضًا فى إيقاد نار الحرب من أمة عظيمة[٣] مشهورة بالعدل ومحبة للإنسانية ومحررة للرقاب من الاستعباد على بلاد مصر سيئة البخت التى طالما دافعت عنها أطماع الطامعين، ولطالما كانت مصر تعتمد اعتمادا جازما ألا يأخذ بيدها وينشلها من بئر الاستبداد والاستعباد المملوءة بالأفاعى ويوصلها إلى بحبوحة الحرية إلا حكومة الإنجليز.

ولكن قضت أفكار الحاكم غير المحب لبلاده بذلك، ومن ذاك الحين حصل نفور الخديو من هيئة النظار، وخصوصا من رئيس النظار ولطالما صرح بأنه لا يريد ولا يود أن يرى محمود باشا سامى. وفى تلك الأيام غدر بإحدى السيدات المعتبرات غدرا شنيعا المسماة عيشة هانم من عائلة مرحوم أحمد باشا الطوبجى، كانت من الذين يتبرك بهم فى سراى الخديو، ذلك بأن الخديو أرسل لها عربة ليلا مع أحد الطواشية، وأخذها من بيتها ليوصلها إلى السراى، فأوصلها إلى الضبطية، وبمعرفة مصطفى بك صبحى وكيل الضبطية، أرسلت إلى السكة الحديد، وكان فى انتظارها وابور مخصوص[٤]، فتوجه بها إلى السويس. ولما أعلمت المسكينة ابنتها بذلك،

---

(١) يونيو.

(٢) مثل هذا القول لا ينطبق على الواقع الذى عانى فيه المصريون من الأجانب.

(٣) المقصود إنجلترا.

(٤) باخرة.

أرسلت لها ملبوساتها مع خادمتها إلى السويس. ومن هناك نزلت الخادمة المسكينة مع سيدتها المظلومة بوابور فى البحر الأحمر بقصد نفيها إلى الحجاز، ثم أشاعوا أن الست هربت فى جدة مع أنها كبيرة فى العمر ضعيفة وعليها خفر مخصوص، ثم لم يعلم لها ولا لخادمتها إلى الآن مستقر سوى البحر الأحمر، وذلك من غير جناية ولا تحقيق، فأين نصراء الإنسانية، وكان جزاء ابنتها المسكينة على إرسال ملبوسات والدتها رفت زوجها، فلما علم زوجها أسباب رفته طلق زوجته المذكورة، فكوفئ بإعادته للخدمة حالًا تلك السياسة المحبوبة عند بنى البشر يا نصراء الحق.

وبعد حادثة هذه السيدة المسكينة بأربعة أيام أشيع فى سراى عابدين بأن العسكر الخفراء سرقوا جواهر شوبكات[1] السراى مع أنهم خفراء على السراى وما فيها، فتوجه حكمدار برنجى آلاى بيادة الذى بعابدين أحمد بك فرج، وتفرس فى خدمة السراى، فاشتبه فى المأمور بحفظ الجواهر محمد حسن المخصص لحفظ ملبوسات الخديو المتربى فى بيته صغيرا إلى أن تزوج من سراى الخديو، فأمر بإرساله إلى الضبطية، وسئل فيها فاعترف بالجواهر أنها كانت معه، وأنه ألقاها فى مراحيض الضبطية، ودل عليها فصار استخراجها تمامًا، وتسلمت ليد الخديو حفظا لشرف العسكرية، وبسؤال المذكور فى الضبطية أجاب أنه ليس بسارق وإنما إبراهيم أغا توتنجى الخديو أمره بأخذ الجواهر وحفظها لحين عودته من أبعاديته ولا علم له بأسباب ذلك.

وكان تحرر من الجهادية للضبطية بلزوم التحقيق إظهارا لحفظ شرف العسكرية، ومنعا لحصول مثل ذلك، ولأجل الوقوف على الحقيقة يلزم استحضار إبراهيم أغا المذكور وسؤاله عما نسب إليه، فلما علم الخديو بذلك أمر بإرسال ذلك المسكين ليلا بوابور مخصوص إلى السويس، ومنها أرسل صباحا مع عيشة هانم المسكينة فى وابور واحد، ولا يعلم مستقره إلى الآن إلا البحر الأحمر أو الموت الأحمر من غير تحقيق ولا حكم شرعى. وأما إبراهيم أغا فأعطيت ليه النقود اللازمة وأرسل إلى بلاد الشام، والآن حضر يتهددنى فى السجن، إذ كنت باكى العين حزين القلب على أولئك المساكين. وبهاتين الحادثتين وما هو متجدد فى كل وقت من الحوادث المفزعة، صار كل مصرى لا يأمن على نفسه ولا يهنأ فى نومه فى بيته، يخشى أن يصيبه ما أصاب

---

(١) أدوات التدخين التى حُلِّيت مباسمها بالأحجار الكريمة.

أولئك المظاليم، وذلك كله معلوم عند النظار وغيرهم وأعضاء مجلس النواب، أيضًا كما أنهم أي النظار أعربوا للخديو عن منع ذلك ولا كان يفيد بشيء، إن هذا لهو الاستعباد المطلق، ولكن أين المحررون لرقاب المصريين؟

ثم لا يزال ذلك النفور متمكنا من نفس الخديو إلى أن جاءت مراكب إنجلترا وفرنسا الحربية، وتقدم من حضرات قنصليهما لائحة[1] بناء على رأي ارتآه أبو سلطان باشا غير جازم به كما صرح بذلك غير مرة ومقتضى تلك اللائحة هو سقوط نظارة محمود سامي باشا، وتوجهي إلى أوربا، وتبعيد على فهمي باشا وعبد العال حلمي باشا إلى داخل البلاد المصرية. ولما كان مقتضى هذه اللائحة هو من الأمور الداخلية التي لا دخل فيها للغير لم يصر قبولها بمجلس النظار لا لأجل حفظ وظائفنا، ولكن حرصا على حقوق البلاد التي فوضت لعهدتنا وأمانتنا. أما الخديو فقد قبلها بادئ ذي بدء، ولما كانت هذه المسألة من المعضلات واختلف فيها بين الخديو والنظار، عمل جلسة بديوان النظارة، وتقرر فيها طلب أعضاء مجلس النواب للنظر فيما اختلف فيه، وتسوية المسألة بوجه مرض، إذ يجوز قانونا ذلك إذا طرأ على البلاد أمر غير اعتيادي، فحضروا النواب، وصار اطلاعهم على تلك اللائحة، فجميعهم رفضوا قبولها،وطارت الأخبار في جميع البلاد، فحصل فزع شديد، وأجمع الرأي العمومي على عدم قبولها، وحضرت عمد البلاد وأعيانها إلى مصر، معلنين برفض هذه اللائحة، ورفض من يقبلها، وكتبوا بذلك محررات مختومة بأختامهم وأحضروها لطرفي لوثوقهم بي.

وكذلك لما لم يأذن الخديو بافتتاح مجلس النواب رسميا، ختم على رفض تلك اللائحة كثير من أعضاء مجلس النواب، وجاء كثير من العلماء والتجار والأعيان من كل جهة، وقدموا محررات بأختامهم، وفتوى شرعية من أفاضل العلماء بوجوب خلع الخديو بمقتضى أحكام الشرع الشريف الإسلامي،وموجود بعض من تلك المحررات بطرفي، وبعضها يوجد بطرف محمود باشا سامي رئيس النظار، ولما صمم الخديو على قبول اللائحة وعدم افتتاح المجلس، استعفت النظارة، وقُبل استعفاؤها[2]، وكان في أثناء ذلك ألحّ عليّ كثيرا قنصل چنرال فرنسا مسيو سينكيفيك

---

(1) هي مذكرة ٢٥ مايو ١٨٨٢ المشتركة.

(2) عندما قدمت نظارة محمود سامي البارودي استقالتها ذكرت أن السبب يعود إلى التدخل الأجنبي وقبول الخديو له.

ومسيو مونج قنصل فرنسا بمصر بأن أتوجه إلى باريس وأتخلص من تلك الصعوبات، ولكن لعلمي بأن جميع الناس متعلقون بي ونفس أعضاء مجلس النواب معتقدون بأنه لا بقاء لمجلس النواب إلا بوجودي، ولا بقاء للسلامة والراحة إلا بوجودي، وأنه إذا خرجت من مصر، خربت بيوتهم جميعا، كما أن جميع الأهالي والعسكرية لا يمكنوني من الخروج، وأنه يخشى من حصول حركة مدهشة تصدر عن طيش بسبب ذلك. يعلم صحة قولي هذا من رأى أهل إسكندرية ذكورا وإناثا كبارا وصغارا يجتمعون بالشوارع ومنافذ البيوت ليسلموا عليّ وينظروني بعين المحبة، وكذلك من رأى اجتماعهم بالسكة الحديدية من مصر إلى الإسكندرية هذا الذي منعني من التوجه إلى أوربا أو إلى الآستانة.

ثم في صباح ليلة استعفاء النظار حضر لمنزلي حضرات قناصل جنرالية دول ألمانيا والروسيا والنمسا وإيطاليا، وكلفوني بأن أعطيهم كلمتي بحفظ الأورباويين جميعهم وأموالهم القاطنين في القطر المصري، فاعتذرت لهم بأني استعفيت من الخدمة، فلم يقبلوا عذري بل أجابوني بأنهم يثقون بقولي، وأن جميع المصريين متى علموا كفالتي للأورباويين فإنهم يحترمونهم غاية الاحترام، فلوثوقي بأن العسكرية لا يفعلون شيئا يخل بشرفهم العسكري، وأن الأهالي يكرمون نزلاءهم، فأعطيت لهم كلمتي بحفظ جميع الأورباويين القاطنين بالقطر المصري وحفظ أموالهم، كما أحافظ على نفسي وعلى أولادي ومالي، لحين تشكيل هيئة حكومية، فانصرفوا مطمئنين.

وفي مساء هذا اليوم اجتمعوا أعضاء مجلس النواب بمنزل أبي سلطان باشا رئيس النواب، ودعوني للحضور إليهم فأجبتهم، فكلفوني بأن أحافظ على الأمن العمومي، وكان معهم جملة من العلماء وقاضي مصر، فذكرتهم بأني استعفيت وقبل استعفائي، فكيف أكلف بهذا الأمر وليس لي صفة في الحكومة، فأجابني رئيس المجلس أبو سلطان باشا وسعادة سليمان باشا أباظة أحد الأعضاء بأنهم نواب الأمة، وأنهم يكلفوني بذلك، وأنهم لا يقبلون استعفائي، وأنهم يتوجهون إلى الخديو ويطلبون منه أمرا بإبقائي في نظارة الجهادية كما كنت. وفي تلك الليلة حصلت مذكرات ومحاورات في حالة البلاد وما كانت عليه في الأزمنة الماضية، وما حل بها من النكبات، وما أبيح فيها من الدماء. كل ذلك نتيجة الأحكام الاستبدادية، وفي الحالة

التى وصلت إليها البلاد، وفى أمر اللائحة التى قبلها الخديو. فالكل أجمع على طلب خلع الخديو[١] إذا لم يرفض قبول اللائحة المذكورة.

وانصرف المجلس على ذلك، وفى صباح غد حضر لمنزلى رئيس مجلس النواب وسليمان باشا أباظة وسلمنى سليمان باشا بيده أمرا من الخديو بإبقائى ناظرا على الجهادية، وظنوا أن بهذا الأمر يبطل مفعول اللائحة، ولكن الظن لا يغنى من الحق شيئا، ثم إنى قدمت تشكراتى للخديو وقابلنى بغاية البشاشة، وصرت أباشر جميع الأشغال فى مدة انحلال النظارة التى هى عبارة عن عشرين يومًا[٢]، ولم يحصل فيها ما يكدر صفاء الراحة. وفى تلك المدة ملئت مصر بقبائل العربان[٣] حتى خافت الأهالى والأورباويين من كثرتهم. وكان السبب فى ذلك أن الجناب الخديو استحضرهم وقربهم إليه حتى كان يتخيل للزائرين أن سراى الإسماعيلية هى مجتمع العربان على غير عادة، كل ذلك بقصد أن يكونوا ضدًا للعسكرية بغير موجب. وكان مدير البحيرة إبراهيم بك توفيق يهيج العربان، ويتوجه للمديريات بتعليمات سرية لأجل إيقاع الضرر بمن حرروا محررات برفض تلك اللائحة، وترويج حركة الاختلال، ولكن العربـــان حريصون جدا على شرفهم، فلا يركنوا إلى أقوال لا توافق الشرع والشرف.

وفى تلك المدة حضر الوفد العثمانى تحت رياسة دولتلو درويش باشا[٤] وأنزل فى سراى الجزيرة، فهرعت إليه وجوه الناس ونبهاؤهم وعلماؤهم ليسلموا عليه، ويشكوا إليه ما هو حاصل من الخديو، ومن لزوم مراعاة أحكام الشرع الشريف،

---

(١) لم تكن هناك موافقة من الجميع، إذ تزعم محمد سلطان الاتجاه المعارض، مبينا أن مسألة خلع الخديو غير شرعية، لأنه تولى سلطته من السلطان العثمانى بالاتفاق مع الدول العظمى.

(٢) مثَّل ذلك استثناء فى تاريخ النظارات، حيث كان عرابى ناظرا للجهادية ـ بناء على أمر خديوى فى ٢٨ مايو ١٨٨٢ ـ دون وجود نظارة مشكَّلة، وذلك بعد أن وضع شريف الشروط لقبوله تأليف النظارة، وكان من الصعب تحقيقها.

(٣) هم البدو.

(٤) أرسل السلطان البعثة العثمانية الثانية ووصلت إلى الإسكندرية فى ٧ يونيو ١٨٨٢، وأيدتها دول غربية من أجل إخضاع الثوار، وكان على رئيس البعثة أن تكون سياسته مع توفيق، وأن يحد من نشاطات عرابى، وذلك بإغرائه للذهاب إلى الآستانة برضاه، وخصص السلطان أحد أعضاء البعثة ـ ويدعى أحمد أسعد ـ فى المهمات السرية الخاصة بالمسائل العربية، ليقف على اتجاهات رجال الثورة.

فصار سجنهم الآن جميعا ظلما وعدوانا بل انتقاما حتى غصت السجون بالمديريات ومصر والإسكندرية. ثم وبتفقده أحوال العسكرية تحقق له أن العسكرية محافظة على الطاعة والانتظام، ولم يقع منهم أدنى شىء يوجب المسئولية. وبناء على ذلك طلب من الحضرة السلطانية نحو المائتى نيشان على ذمة ضباط الجيش مكافأة لهم على حسن سلوكهم، وطلب لى أيضًا النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ذات الكوردون.

وبعد ذلك شكلت هيئة نظارة جديدة برياسة سعادة راغب باشا(1)، فكان سعادته رئيسا للنظار وناظرا للخارجية وسعادة أحمد رشيد باشا ناظرا للداخلية وعبد الرحمن رشدى بك ناظرا للمالية ومحمود باشا الفلكى ناظرا للأشغال، وسليمان باشا أباظه ناظرا للمعارف وعلى باشا إبراهيم ناظرا للحقانية وحسن باشا الشريعى ناظرا للأوقاف، ورتبونى ناظرا للجهادية كما كنت أولا، وقيل إنه بذلك بطل مفعول اللائحة وزالت الكوارث. ولأجل اطمئنان الجميع صدر أمر بالعفو أخيرا عن جميع الحوادث الماضية إلا ما يختص بحادثة الإسكندرية المحزنة الواقعة فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ تلك الحادثة المريعة حدثت فى التاريخ المذكور على حين غفلة بين رعاع الإسكندرية وبين الأورباويين، وبناء على أمر المعية بتعيين من يلزم من الجهادية لتحقيق تلك الحادثة تعين وأرسل سعادة وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى وأرسل آليين بيادة وبطارتين طوبجية وأورطتين سوارى لحفظ الأمن العمومى داخل الإسكندرية وخارجها، وقد لهجت جميع جرانيل(2) الأورباويين بحسن تيقظ عساكر الآلايات، وسهرهم على حصول الأمن والراحة. وكانت تلك العساكر تحت قومندانية طلبة باشا عصمت، فقام بتلك المأمورية أحسن قيام.

وقد سمعت من الحضرة الخديوية بناء على ما ورد من محافظ الإسكندرية أن أصل هذه الحادثة رجل مالطى ورجل حمّار من أهل الإسكندرية، وإنه باجتماع الناس، أطلقت عليهم البنادق والطبنجات من الشبابيك. وبناء على ذلك تحرر منى خطاب إلى وكيل الجهادية يعقوب باشا بما هو مشاع، وأنه يتبصر فى حقيقة تلك الحادثة بغاية الحزم، ويجتهد فى إظهار الفاعل الحقيقى مع المحاماة عن شرف الحكومة والعسكرية، والميل إلى اتباع الحق. هذا ما علمته من أمر تلك الحادثة.

---

(1) استمرت هذه النظارة من ١٧ يونيو - ٢١ أغسطس ١٨٨٢.

(2) صحف.

وقبل تشكيل هذه النظارة كان جارى تصليح وترميم الاستحكامات على حسب العادة السنوية، فصدر أمر الخديو بناء على أمر الحضرة السلطانية بإبطال إنشاء استحكامات فى الإسكندرية، بما أن ذلك يعد تهديدا للدونتمة(١) الإنجليزية، وإن لم يصر إبطالها تضرب الدونتمة بالمدافع على البلد(٢) حتى تهدمها وتحرقها حسب تبليغات كاتب سر سفارة إنجلترا بالآستانة للمابين الهمايونى، فصار إبطال جميع الأعمال حتى إن الخديو أرسل مندوبين من طرفه وهما حسين بك الترك وحسين أفندى فوزى من المعية لأجل تحقيق إبطال الأشغال، وتحرر منه للآستانة بذلك. وكنا نتعجب كيف أن الترميمات فى الطوابى العادية تعد تهديدا وحضور المراكب الحربية وإحاطتها بالثغور المصرية(٣) لا تعد تهديدًا ولكن نتذكر أن الحق للقوى.

فى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢ بعد تشكيل هذه النظارة حضر النيشان المجيدى بفرمانه العالى الشأن من الآستانة واستلمتها من يد الحضرة الخديوية إظهارا لرضائه علىّ، وأبلغنى ممنونيته منى، وأنه تحقق صدق خدمتى. وانصرفت شاكرًا لهذه المنة وأعرضت تشكراتى تلغرافيا للمابين الهمايونى، وتشرفت برد جوابه تلغرافيًا بإبلاغ محظوظية الحضرة السلطانية من حسن طاعتى وخلوصى، وأن ذلك النيشان مكافأة لى على حسن سلوكى وصداقتى. أما نياشين ضباط العسكرية فتوزع بعضها على خدمة المعية، وبعضها تسلم للخديو، ولم ينل أحدا من الضباط شىء منها، مع أن بعضهم من بلغ رتبة الباشا ولم يعط له نيشان أبدا مع ما أبرزه من الصداقة فى المحاربات والخدمات العديدة، وما ذلك إلا لكونهم مصريين جريا على العادة غير المألوفة عند المتصفين بالإنصاف.

وبعد استلامى النيشان كلفنى دولتلو درويش باشا بأن أتوجه للآستانة لأعيش فى كنف الحضرة السلطانية مع بعض إخوانى، فعرضت عليه أعذارى التى أخبرت عنها قنصل جنرال فرنسا، وأنى أخشى أن الناس يمنعونى من السفر بطريقة غير معقولة، كما هو مشاهد لدولته من ازدحام الناس بالإسكندرية حين مرورى لشدة تعلقهم بى، وكذلك سعادة راغب باشا رئيس النظار، لعلمه بما يحصل للناس من الدهشة، وتوقع ضررا عظيما إذا صار توجهى إلى الآستانة، وعرف دولته بأن هذا التكليف لا يوافق

(١) قطع الأسطول.

(٢) الإسكندرية.

(٣) المدينة نفسها.

المصلحة. ومما سبق تسطيره يعلم أنى كنت محبوبا عند جميع الشعب المصرى محبا لخير العموم، موثوقا بأمانتى وشرفى، وأنه ليس لى غاية شخصية كما يزعم المبطلون، بل غايتى الوحيدة هى تحرير بلادى ورفاهية أهلها وتمتعهم بخيرها فى ظل حكومة شورية عادلة تعطى الحقوق لأربابها بدون فرق بين الأهلين والأجنبيين حتى يكون جميع سكان مصر كالواحد بدون فرق بين تعدد المذاهب والاعتقادات، إذ الكل إنسان تجمعنا جامعة الإنسانية.

ومما يدل على عدم تمكنى من الخروج من مصر إذ ذاك ما عرض تلغرافيا من رؤساء العساكر البرية والبحرية بالإسكندرية للخديو بشأنى فى يوم استعفاء نظارة محمود سامى باشا، ومما يدل على أن الناس غير قابلين لتلك اللائحة، اعتراف الخديو بالتلغراف الصادر من جنابه الكريم إلى الرؤساء المذكورين ردا لما ورد منهم فى اليوم المذكور.

نعم قبل ختام هذا القسم أقول: إن الحضرة الخديوية كانت أرسلت ثابت باشا الچركسى المشهور بالتعصب الجنسى إلى الآستانة ليكون وكيلا له فيها فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨١،ولأجل تغيير أفكار رجال الدولة من جهة العساكر المصرية، وحتى بذلك يتوصل إلى تغيير أفكار الذات السلطانية، أشيع فى دوائر الآستانة بأن العساكر المصرية خرجوا عن الطاعة، وأنهم يريدون تشكيل دولة عربية، وأنى متفق مع الإنجليز على ذلك، فكثر اللغط بذلك حتى توجست شرا إذ لا معرفة لى بأحد فى الآستانة ليدافع عنى، ويكذب ما نسب إلىّ من الأباطيل، وإذا بحضرة الشريف السيد أحمد أسعد وكيل الفراشة الشريفة بالمدينة المنورة عن السلطان حضر إلى مصر، فأرفقته بعريضة تبرأت فيها مما نسب لى وللجيش بغير حق. وورد إلىّ من سيادته جواب بقبول تلك العريضة مع طلب محافظتى على الطاعة استجلابا لرضا الحضرة السلطانية[1]. هذا ما انتهى إليه علمى من تحرير القسم الأول المحتوى على جميع الحوادث المهمة التى حدثت من غرة فبراير سنة ١٨٨١ لغاية ٩ يولية سنة ١٨٨٢ قبل حصول الحرب الإنجليزية فى مصر.

تم القسم الأول ويليه الثانى.

---

(١) لم يكن للدولة العثمانية الموقف المحدَّد من الثورة، حيث إن مصالحها فرضت عليها أن تنتهج سياسة مزدوجة، بمعنى أنها سلكت طريقا مع الثورة، وآخر مع الخديو.

القسم الثانى
فى حوادث الحرب وما يتبعها

فى الحرب العوان وما أدراك ما الحرب العوان هى (حرب الإنجليز) الأمة التى فيها نصراء الإنسانية، الأمة المحامية عن المظلومين، الأمة المحررة لرقاب العباد المستعبدين، الأمة المحافظة على اتباع الحق والقوانين (مع من) مع مصر، البلاد التى لا ينكر أحد ما فيه أهلها من الاستعباد وما تجرعوه من غصص الاستبداد، البلاد التى طالما سفكت دماء أهلها بغير وجه شرعى ولا حكم قانونى، البلاد التى طغت حكامها وبغت وتفننت فى أنواع المظالم، البلاد التى لا يعتبر حكامها شرعا ولا قانونا، البلاد التى عبدت حكامها من دون رب العالمين، البلاد التى كانت تظن أن لا منفذ لها من جبّ الظالمين ولا موصلها إلى فضاء الإنسانية إلا دولة إنجلترا الشفوقة على النوع الإنسانى، فخاب أملها.

وبعد أن قربت أبناءها من فم ذاك الجب، وظنوا أنهم ناجون إذ جاءهم الحرس الإنجليزى فأوقع القبض على من خرج من الجب وألقاه فى قراره لتنهشه الأفاعى خلافا لما هو معهود فى رجال الإنجليز من الشفقة والرأفة على النوع الإنسانى. ذلك لمَّا أعلن الخديو أن حياته وحياة الأورباويين فى خطر، حضرت المراكب الحربية من جميع الدول أى دول أوربا العظام، وهاجر الأورباويون من مصر إلا قليلا منهم، وهاجت أفكار الناس جميعا لحضور المراكب، وأسف المصريون على فراق إخوانهم الأورباويين الذين كانوا معهم على وفاق تام[1]. ثم قيل بأن فى ترميمات الطوابى تهديدا للدونتمة الإنجليزية دون باقى مراكب الدول الأورباوية الموجودة بالإسكندرية،فأبطل عمل الترميمات، ثم حضر إلى قومندان عساكر الإسكندرية مخاطبة من جناب الأميرال سيمور[2] الإنجليزى، بأنه جارى قفل بغاز

(١) لم يكن الأمر كما يُسجله عرابى، إذ قاسى المصريون الكثير من الأجانب.
(٢) قائد أسطول الحملة الإنجليزية على مصر.

ميناء الإسكندرية بالأحجار، وأنه إن لم يمنع رمى الأحجار، فإنه يقابل هذا العمل بمثله. فبأمر الخديو ورأى النظار كتب له بأنه لا أصل لرمى الأحجار، ولا لزوم لذلك، وأرسل إليه أيضًا وكيل البحرية، ورخص لجنابه فى القبض على من يفعل ذلك.

ثم فى يوم عشرة يولية سنة ١٨٨٢ حضر خطاب ثان من الأميرال المذكور إلى القومندان المذكور بأنه جارى تركيب مدافع فى طابية صالح والمكس وقايتباى، وأنه يريد تنزيل جميع الأسلحة الموجودة فى طوابى إسكندرية من العجمى إلى برج قايتباى، مع أن الطوابى المذكورة لم يكن فيها إلا الأسلحة الموجودة بها من مدة محمد على باشا حتى القذافات الخشب أكلها السوس، ولم يكن بها أسلحة جديدة أصلًا إلا الموجود فى طابية قايتباى من مدة إسماعيل باشا، وإن لم يجب إلى ذلك، يضرب على الطوابى عند طلوع الشمس من يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢ حتى يهدمها ويخربها.

فعقد لذلك مجلس النظار والاختيارية من الذوات وتحت رئاسة الخديو ودرويش باشا وقدرى بك من الوفد العثمانى. وبعد المذاكرة تقرر إرسال ناظر المالية وناظر الداخلية ووكيل البحرية وأحد رجال المعية تكران بك إلى الأميرال سيمور، يترجوه فى أن الطوابى المذكورة لم يكن بها أشغال، ولم يتركب فيها أسلحة مستجدة أبدا، وها هى مستعدة للكشف عليها من طرفه، ومع ذلك فيسمح له بتنزيل ثلاثة مدافع من الطوابى المذكورة إرضاء لخاطره، فتوجه المذكورون ورجعوا بالبلاغ الأخير، وهو أنه لا بد من تنزيل المدافع عوضا عن العساكر الإنجليزية، فبعد المداولة طويلا بالمجلس المذكور تقرر أن تنزيل أسلحة الطوابى الموضوعة من مدة خمسين سنة بلا موجب حربى، عار كبير لا يمكن تحمله ومع كوننا لا نريد حربا مع أى دولة خصوصا دولة الإنجليز. لكن بطريق المجبورية وحفظا للشرف إذا ضربت المراكب على الطوابى تجاوبها الطوابى، إنما تكون المجاوبة بعد خروج خمس أو ست ضربات من مدافع المراكب. وكان الخديو يظهر شدة الغيرة والحماس، ولطالما قال إذا حصل ضرب فإنه يحمل بتدقية، ويكون فى مقدمة العسكر.

ثم انصرف المجلس على ذلك وعرض للآستانة من طرف الخديو ودرويش باشا بما تقرر. ولما أتت الساعة المعينة أطلقت كلة من مركب الأميرال، ثم تتابع الضرب

من جميع المراكب، وبعد خروج نحو الخمسة عشر كلة من المراكب، جاوبتها مدافع الطوابى، واحتدمت نيران الحرب مدة عشر ساعات ونصف متوالية حتى تهدمت الطوابى جميعها، لكونها من الطرز القديم، وسقطت مدافعها، وتهدمت سراى رأس التين، واحترقت من نيران الكلل مع هدم كثير من البيوت التى داخل البلد خصوصا جهة محطة الإسكندرية، لأن كثيرا من مقذوفات المراكب الهائلة كانت متوجهة على طابية الداماس[1] التى كنت بها مع جميع النظار. وكانت المقذوفات تقع على البيوت المجاورة لتلك الطابية والمحطة المذكورة. وبعد ذلك انقطع الضرب من الطرفين.

وفى أثناء اشتداد القتال، كان يأتينا ياوران الخديو ومحيى الدين أفندى ياور درويش باشا يترددون فى كل ساعة، يشجعوننا ويبلغوننا سلام الخديو ودرويش باشا ويمدحون العساكر على صبرهم وثباتهم، مع عدم استعداد الطوابى وجودة أسلحة المراكب الحربية الإنجليزية،ونحن مع ذلك نتعجب من وجود الخديو فى سراى الرمل[2] على شاطئ البحر من غير مبالاة ولا خوف من المراكب، كأنه لم تكن حرب بين حكومته وبين مراكب الإنجليز، ولكن لا عجب من أمر الله، ثم إنه عند انقطاع ضرب المدافع،توجهت مع النظار إلى الخديو وعرضنا لجنابه الرفيع ما حصل فى هذا اليوم، فشكر العساكر على ما أظهره من الثبات، وعرضت له أيضًا أنه إذا كان الغرض هدم الطوابى، فقد تهدمت، وإذا كان الغرض غير ذلك، فماذا نصنع؟

فعقد مجلس النظار تحت رياسة الخديو ودرويش باشا المندوب السلطانى للنظر فيما يصير إجراؤه بعد إتلاف الطوابى إذا استمر القتال، فبعد المداولة تقرر أنه إذا أطلقت المدافع من المراكب، ففى الحال ترفع الرايات البيضاء من جميع الطوابى، علامة التوقيف عن الضرب والشروع فى المخابرات السلمية، وإذ ذاك يتوجه طلبة باشا وتكران بك فى صندل بحرى لطرف مركب الأميرال سيمور، ويخبرانه بأن الحكومة المصرية لا يكون بينها وبين حكومة إنجلترا ما يوجب تكدير الخاطر، فضلا عن الحرب بل دائما محافظة على حقوقها وحقوق رعاياها، وإذا كان الغرض الأصلى تنزيل المدافع، فقد تهدمت الطوابى جميعها وتكسرت المدافع، وأنه لا يكون عندنا قوة تدافع المراكب، بل ولا نريد حربا،ويأخذ رأيه عن ذلك. وانصرف المجلس

---

(١) كوم الدكة.

(٢) كان يمتلكها الأمير مصطفى فاضل.

ليلا، وأعطيت التعليمات بذلك إلى كافة الطوابى، وتوجهت إلى باب شرقى وبتّ فيه.

وفى صباح يوم ١٢ يولية سنة ١٨٨٢ قبل الظهر بساعتين ونصف ابتدأت المراكب تضرب على البلد، فرفعت الرايات البيضاء من كافة الطوابى، ولكن المراكب لم تلتفت إليها إلا بعد أن أطلقت نحو الـ ٢٥ عددا أو ٣٠ عدد كلة، ثم بطل الضرب وتوجه طلبة باشا فى البحر إلى طرف الأميرال، فقابله مأمور من طرف الأميرال، فأخبره بما قرّ عليه رأى الخديو والمجلس، فبلغه المأمور أن جناب الأميرال يطلب استلام ثلاثة مواقع متجاورة وهى طابية العجمى وطابية المكس وطابية باب العرب لاتخاذها معسكرا للجيش الإنجليزى، وأنه يريد حضور أمر بذلك من الخديو قبل الساعة ٣ بعد الظهر، وإن تأخر فإنه يستأنف الضرب ثانية، ويأخذ تلك المواقع قهرا. وكان باقى على هذا الوقت ساعة ونصف فقط، فرجع طلبة باشا مسرعا وتوجه إلى الرمل، وكنت توجهت إليها أيضًا مع رئيس النظار.

وعرض طلبة باشا طلب الأميرال على الخديو، فعقد لذلك مجلسًا تحت رئاسة الخديو ودرويش باشا حضره إسماعيل باشا حقى المشهور بأبى جبل من الاختيارية وأبو سلطان باشا رئيس النواب، وتقرر بالعرض عن ذلك للآستانة، حيث إن الفرمان السلطانى لا يجيز للخديو أن يعطى قطعة أرض من أراضى الحكومة المصرية إلى أية دولة أجنبية، وأن يعود طلبة باشا ليبلغ الأميرال ذلك، فتوجه المذكور لكنه لبعد المسافة وقصر الوقت، تأخر عن الميعاد المحدد. وبوصوله إلى ديوان البحرية وجد أن مندوب الأميرال حضر إلى ديوان البحرية فى الميعاد، وترك هناك خبرا بأن الميعاد مضى، ولم يأت جواب من الخديو، وأنه عاد وسيستأنف الضرب على البلد ثانيًا. وأما الخديو فإنه أمرنى فى المجلس بإرسال قوة إلى جهة طابية العجمى، ولا يمكنون العساكر الإنجليزية من الخروج إلى البر. فعرضت على جنابه بأن هناك أرضا مكشوفة ومقذوفات المراكب لا تمكن عساكر البيادة من الدنو إلى شاطئ البحر، فضلا عن قطع خط المواصلة ما بين الإسكندرية وبينها، فغضب لذلك وقال: لم جُعلتم عساكر. إذا كنتم لم تمنعوا عساكر العدو عن بلادكم؟ ثم انصرف المجلس.

وتوجهت مع راغب باشا إلى منزله الكائن على شاطئ المحمودية، ونحن نفتكر فى شدة الخديو وغضبه خوفا على طابية العجمى من استيلاء عساكر الإنجليز عليها

ونتعجب من تجمع العربان بأسلحتهم حول سراى الرمل مع وجود العساكر، وأن تجمعهم بغير واسطة الجهادية لا يكون إلا لأمر غير اعتيادى. ونتذكر ما كان أشيع من أن شيخ عربان أولاد على كلف من طرف الخديو بواسطة إبراهيم بك توفيق مدير البحيرة، بأنه حرر تلغرافا إلى أوربا أنه ضد الجيش المصرى، وأنه إذا أمره الخديو بتأديب الجيش المذكور، فإنه قادر على تأديبه وتشريده. كان ذلك فى المدة التى كانت الحكومة فيها بدون نظار يعنى قبل نظارة راغب باشا. ثم بعد أن مكثنا فى بيت سعادته نحو ساعة جاءنا طلب من الخديو فتوجهنا معا إلى سراى الرمل، وأخبرنى الخديو بأنه حضر أربع بلوكات بيادة إلى الرمل لأى سبب. وحيث كنت لا أعلم حقيقة ذلك فعرضت على جنابه بأنه لا علم لى إلا أنه يمكن أنهم حضروا لتقوية الخفر على السراى، فقال لا يلزم وجودهم هنا، وأن الخفر الموجود من قبل كفاية، فدعهم يتوجهوا لتأدية خدمة فى الجيش أولى وأنفع، فخرجت إليهم وطلبت الضابط الهعين منهم، وسألته عن أسباب حضوره، وبأمر من حضر، فأخبرنى أن رئيسه سليمان بك سامى أمر بالحضور لتقوية الخفر، فأمرته بالتوجه إلى آلاياه لعدم لزوم العسكر بطرف الخديو، وأن الخفر الموجود من قبل كفاية وتركته [1].

وتوجهت إلى جهة الإسكندرية، فلما قربت من وابور المياه القريب من باب الشرق وجدت ازدحاما شديدا والعساكر مختلطة مع الأهالى، والجميع متوجهون جهة المحمودية، فكان الرجل لا يلتفت لزوجته والمرأة لا تسأل عن طفلها، والأطفال تصيح والنساء تبكى كأنه يوم المحشر يدهش لرؤيته أرباب العقول [2]، فنزلت عن العربة وتخللت الناس ماشيًا حتى وصلت إلى باب شرق، فوجدت عيد بك الميرالاى وسألته عن هذه الحالة، فقال إنه أشيع بأن المراكب ستضرب على البلد، فخرج من كان باقيا فيها، وخرجت العساكر بأولادها وأزواجها بغير انتظام، وأنه يجمع عساكر آلايه، فأمرته بسرعة تجمعهم، ومنع العساكر عن الخروج. ثم إنى وقفت بنفسى فى الباب أمنع العساكر.

وقيل لى إن سليمان بك سامى مع جانب من العساكر يريد إحراق البلد، وإنه فى

---

(١) عقد عرابى العزم على محاصرة سراى الرمل وإشعال النار فيها، فكلف ثلاثمائة من عسكرييه للقيام بالمهمة، ولكن الخديو ومندوب السلطان تمكنا من إغرائهم بالأوسمة والنقود.

(٢) مثَّلت هجرة السكندريين مأساة كبيرة، عبَّرت عنها أدبيات تلك الفترة.

حالة جنون، فأرسلت له حالا بالحضور، فحضر ومعه نحو بلوكين غير منتظمين، فسألته عن ما نسب إليه من كونه يريد إحراق البلد، فأنكر ذلك، وقال إنه كان معه أورطة متفرقة فى الشوارع الموصلة إلى الميناء لمنع خروج عساكر المراكب الحربية إلى البر، ولكن وجدت بعض العساكر معهم أقمشة بفتة، فأمرته بضبط تلك الأقمشة، ومعرفة الذين وجدت معهم، فجمعها وأولع النار فيها فأمرته بعدم إحراقها وحفظها حتى تسلم للمحافظة بعد معرفة أسباب وجودها مع من وجدت معهم. وما زلت أجول بين العساكر، وأذكرهم بالشرف والعار، وأمنعهم عن الخروج، وآمرهم بالمداومة على حفظ البلد.

وكنت أرى كثيرا من العربان خارجين من البلد مع الأهالى وجميعهم حاملون السلاح، ومعهم أشياء تظهر أنها جديدة، وأنها لا تليق أن تكون من لوازم العربان سكان البادية، وكأنه ما كان اجتماعهم حول سراى الخديو بالرمل إلا لهذا الغرض، ولا يبعد أنهم أخذوا بعض البضائع من الدكاكين، وحرقوا البعض لعدم معلوميتهم بعواقب الأمور. وما زلت أمنع العساكر وأشجعهم على عدم ترك البلد، وإذا بحضور حسن باشا الشريعى وسليمان باشا أباظة وحسين بك الترك ياور الخديو ومحيى الدين أفندى ياور درويش باشا، وأخبرونى أن العساكر الذين بالرمل وقفت تحت السلاح سوارى وبيادة واحتاطوا بالسراى، فلأى سبب حصل ذلك فدهشت لما سمعت هذا الكلام.

وبعد إفاقتى أرسلت طلبة باشا ليفرق العساكر عن السراى، ويبحث عن السبب، وتبرأت من هذا العمل، وسألت سليمان بك سامى عن أسباب إرسال عساكر البيادة من آلايه إلى الرمل، فقال إنه وجد مراكب متوجهة جهة الرمل، فأرسل لها أربعة بلوكات تقوية من نفسه بدون أمر، ولما توجه طلبة باشا إلى السراى المذكورة لم يجد شيئا من ذلك[1]. واتضح أن العساكر رأت مراكب متوجهة جهة طابية برج السلسلة القريبة من الرمل، فظنوا أنها آتية لتأخذ الخديو، فحملوا أسلحتهم وأحاطوا بالسراى لحفظ الخديو، فتشكر الخديو لذلك، وأرسل حسين بك الترك ياور الخديو مع سعادة طلبة باشا ليبلغنى سلام الخديو، ولكنه ما وصل إلىّ سيذكر ذلك بأن معظم العساكر

(١) مرة أخرى يعيد عرابى مسألة محاصرة سراى الرمل بشىء من التفصيل، ويتنصل مما كان يدبره بشأن التخلص من الخديو، وهذا أمر لجأ إليه حتى يُبعد عنه ذلك الاتهام عند المحاكمة.

خرجت من البلدة بصورة غير منتظمة، ولم يتجمع عند باب شرقى إلا القليل، وحضر كثير من الضباط ومنهم نسيم بك قائمقام سواحل الإسكندرية، وخبروا أن المراكب أتت تحت برج السلسلة لتتمكن من الضرب على قشلاق باب شرق، ولتقطع خط الرجعة. فرأيت أنه غير متيسر جمع العساكر فى هذه الحالة، وأنه لا بد من اتخاذ موقع مناسب لتجمع العساكر، وإزالة ما قام بأفكارهم من الدهشة والاضطراب، فأمرت أميرالايين هما عيد بك وسليمان بك سامى بأن يذهبا بمن تجمع معهم من العساكر إلى المحمودية بعد خروج جميع الأهالى.

وخرجت مع راغب باشا راكبا عربته لحد مفرق السكة، فنزلت من عربته حيث كان هو متوجها إلى الخديو، وأنا توجهت إلى المحمودية، ولا زلت أسرع فى المسير بقصد أن أدرك أول الناس لأوقف العساكر حتى وصلت بعد المغرب إلى كوبرى المحمودية المارة عليه السكة الحديدية. وهناك انتخبت[1] قطعة أرض خلف المحمودية، ووجدت بروجى فأمرته بضرب علامة التجمع، ولا زالت العساكر تتوارد شيئا فشيئا إلى الصباح، والضباط الذين تركتهم بالإسكندرية ما حضروا بعساكرهم إلا الساعة ٧ ليلا لعدم خلو الطريق، حيث كانت شواطئ المحمودية مزدحمة بالناس والبهائم والعربات وغيرها، والكل يبكى ويصيح على ما حل به.

وفى الساعة الخامسة من الليل تقريبا حضر طلبة باشا وأخبرنى بأمر العساكر المقول بأنهم احتاطوا بالسراى، وأنه ما وجد أثرا لذلك، وأن الخديو مسرور وأرسل معه حسين بك الترك ليبلغنى السلام، وأنه كان مرافقا له لحد الكوبرى، ولكنه لكثرة الازدحام،وشدة الظلام، وعدم معرفة الموقع، رجع إلى الرمل. وفى صباح يوم الخميس ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ رأيت أن الذى تجمع من العسكر لا يبلغ الثلث، وأن معظم الجيش تقدم إلى قدام، وأن الموقع لا يصلح لأنه تحت نيران مقذوفات المراكب، وخلفه الملاحة، فتوجهنا بالعساكر حتى وصلنا إلى محل يقال له عزبة خورشيد الكائنة فى جنوب محطة الملاحة بمسافة خمسة آلاف متر، وهناك أقامت العساكر إلى اليوم الثانى، فتجمع نحو نصفهم وفى اليوم المذكور كان أرسل وابورات مخصوصة من مصر إلى الرمل لأجل ركوب الخديو وفامليته ومن بمعيته

---

(١) وقع الاختيار.

فيها ورجوعهم إلى القاهرة، فتوجهت الوابورات وعادت فوارغ، واتضح أن الخديو توجه بعائلته ومن معه إلى الإسكندرية، وأنه تحت الحرس الإنجليزى.

وفى يوم الجمعة ١٤ يوليو توجهت بالعساكر إلى عزبة كنج عثمان، وهناك اتخذت المعسكر وتجمعت العساكر فيه، وابتدئ فى أعمال المتاريس. وحيث إنه فى ١١ يوليو يوم الضرب على الإسكندرية كان تحرر إعلان بالتلغراف من رئيس مجلس النظارة إلى كافة جهات الحكومة أن البلاد صارت فى حالة حربية، وأن الحكومة صارت فى هيئة عرفية تحت أحكام القوانين العسكرية حسب الأصول، فكل من وقع منه ما يخل بالراحة العمومية يجازى على مقتضى الحكم العسكرى. فترتب لذلك مجلس حربىّ بالجهادية.

ولما أن الخديو توجه إلى الإسكندرية بعد خروج الأهالى والعساكر منها تحت الحرس الإنجليزى، فإما أن يكون أسيرا وإما أن يكون انحاز إلى الجيش المحارب لبلاده. وفى كلتا الحالتين لا يجوز ترك البلاد بلا حاكم حسب أحكام الشرع الشريف الإسلامى. إذ إنه فى الحالة الأولى وهى الأسر لا يجوز أن يكون أسيرا وحاكما ينظر فى مصالح البلاد، كما أنه لا يجوز ترك البلاد فوضى بلا حاكم ينظر فى مصالح أهلها. وفى الحالة الثانية وهى الانحياز فكتاب الله يحكم عليه بخروجه من جماعة المسلمين، وبذلك لا يصح أن يكون حاكمًا عليهم.

من أجل ذلك تحرر تلغراف منى إلى وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى لنظر ذلك فى المجلس[1]، وتحرر للمابين الهمايونى تلغرافا بذلك. وفى ١٧ يولية تقريبًا حضر لى تلغراف من الخديو يوجه علىّ جميع المسئولية، وأنى السبب فى حدوث الحرب، وأن أشغال الطوابى وتركيب المدافع فيها لم يكن ينقطع، وأنه حصل الصلح، ومقتضى توجهى له للمكالمة معى مشافهة. فعلمت من ذلك أنه مأسور وأنه مأمور بطلبى للقبض علىّ، وأنه ينفى عن نفسه بنسبة أسباب الحرب إلىّ، فكتبت له تلغرافا بأن انحياز جنابه إلى الجيش المحارب لبلاده أثر فى قلوب الناس تأثيرا عظيما، والتمست تعريفى بشروط الصلح حتى أتمكن من التوجه إلى الإسكندرية. فلم يكن يجاوبنى بشىء، فكتبت تلغرافا إلى وكيل الجهادية للنظر فيما ذكر فى المجلس، وكذلك تحرر من الخديو ومن راغب باشا الذى كان رئيس النظار

---

(١) عُرف هذا المجلس باسم المجلس الوطنى.

لكافة جهات الحكومة بحصول الصلح وإبطال التجهيزات الحربية، فتعطلت حركة التجهيزات الحربية نوعا مع حصول المناوشات بين مقدمات الجيشين عند حجر النواتية، فكتبت لوكيل الجهادية بنظر ذلك فى المجلس، وأن المناوشات حاصلة بين مقدمات الجيشين، ومن ذلك يعلم أنه لم يحصل صلح. وكتبت للمديريات بإرسال طلبات الجهادية بدون تأخير، ولا يلتفت لأوامر تصدر بشأنها من غيرى.

هنالك[1] عقد مجلس عام بديوان الداخلية للنظر فى كل ما ذكره حضرة وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والأعيان، وتذاكروا فى هذا الأمر الذى دهم البلاد، فقرّ رأيهم على إرسال وفد منهم إلى الخديو بالإسكندرية، يطلبون منه ومن النظار أن يتوجه إلى القاهرة عاصمة البلاد فإن كانوا مطلقى السراح يجيبوهم إلى ذلك، وإن كانوا مقهورين على بقائهم فى الإسكندرية تحت حفظ العساكر المحاربة للبلاد، يعد الوفد إلى مصر، ويخبر المجلس ليرى رأيه.

وتألف هذا الوفد من على باشا مبارك ورءوف باشا، ومن العلماء الشيخ أحمد كيوه شيخ رواق الصعايدة بالأزهر والشيخ على نائل، ومن التجار السيد أحمد بك السيوفى وسعيد بك الشماخ وكيل طرابلس الغرب، وأرسلوا وعادوا إلى مصر ثانيا ما عدا على باشا مبارك والسيد أحمد السيوفى حجزا فى الإسكندرية. وبعودة الوفد علينا بكفر الدوار أفادونا بأن الباطل لا يغنى من الحق شيئا، وأن من غش المسلمين فليس منهم، وأن الذين بالإسكندرية تحت قهر الإنجليز، وأنه لا يستطيع أحد أن يخرج منها إلا بورقة رخصة من الإنجليز، ولكنهم مأمورون بأن يقولوا غير ذلك.

هذا ونشر إعلان من الخديو بختمه فى ٤ رمضان الموافق ٢٠ يولية سنة ١٨٨٢ يعلن الناس فيها بعزلى حيث إنى لم أعمل على مقتضى الأمر الخديوى فى إرسال العساكر إلى جهة العجمى لدفع ومنع عساكر الإنجليز عن تلك الجهة، بل تركت الإسكندرية بلا موجب، وأخذت العساكر، وتوجهت إلى كفر الدوار، فعرض هذا على المجلس أيضا، وصدر أمر من الخديو بالتلغراف إلى وكيل الجهادية بذلك،

---

(١) فى اليوم نفسه (١٧ يوليو).

وبإبطالى التجهيزات الحربية. هنالك عقد مجلس[١] حافل يزيد عن خمسمائة نفس، حضره ثلاثة من البرنسات[٢] وشيخ الإسلام وقاضى مصر والشيخ المفتى والسيد السادات والسيد البكرى وكثير من العلماء الأعلام وبطريرك الأقباط والمطران وكثيرون من القسيسين، وحضره حاخام اليهود ووكلاء نظار الدواوين ورؤساء جميع المصالح ووكلاؤها والمديرون وقضاة المديريات والمفتون الذين بالأقاليم وكثير من نبهاء مجلس النواب وعمد الأهالى ونبهاؤها وأعيان التجار وغيرهم وكثير من ذوات المعية الخديوية والاختيارية من الذوات المتقاعدين. ونظرت فيه جميع الأوراق والمنشورات التى صدرت من الخديو، وما كتب منى.

وبعد المداولة بالمجلس المذكور تقرر فيه توقيف الخديو، وألا يسمع له أمر أصلًا، لكونه خرج عن حدود الشرع الشريف والقانون المنيف[٣]، وتقرر أيضًا وجوب المدافعة عن البلاد، وإلزامى بالمحاماة وبالمدافعة عنها، حيث كنت موجودا مع العسكر بجهة كفر الدوار. وختم بذلك على هذا القرار من جميع أعضاء هذا المجلس وتحرر منه تلغرافيًا للحضرة السلطانية مع ذكر أسماء المشاهير من الموقعين على هذا القرار، وصار إعلانى بذلك رسميًا. فترتب مجلس إدارى[٤] للنظر فى أحوال البلاد ضمَّ حسين باشا[٥] وكيل الداخلية وبطرس باشا وكيل الحقانية ويعقوب سامى باشا وكيل الجهادية وأحمد باشا نشأت ناظر الدايرة السنية وغيرهم، عبارة عن جمهورية[٦] مؤقتة لحفظ نظام البلد إلى أن تنقشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر. كل ذلك ولم أحضر هذا المجلس ولم أشاهده ولم يكن لى فيه رأى حتى إنهم لقبونى بلقب حامى حمى البلاد المصرية، وصاروا جميعا يخاطبونى بهذا العنوان. ولكن أين المنصفون؟ فمما ذكر جميعه يعلم بأدنى تأمل أن

---

(١) المقصود هو المجلس الوطنى المنعقد فى ١٧ يوليو، وما جرى فيه (تكملة لما سبق أن ذكره).

(٢) هم: الأمير إبراهيم، والأمير أحمد، والأمير كامل، أولاد عم الخديو.

(٣) كان للشيخ محمد عبده دور فى هذا الاجتماع، فطالب بعزل الخديو، وأبدى خوفه من أن يُقدم على تسليم مصر لبريطانيا، كما فعل باى تونس مع فرنسا.

(٤) عُرف باسم المجلس العرفى.

(٥) هو حسين الدره ملى.

(٦) المقصود بهيئة تكون بمثابة حكومة صغيرة تُسيس أمور البلاد، حيث كان النظار بصحبة الخديو فى الإسكندرية.

هذه الحرب التى لم يسبق لها نظير فى سرعة تنوعها وتشكيلها بأشكال غريبة متباينة كانت شرعية قانونية، وأنى مأمور بالمحاربة بمقتضى قرار المجلس المشكل تحت رئاسة الخديو.

وبمقتضى ما ذكر فى أمر الخديو الصادر بعزلى، وأوامره التى نشرت فى شأن ذلك الدالة على أنه أمرنى بالمداومة على الحرب، وعزلنى بسبب انهزام الجيش، ومأمور بالمدافعة والمحاماة عن البلاد بمقتضى قرار المجلس العام الذى هو عبارة عن الأمة المصرية على اختلاف أديانها ومذاهبها، وأن الخديو صار لا حق له فى الحكم على البلاد التى قرر أهلها بخروجه عن حدود الشرع والقانون.

ومن المعلوم أن الجهاد على مقتضى الشريعة الإسلامية إما أن يكون بالنفس أو بالمال أو بالرأى، وقد أدت الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها ما يجب عليها فى سبيل المدافعة عن الوطن، فمنهم من تبرع بنصف ماله، ومنهم من تبرع بماله أجمع، ومنهم من تبرع بثلاثين رأسا من الخيل وثلاثة آلاف إردب من الغلال. يعلم ذلك من التلغرافات الواردة من أهالى المديريات بدون واسطة إلى ديوان الجهادية أو إلينا بكفر الدوار، ومن التلغرافات التى كتبت من طرفى للمتبرعين بالتشكر لهم، ويعلم أيضًا من التلغرافات الواردة لنا من حكام المديريات حتى إنه فى مدة ثلاثين يومًا اجتمع نحو المائة ألف نفس من العساكر والمتطوعين والعربان، وملئت الأشوان بالذخائر الوافرة. واجتمع نحو الثمانية آلاف من الخيول والبغال من المتبرعين، ونحو الأربعة آلاف جمل، وكثير من النقود من غير واسطة. تلك غيرة لم يسبق لها نظير من عهد صدر الإسلام للآن.

وأما السراى فجميع الذوات والعلماء وأعيان البلاد كانت تأتينا بدون انقطاع فى كفر الدوار وحتى فى رأس الوادى، وكل يجود بما عنده من الرأى. وبناء على ما ذكر تكون الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها إما أنها محاربة بالحق والقانون، وإما أنها عاصية باغية بالقوة والقهر المنافيين للحق والعدل هذا. وأما ما تبرعت الناس به من البقر والجاموس والأغنام فهذا شىء لا يمكن تقديره، ومن جملة التبرعات توارد الخوخ والعنب والبطيخ للجيش من جميع الجهات بدون انقطاع، واضح ذلك بقيودات التلغراف بكفر الدوار والتل الكبير ورشيد ودمياط حتى ومن جملة

المتبرعين دائرة رياض باشا وخيرى باشا[1] مع كونهما غائبين عن مصر، وجميع دوائر أعضاء العائلة الخديوية[2]. ومع كل ذلك كانت المخابرات الشفرية التلغرافية لا تنقطع ما بين رأس التين وبين بعض الناس بمصر والآستانة إلى أن حصل تعطيل التلغراف أخيرا من جهة رأس التين، وفيما ذكر تبصرة وذكرى للمنصفين.

هذا وفى ابتداء حضورنا إلى كفر الدوار وجدنا رعاع العربان والمولدين منهم جارين النهب والسلب فى المهاجرين من الإسكندرية، وفى الأباعد والعزب وبلاد مديرية البحيرة فى هياج عظيم حتى إن المديرية كتبت لنا تلغرافا بأن العربان هددوا نفس العزب المجاورة لدمنهور قاعدة المديرية، وصار قتل رجل قبطى وزوجته وتركا طفلا صغيرا رضيعا من أحد العزب وصحة أسمائهم بالأعراض المتقدم لنا من أحد أقارب المذكورين. هذا الأمر الذى أحزننى كثيرا، ولم أزل أتذكر وأتصور صورة ذاك الرضيع المسكين، ففى الحال كتبت للمديرية بسرعة القبض على الفاعلين والتحفظ على حياة ذاك الرضيع.

وتكررت منى الاستعجالات الأكيدة حتى صار ضبط الفاعلين واعترافهم بقتل الرجل المذكور وزوجته، وها هم موجودون للآن بسجن المديرية لا أعلم ماذا تم نحوهم. من أجل ذلك أرسلت ما يلزم من العسكر لحفظ المديرية والبلاد والعزب وحفظ أهلها وأموالها ومنع تلك التعديات، وتحرر للمجلس بتغيير مدير هذه المديرية إبراهيم بك توفيق الترجمان. وقد علم أخيرا أن المدير المذكور كان أعطى تعليمات إلى مشايخ العربان بإجراء نهب البلاد عند حصول الحرب لأجل تفريق قوة العسكرية، وتحرر لمدير الدقهلية بإرساله إلى الجهادية محفظا عليه، وتحرر للجهادية بما علم عنه وبلزوم تحقيق ما نسب إليه بالمجلس العرفى. وأما مشايخ العربان، فإنهم لم يسمعوا تلك الأوامر المغايرة للإنسانية، إلا أنه صار إشاعتها بين رعاع الناس والمولدين من الأعراب، ففعلوا ما فعلوا وصار كثير منهم بما معهم من المنهوبات،

---

(١) هما من أعداء الثورة، فكيف يتبرعا لها؟ ربما يكون القائمون على دائرتيهما الذين قاموا بذلك، وإن كان على مبارك الذى لم يؤيد الثورة، قد تبرع للجيش أثناء الحرب مع الإنجليز من منطلق المساهمة فى المجهود الحربى للدفاع عن مصر ضد الغزاة.

(٢) كان التأييد للثورة متمثلًا فى المعنوية العالية للشعب الذى كان يشجع ويبارك ويؤيد من ناحية، وتلك التبرعات بمختلف أنواعها التى حفلت بها أوراق الثورة من ناحية ثانية، والجهاد بالنفس والانضمام للحرب من ناحية ثالثة.

وأرسلوا للمجلس بإفادة دالة على ما توقع منهم وما وجد معهم لمجازاتهم. واضح ذلك فى قلم الوقوعات[١] فى أركان حرب الذى كان بكفر الدوار، ثم حكم المجلس عليهم بالسجن بالطوبخانة بمدد معلومة.

وبما حصل من زيادة تيقظ العساكر التى تفرقت بأنحاء المديرية المذكورة، تبدد الخوف بالأمنية واطمأنت الخواطر، واستقامت الأحوال، يشهد بذلك الخواجة إبراهيم رجل إسرائيلى أورباوى عزبته بالقرب من بركة غطاس وصادر المديرية. كما أنه حصل بمديرية طنطا هيجان من المهاجرين الإسكندرانيين[٢]، قتل فيها بعض الأورباويين بنفس المديرية، من أجل ذلك صار استبدال المدير إبراهيم باشا أدهم، وأرسل إلى المجلس لمحاكمته على عدم حفظ الأمن فى المديرية. وفى الحال أرسلت العساكر البيادة والسوارى إلى طنطا وزفتى والمحلة وغيرها من مراكز المديرية، فاستتبت الراحة، وحصل الأمن.

ومن قبل ذلك كان تحرر منى منشور إلى كافة المديريات والمحافظات وجميع الدواوين بالمحافظة على أرواح جميع الأورباويين الذين بالمدن منهم، والذين بالأرياف، وحفظ أموالهم حيث إن من أقام منهم معنا آمنا فله ما لنا وعليه ما علينا وإنهم إخواننا فى الإنسانية حتى ولو كانوا إنجليزا، إذ إنه لا يعد محاربا إلا الذين بأيديهم السلاح فى ميدان الحرب، ومن أراد منهم التوجه إلى بلاده فعلينا حفظه وصيانته كما نحافظ على أنفسنا وأولادنا إلى أن يبلغ مأمنه حسب أحكام الشرع الشريف المحمدى.معلوم ذلك بدفاتر كل ديوان من دواوين الحكومة حتى إن من كان يريد التوجه منهم إلى الإسماعيلية كان يتعين معهم عساكر لمحافظتهم لحد تلك الجهة يعلم ذلك المسيو دليسبس والمسيو مازيتى قنصل دولة إيطاليا بالزقازيق والمسيو دبون قنصل فرنسا بها أيضًا، والتحريرات التى تحررت منى تلغرافيا بهذا الخصوص للجهادية والضبطية والمنصورة والزقازيق وغيرها.

وبما حصل من تلك النصائح والتنبيهات كانت جميع الأهالى مع من بقى من

---

(١) الوقائع المسجَّلة.

(٢) لم يكن السكندريون بمفردهم، وإنما انضم إليهم الفلاحون، وانصب الاعتداء على بعض اليهود والنصارى والأروام (اليونانيين)، وذلك لما ذاقوه على أيدى الأولين والأخيرين، وخاصة فيما يتعلق بالربا وما أسفر عنه من ضياع، وقد شجعهم على فعلتهم أحد الضباط الثائرين.

الأورباويين إخوة فى غاية التودد حتى ترتب على ذلك إعادة كثير من الإسماعيلية وبورسعيد من التجار الأورباويين إلى مصر، معلومة أسماؤهم بطرف إبراهيم بك فوزى مأمور الضبطية وقتها. وكذلك كان تحرر منى لضبطية مصر ومديريات الوجه البحرى بتوزيع مهاجرى الإسكندرية على البلاد والبيوت الشهيرة، وأن يدعو الناس لإعانتهم، وأن يسكنوهم فى مساكن طيبة ويحسنوا إليهم غاية الإحسان فى مدة هجرتهم. وبذلك حصل لهم من إقبال الناس عليهم بالإكرام ما لا يقدر قدره.

وفى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٨٢ وقع الضابط دادلى دوشير الإنجليزى أسيرًا فى يد عساكر فرقة (أبو قير) فأرسله له قومندان الفرقة المذكورة خورشيد باشا طاهر مكرما فاستقبلته وأجلسته بجانبى، وأزلت روعه واتخذته صديقا لى وأكرمت مثواه، ثم أرسلته إلى مصر[١] بإفادة للجهادية بأن يصير إقامته فى محل يليق لإقامة الأشراف ويتعين له من يؤانسه من الضباط الذين يعرفون اللغة الإنجليزية ويكرمونه غاية الإكرام، وأن يقبلوا منه التلغرافات والمحررات التى يكتبها لوالدته أو لرئيسه أو لأى جهة حتى إن والدة الضابط المذكور حررت لى تلغرافا من لندن تشكرنى على حسن عنايتى بولدها، كما تحرر من طرفه. وتخصص لإقامته السراى المعدة لتعليم أولاد الخديو. ثم وقع ضابط أسير قيل إنه طليانى، فصار إكرامه وأرسل أيضا بالإفادة لإقامته مع دادلى دوشير، لكونه كان مستخدما فى الجيش الإنجليزى.

ثم جىء لى بضابط بحرى طليانى وجدته دورية فرقة مريوط وهو منفرد ماش بأرض الملاحة، لا ملابس عليه أصلا إلا قميص فقط ولا قوة له على السير فألبسوه ملابس أحد العسكر، وأرسلوه مكرما، فوجدته ضعيفا وأقدامه متورمة من تأثيرات الأملاح عليها، فأكرمته وأرسلته إسبتالية[٢] كفر الدوار، واستحضرت له ملابس مخصوصة من مصر،ولا زال هناك إلى آخر يوم، ولا أدرى محله الآن. وهذا الضابط كان خاطبنى عنه مسيو دليسبس قبل وجوده، وعند حضوره انقطعت المخابرات التلغرافية بين مصر والإسماعيلية، فلم أمكن إعطاء خبر عنه كما أنه أبى أن يعطى عنه أخبارا إلى قنصل دولته، وأسباب وجوده بدون ملبوسات، قال إنه كان ألقى جزمته ومشى فتاه فى هذا المكان، فاحترقت قدماه من الأملاح، فقطع قطعة من ملابسه

---

(١) عرفت وقتذاك بمصر المحروسة، وهى القاهرة.

(٢) مستشفى.

وربط قدميه بها، ومشى بها حتى ثقلت عليه الأربطة من تعلق الأتربة والطين بها، فخلعها من أقدامه وقطع غيرها وربط قدميه ثانيا، وما زال على هذا المنوال حتى قطع جميع ملابسه ولم يبق معه إلا قميص فقط.

وكذلك ضبط اثنان من ضباط وواحد حكيم[1] وتسعة عساكر كانوا خرجوا من فلوكة إلى البر جهة (أبو قير) وإرسالهم لطرفنا قومندان فرقة (أبو قير) مع الإكرام بالتحقيق اتضح أنهم نمساويون من مركب نمساوية، وكانوا أتوا إلى تلك الجهة عن غلط، حصل من عدم معرفة الخرطة جيدا لتغيير الباطنطة[2] من محل الصحة. وجاءتنا مكاتبة من قنصل النمسا فى الإسكندرية، فأرسلناهم مكرمين إلى مركبهم يتحدثون بما لاقوه من الإكرام، وكذا الضابطان الاثنان اللذان صار ضبطهما بمعرفة طلائع فرقة الصالحية، وأرسلوا إلى مصر بغاية الإكرام بما وجد معهم من النقود التى تبلغ ثلاثمائة جنيه إنجليزى، وكذلك الضابط الذى وقع أسيرا يوم اختلاط سوارى الجيشين فى معركة القصاصين، أرسل مكرما لإقامته مع دادلى دوشير. تلك كانت معاملتنا مع الأسرى، ونحن متهمون بالتوحش، فما بالنا الآن لا نعامل بمعاملة مثلها ونحن مستسلمون بأنفسنا لدولة عظيمة ذات شرف وذمة، هى إنجلترا وما بالنا وضعنا فى سجن خصمنا[3] الذى طالما تمنى وقوعنا فى حالة كهذه كأنه لم يكن محاربا لدولة الإنجليز معنا، فنكل الأمر فى فضل ذلك لنصراء الإنسانية.

وأما احترامى للمنافع العمومية فمثبوت بما حررته مرارا إلى جناب مسيو دليسبس تلغرافيا وما ورد لى من طرفه تلغرافيا بخصوص احترام قنال السويس كل الاحترام، إلى أن شغلته المراكب الحربية، وأجرت الضرب على جهة نفيسة، فكتبت إلى المسيو المذكور من طرفى بأنه ما دام أن القنال اتخذ ميدانًا للحرب، فقوانين الحرب تقضى علينا باعتباره كذلك، فأجابنا بأن نعمل بما يسوغه لنا قانون الحرب، هنالك تحرر تلغراف من طرفى بذلك إلى قومندان فرقة الخط الشرقى الجنرال الكبير راشد باشا

---

(١) طبيب.

(٢) هى كلمة من أصل أجنبى Patent، وهنا تعنى الطريق المباح أو المرخص.

(٣) المقصود الخديو توفيق.

حسنى وباشمهندس عموم الاستحكامات محمود باشا فهمى[1]، وبإجراء سد الترعة الحلوة والقنال إن أمكنهما ذلك حسب ما تقتضيه الأحوال الحربية.

ومن الاطلاع على صور محررات جنابه[2] إلى ولده وزوجته فى باريس يعلم شدة حرصنا على احترام القنال المذكور وكذلك مداومة مراكب البوسطة على السفرية بعد حصول الحرب. ولما حصل توقيف من العساكر عن السفر وتحرر لنا عن ذلك من وكيل السفن بالسويس، فأمرته تلغرافيًا بمداومة السفرية حسب المعتاد، حيث إن ذلك من المنافع العمومية، مع تفهيم العسكر بذلك، فكانت البوسطة منتظمة فى سيرها لحين خروج العساكر الإنجليزية إلى السويس.

وبالنسبة لحرصنا على احترام القنال، لم يكن أرسل إلى الجهة الشرقية قوة عسكرية لحفظها، لأننا كنا لا نتصور أصلا انتهاك حرمة القنال، من أجل ذلك لم يصر إيجاد متاريس وطوابى للمدافعة تحمى بعضها بعضا. فلما اتخذت الإسماعيلية مركزا للجيش الإنجليزى، وحصلت المحاربة مع العسكر المصرية الذين كانوا فى المحسمة لأعمال المتاريس فى يوم الجمعة الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ والخيل الإنجليزية أخذت عليهم خط الرجعة، انهزمت عساكرنا ومعهم راشد باشا وخالد باشا. وأما المهندس الشهير محمود فهمى باشا فإنه أخذ أسيرا لما ناله من شدة الأسف على ترك هذا الموقع المهم الذى لم تسمح له نفسه بتركه وفراره لإلحاقه بالتل الكبير.

هنالك توجهت فى يومها من كفر الدوار إلى التل الكبير اكتفاء بوجود طلبة باشا بفرقة كفر الدوار، وكذلك على باشا فهمى[3] قام من مصر ومعه الآلاى الأول من البيادة إلى التل الكبير لتقوية عساكره.وتتابع ورود العسكر طوبجية وسوارى وبيادة، وأخذ فى عمل المتاريس والطوابى بقصد توصيلها من الصالحية إلى التل الكبير إلى الدار البيضاء[4] إلى جبل عتاقة بوضع تتمكن به العسكر من أن تحمى بعضها بعضا،

---

(١) أجاد محمود فهمى فن إقامة التحصينات، وخاصة فى كفر الدار، وكانت له مجهوداته كذلك فى الميدان الشرقى.

(٢) أى دلسبس.

(٣) أبلى بلاء حسنا فى معركة القصاصين الثانية (٩ سبتمبر ١٨٨٢) وجُرح فى ساقه.

(٤) تقع على بعد ٥٦ كم شرق القاهرة، واختار موقعها عباس حلمى الأول، وأقام فيها قصرا للرياضة البرية، وأطلق عليها هذا الاسم الذى سرعان ما اندثر.

وبذلك يمكن المدافعة عن البلاد من غير خسارة كما حصل فى جهة كفر الدوار. ومع ذلك حصل حركتان حربيتان بجهة كبرى القصاصين، ثبت فيها الجيشان المتحاربان ثباتا عظيما، وجرح فى ثانيتهما الجنرال الكبير راشد باشا حسنى وسعادة على باشا فهمي، فأرسلا إلى مصر، وجاء بدلهما على باشا الروبى ليكون قومندانا للجيش.

ومن قبل أن نتمكن من إتمام عمل المتاريس كما ذكر، عاجلتنا العساكر الإنجليزية والهندية، وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية السوارى التى تطير معها أينما طارت على حين غفلة فى ظلمة الفجر. واشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين، ثم أتت فرقة سوارى بطوبجيتها من خلف الجيش، فكان ذلك سببا لخذلان الجيش وتشتته فى يوم الأربعاء ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ميلادية.

ولما حصل هذا الخذلان توجهت من الجبل إلى بلبيس وسوارى الإنجليز على مقربة منى، وهناك تقابلت مع على باشا الروبى فتوجهنا إلى الشاطئ، ثم ركبنا وابور السكة الحديدة، وتوجهنا إلى القاهرة فوجدنا أهل المجلس[1] جميعهم فى ديوان الجهادية، وحضرات البرنسات حضروا أيضًا بالديوان. وبعد المداولة والتيقن بأن دولة الإنجليز لا تريد الاستيلاء على مصر، تقرر أنه حيث الأمر كما ذكر، فلا لزوم للدفاع بعد ذلك اعتمادا على أن دولة الإنجليز موصوفة بحب الإنسانية والاعتدال فى كل أمر، وأنها متى تحققت الأمر، ووقفت على أفكار أهل البلاد، لا شك أنها تسعى فيما يوجب تحريرهم وراحتهم وحفظهم.

وبناء على ذلك كُتب تلغراف من طرفى لحكمدار فرقة العباسية المكونة من خمسة وثلاثين ألف عسكرى سعادة رضا باشا فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بأنه إذا حضرت عساكر الإنجليز، ترفع لهم الرايات البيضاء، ويتقابل مع رئيس العساكر الإنجليزية، ويخبره بانتهاء الحرب اعتمادا على شرف دولة الإنجليز، وحرصا على حفظ البلاد

(١) انعقد المجلس الوطنى فى اليوم نفسه، حيث نوقشت الأوضاع، واختلفت الآراء، ورئى إنشاء خط دفاعى فى ضواحى القاهرة، ولكن كان السيف قد سبق العزل، ورفع المجتمعون عريضة لتوفيق بالاستسلام، فى وقت كان الإنجليز يصلون فيه أفواجا، وخرج إليهم القاهريون من باب الشعرية والحسينية والدرب الأحمر بالعصى والهراوى، ولكن قضى على تلك الحركة فى الحال على أيدى السلطة الجديدة، وكانت البداية لخضوع مصر للاحتلال البريطانى.

من الدمار. وعند الغروب أتت العساكر السوارى البريطانية والهندية، فرفعت لهم الرايات البيضاء، وتوجه رضا باشا لمقابلة الچنرال لو[1]. وكذلك أرسلت إبراهيم بك فوزى ضابط مصر لمقابلة الچنرال أيضًا، وأُرسل وفد قبل ذلك من قبل المجلس لمقابلة الچنرال ولسلى فى بنها.

وبعد الغروب بساعة ونصف حضر إبراهيم بك فوزى المذكور وأخبرنى بأن الچنرال لو الإنجليزى يريد مقابلتى فى العباسية، وكذلك قومندان فرقة عساكر كفر الدوار. كان حضر فى هذا اليوم إلى الديوان فجأة تلغراف من قومندان فرقة العباسية بأن الچنرال المذكور يريد مقابلته فى هذه الساعة، وتوجهنا جميعا إلى طرف الچنرال لو بالعباسية، وكذلك أرسلت له على بك يوسف[2] رئيس الآلاى الذى فى القلعة حسب طلب جنابه.

ولما تقابلت مع الچنرال ومعى طلبة باشا فقال الچنرال لو المذكور هل تقبلا أن تسلما أنفسكما أسرى للدولة الإنجليزية، فقلنا نعم على شرط أن نكون فى ذمة دولة إنجلترا وشرفها، وخلعنا سيوفنا وسلمناها ليد الچنرال لو نيابة عن القائد العمومى الچنرال ولسلى، وقلنا له سلمنا سيوفنا وأنفسنا إلى ذمة إنجلترا وشرفها، فصوت أولادنا وصوت الإنسانية يطالبان إنجلترا وكل الإنجليز بحقوقنا، وجنابكم بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية وعن كل إنجليزى، واعلم أنه موجود بالعباسية خمسة وثلاثون ألف عسكرى، ومثلهم فى كفر الدوار ورشيد ودمياط وغيرها، ولكن حرصا على البلاد، وحقنا للدماء، واعتمادًا على شرف إنجلترا وأنها لا تريد الاستيلاء على البلاد المصرية، قد أبطلنا المدافعة وسلمنا أنفسنا لذمتكم وشرفكم. فقبل ذلك منا وبقينا بطرفه ثلاثة أيام ثم حضرنا إلى عابدين ومكثنا بطرف الكولونيل تين قومندان آلاى الغوارديا الإنجليزية لغاية ٤ أكتوبر سنة ١٨٨٢ ونحن فى غاية الراحة.

ثم صار تسليمنا إلى السجن المصرى فى يوم الخميس الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٢ فذاك اليوم كان يوما عظيما حيث فرقوا بينى وبين صاحبى طلبة باشا الذى

---

(١) هو دروری لو Drury Lowe القائد الإنجليزى لفرقة الفرسان الذى تولى مهمة الزحف على القاهرة.

(٢) هو المعروف بعلى خنفس ـ مقدم جنود خطوط التل الكبير ـ والذى خضع لإغراءات محمد سلطان، فأصبح من أتباع الخديو، وأعطى معلومات خاطئة لعرابى عن تحرك القوات البريطانية، فى الوقت الذى كان مرشدا لهم عبر الطريق إلى التل الكبير.

كان يؤانسنى وأؤانسه ووضعونى فى أوضة لا شىء فيها ولا كرسى وقفلوها على، فمكثت فيها حتى جاء خادمى فلم يسمح له السجان بدخول شىء غير سجادة ولحاف، ثم دخل علىّ الضابط الموكل بإهانة المسجونين وفتشنى، وأخذ ما كان معى من الأوراق الخصوصية لإرسالها لمجلس التحقيق، وخرج هو ومن معه من رجال الإهانة، ثم دخل بعده طائفة من حاشية الخديو، أعرف منهم عثمان بك رأفت ناظر الإسطبل الخديوى وحسين أفندى فوزى من قلم تشريفات خديو. وتقدم إلىّ رجل من الأتراك الذين يركبون دائما ويسيرون أمام الخديو لإعدام الحياة عند اللزوم، وصار يفتشنى ويخرج قميصى من تحت البنطلون، فلم يجد معى إلا أحجبة كنت حاملها لحفظ أولادى الأطفال من داء التشنج العصبى الذى كانوا يموتون به[1]. فأخذها بعنف وقوة، وكنت أقول له دعنى أخرجها إليك، فيقول لا أنا مأمور بصوت مزعج حتى إنه أخرج الجزمة من قدمى وفتشها ثم خرجوا.

وبعد ساعة فتح الباب وإذا بمحرر جريدة الأهرام[2] اسمه (بشارة تقلا) فظننت أنه جاء ليزورنى ويهون علىّ المصاب لكونه كان معنا قبل الحرب، وكان يحلف بدينه وشرفه إنه كواحد منا، وإنه من دعاة الحرية، كنا نجله ونكرمه، وإذا به أتى بوقاحته ليشمت بنا، وقال لى بنفور: عرابى أى شىء سويت، رأيت أى شىء صار لك، فعلمت أنه ذو وجهين وأنه لا شرف له، فلم أجاوبه فتوجه. وبعد ساعة أخرى دخلت طائفة ثانية من الأتراك أتباع دايرة الخديو، وبعض عساكر المراسلة الذين هم بمعيته، وفتشوا السجادة واللحاف وألقوهما يمينا وشمالًا وخرجوا. وأقاموا ليلتها خفراء على المسجونين، وفى يوم ٦ أكتوبر توجهوا لأشغالهم.

وفى ليلة ٩ أكتوبر الساعة ٨ إفرنكى من الليل يوافق الساعة ثلاثة ونصف عربى تقريبا بعد أن خلعت حوايجى ونمت، وإذا بالباب قد فتح ودخل علىّ جماعة نحو

---

(١) كانت مسألة التبرك بوسائل متعددة، والاعتقاد بأنها تحقق المطلوب من الأمور السائدة آنئذ.

(٢) مع اشتعال أحداث الثورة، تعرَّض بشارة وسليم تقلا للنقد اللاذع، بالرغم من أن الأهرام كانت فى البداية تنشر خطب عرابى والنديم بعد تلخيصها، ولكن قادةالثورة لم يرتاحوا لها، فكثيرا ما وُجهت إليها الإنذارات، وقد كان لتلك العلاقة التى ربطت الخديو بآل تقلا الأثر فى تلك الكراهية التى شكلت عاملًا مشتركا بين رجال الثورة ومسئولى الصحيفة، وبالتالى لم توضع فى الاعتبار محاولات الاعتدال التى حاولت الأهرام الالتزام بها.

العشرة أشخاص أو اثنى عشر شخصا ما حققتهم لشدة الظلام، وقال قائل منهم بصوت قبيح هائل: يا عرابى، أما تعرفنى فظننت أنهم مأمورون بقتلى، إلا أنى تثبت وقلت له لست أعرفك، فمن أنت؟ وما الذى تريده فى هذا الوقت؟ فقال: أنا إبراهيم أغا وسبنى وشتمنى بقوله يا كلب يا خنزير أنت كنت عايز إيه منى وتفل علىّ ثلاث مرات، وعلمت أنه إبراهيم أغا تتونجى الخديو الذى كان توجه إلى الشام هربا بسبب سرقة الألماس من سراى عابدين، لأجل عدم التحقيق مع محمد حسن الذى أرسل إلى البحر الأحمر ليلقى فيه كما سبق ذكره.

وها أنا فى أوضة ذات منفذين من جهة واحدة عليهما أقفاص من حديد وخارجهما شمسيات من خشب مسمرين لا ينفتحان أبدًا. وعند مجىء الطعام من البيت بصحبة الخادم يأخذه منه أحد الأتراك خفراء السجن ويفتح الباب، ثم يدخل الطعام داخل الباب ويقفله سريعا ويتركنى وشأنى كأنى وحش داخل قفص، إلا أن قفص الوحش متجدد الهواء دائما وينور له ليلا ونحن محرم علينا القيان[1] وغيرها مطلقا مبالغة فى الإهانة.

وكذلك صار القبض على جميع الضباط من رتبة البكباشى فصاعدا وبعض الصاغات واليوزباشى والملازمين وسجنوهم، وكذلك على كثير من العلماء وأعضاء مجلس النواب والأعيان من العمد والتجار وغيرهم حتى غصت بهم السجون فى مصر والإسكندرية والمديريات، وظهر مصداق قول أعضاء مجلس النواب إن بقاء المجلس لا يكون إلا ببقائى فإن خرجت من مصر فلا مجلس ولا بلاد، بل بعد إزالة جميع الأعيان والمتنبهين من المصريين وتبعيدهم وخراب بيوتهم، يصير أهالى مصر عبيدا أرقاء يستخدمون فى أقذر الخدمات.

تلك المحاربة التى لم يسبق لها مثيل حيث إن الخديو تسبب فى حضور المراكب الحربية إلى مصر، ثم كان أول مسارع إلى الحرب ومحرض عليها حتى التبس علينا الأمر، ثم انحاز للجيش المحارب لبلاده، ثم استمرت الحرب باسمه فكانت عساكر الإنجليز تقاتل باسم الخديو اعتمادا على أن الجيش المصرى عصاه، والخديو ينشر المنشورات بأن عساكر الإنجليز لا تريد الاستيلاء على البلاد. وهكذا تنوعت فى

---

(١) جمع قينة وهى الأَمة.

صفاتها، وظهرت فى أشكال غريبة، فإذا كان الجيش عاصيا على زعمهم، فما بال الناس جميعا ينظرون إلى كثير من الذوات الملكية مسجونين، وكثير من علماء الإسلام وأعضاء مجلس النواب وأعيان العمد والتجار ونبهاء الدواوين وغيرهم من الأهالى صار سجنهم حتى ملئت السجون بكافة المديريات والمحافظات وغيرها.

وإذا كان الجيش والمذكورون وباقى الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها كلها على رأى واحد مشتركين فى أمر واحد وهو الحق، فما بالنا نرى أول دولة مشيدة لأركان العدل والحق تقهر تلك الأمة سيئة البخت، إرضاء لشخص واحد على أن هذا الشخص لا تجيز له شريعة قومه أن يكون أميرا عليهم أبدا، هذا مع احترام دولة إنجلترا للشرائع والأديان، وكيف تكون تلك السيرة فى بطون التواريخ لدى عالم الإنسانية، فنكل الحكم فى ذلك لشرف الأمة الإنجليزية.

إن مصر لم تكن محاربة لدولة الإنجليز أصلا، ولكنها كانت مدافعة عن نفسها فقط، حرصا على إعادة المودة مع دولة إنجلترا المحافظة على حقوق المصريين منذ زمن مديد، وطلبا لبقاء أبواب الصلح مفتحة، واعتمادا على أنها متى تبينت الحقيقة لا تظلم المصريين حقوقهم. وحجتنا فى ذلك ما هو مشاهد فى تحسين حالة الزراعة وحفظ النيل، وعدم ما يخل بالراحة العمومية التى بها يتخيل أن البلاد لم يكن فيها حرب أصلًا. هذا مع حفظ أملاك الأورباويين وزراعاتهم فى العاصمة والأرياف، وغير ذلك حصول التسليم مع وجود سبعين ألفا من العساكر والمتطوعين، وكثير من الأسلحة والذخائر الحربية، فضلا عن كثرة الترع والجسور والخلجان التى يستعان بها كثيرا فى المحاربات، خصوصا فى مدة النيل، فإذا كنت عاصيا فكيف أسلم نفسى مع وجود تلك القوات الكبيرة الكثيرة معى،والبلاد مستعدة لإعانتى بالرجال والمال، وإذا تقطعت جميع الأسباب فكيف أسلم نفسى،ألم تكن أرض الله واسعة فأهاجر فيها، أو كنت أتوجه إلى لندرة[1] فأحتمى فيها إن فى ذلك لتذكرة لمن يتذكر.

فالحق والحق أقول: إنى لست بعاص وإنما قمت وقامت البلاد أى الأمة المصرية فى طلب تحرير بلادها مع غاية الشرف وحفظ الناموس، لا لغاية شخصية كما يفترى المبطلون، بل إنى مكلف بحفظ البلاد من طرف الحضرة السلطانية[2] حيث تبين

---

(١) هى لندن.

(٢) أى السلطان العثمانى.

بعظمة إخلاصى وسوء مقاصد الخديو، كما ورد لى بذلك كتاب من حضرة الشيخ محمد ظافر من خواجى الذات الشاهانية[1]، وكتاب آخر من سعادة أحمد باشا راتب ياور الحضرة السلطانية موجودان بطرفى للآن. ثم إنى صرت قائدا للجيش فى المدافعة عن البلاد بوجه الشرع والقانون وأمر الخديو والمجلس أولا وقرار الأمة ثانيا، وليس بعد ذلك بدليل ولا برهان. هذا ما انتهى إليه البيان فيها حضرات المحامين عنى ذو الشرف المستر برودلى ومستر نابيير ذو الشرف ومستر إيف ذو الشرف. ويا حضرات نصراء الإنسانية والمحامين عن الحق بأنفسهم وبأموالهم من غير أن تأخذهم فيه لومة لائم صديقى الأمين مستر بلنت ذو الشرف والكمال والمشتركين معه من أحبائه المحافظين على شرف الإنسانية بإنجلترا، هذه الرسالة كتبتها بيدى عما صار من الحوادث الابتدائية والانتهائية على مقتضى الحق والإنصاف بدون شك فيها ولا ريب وليس بعد الحق إلا الضلال.

انتهى

١٦ ذو الحجة سنة ١٢٩٩ هجرية

موافق ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٢

أحمد عرابى المصرى

---

(١) هو شيخ السادة الشاذلية، وشيخ الحضرة السلطانية. وخواجى جمع خوجة وتعنى المعلم.

الملحق الثانى

رسالة[1] من عبد الله أفندى نديم إلى صديقه أحمد عرابى باشا فى سيلان

الأولـــى

فيا ابن الحسين ويا قرة العين لك العذر فقد بعت نفسك لله، وأبليت فى الجهاد بلاء حسنا، وأظهرت الحمية والغيرة وهديت الضال بعد الحيرة، فطار صيتك فى الممالك وفتحت لسيرتك المسالك، ولكنك كنت فى بلاد أمراؤها ذئاب وأهلها أحزاب، كل حزب يميل إلى دولة ولا يحب لك تلك الصولة. فباعوك بثمن بخس دراهم معدودة وما هو إلا عشرة آلاف جنيه منقودة، قبضها أبو سلطان ولم يخش العار ولا اسود وجهه من نشرها فى جرائد الأخبار. وما باعوك بل باعوا الدين والأعراض، ولا سلموك وإنما سلموا البلاد والرياض. وما عليك من وطن باعه أهله وجمع أضرّ به جهله. ومن يوجه إليك من أى قوم لوم، ولو كانت هذه الأحزاب مع يوشع ما شمّ للنصر ريحا ولا تمّ له فتح أريحا. ولو كانوا مع طالوت ما قتل داود جالوت. ولو كانوا مع شيشاق المقدام ما أخذ خزائن سليمان من رحبعام. ولو كانوا مع الآشورية ما تمكنوا من أسر منسّى ملك العبرانية. ولو حمل بهم إسكندر فى الصحارى ما تم له

(١) هى مجموعة من الرسائل، محفوظة بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية. وفى عام ١٩٥٦ نشرت مكتبة الأنجلو المصرية كتابا بعنوان «عبد الله النديم ومذكراته السياسية» من تأليف د. محمد خلف الله أحمد، ضمّنه الرسائل مع سد القليل من الفراغات، ونقل ما كتبه النديم بخصوص «تاريخ مصر فى هذا العصر» وتناول فيه مقتطفات منذ ما قبل حكم محمد على حتى هزيمة الثورة العرابية. وقد آثرنا هنا الاكتفاء بالرسائل، وأرفقنا معها رسالة أخرى منشورة فى كتاب د. على الحديدى عن «عبد الله النديم خطيب الوطنية» الصادر ضمن سلسلة أعلام العرب، رقم ٩، د.ت.

الفتوح ولا قتل دارا. ولو كانوا مع شداد بن عاد ما فتح الهند والشام والعراق وأوغل في البلاد. ولو كانوا مع ملوك كندة الأخيار لألبسوهم ثوب العار. ولو كانوا مع الخلفاء ملوك الإسلام ما تم لهم فتح هذه الممالك العظام. ولو... ولو.... ولو....(1).

ومن يرجو الظفر بالحرب بأناس أجسامهم في الشرق وأرواحهم في الغرب. استحكم فيهم الجهل وتمكن فيهم بغض الأهل. ولا يعترض على قولنا الجلى بإبراهيم بن محمد على، فإن البلاد كانت في الهمجية ولم تلعب بهم اليد الأجنبية. وكانوا يساقون إلى النار لا للدين ولا لحفظ الذمار. أعيانهم في قيد الاستعباد وأمراؤهم في يد الاستبداد وأهواؤهم تجتمع تحت أمر الأمير والكل في ذلة الأسير، فلم يكن هناك من يعرف الغرب، ولا من يئن من وطأة الكرب، ولا من يتوسل به العدو المحارب، ولا من يقرب من العسكرى المضارب. ونحن تحركنا والأمير مع العدو، والأمراء أنفت من الدنو، والنبهاء أعضاد للأجانب، والوجهاء نائمون في جانب. فكنا في مناوشات خارجية وحروب داخلية. وبسعى رجل واحد ضلّ الجميع وبددوا شمل نظامهم البديع، ولم ينظروا في العواقب ولا فيما يحل بهم من المعاطب. والفرق أوضح من النهار فاعتبروا يا أولى الأبصار.

فزحزح الهمّ عنك ما استطعت وتسلّ بما عليه اطلعت وإن تكن أفكارك في الهزيمة بعد تلك العزيمة وقيامك بالمفروض عليك ثباتك بما انضم إليك، فلك أسوة بالخلفاء والأكاسرة والملوك والقياصرة، ولا أبعد بك في وقائع الشرق، ولكن آتيك بالغرب محل الفرق لتروح أفكارك ببعض الوقائع وترد نفسك عن سورة الطبائع.

انهزم الإنجليز مع الفرنساويين أمام عساكر الرومانيين سنة ٧٨. وتبددت ممالك إيطاليا الرومانية بقبائل الاسترغود سنة ٤٦٠. وانهزمت جميع الجيوش الإنجليزية أمام غليوم الفاتح سنة ٩٧٠. وانهزمت إيطاليا أمام كرلوس مانوس سنة ٧٧٤. وانهزمت فرنسا أمام إيطاليا سنة ١٢٨٣. وانهزمت بروسيا أمام التونكية سنة ١٢٤٩. وانهزمت النمسا أمام سويسّه سنة ١٣١٥. وانهزم البرتغاليون أمام الفلمنك سنة ١٦٠٠. وانهزم.... وانهزم...(2).

---

(١) وعدد جملة من المنتصرين إلى أن قال: ومن..

(٢) وما زال يعدد جماعة من المنهزمين إلى أن قال: ولو شطحت... الخ.

ولو شطحت فى هذا المجال لطال بنا المقال وما علمت من تواريخ الأمم يمنعنى من التطويل الموجب للسأم. فسلّ نفسك بهذا وبعلمك وأعرض عن الجاهلين بحلمك. فإن من له أمثال لا يحمل أثقال. فروّح فكرك وفرغ ذهنك واستجل أنسك تستبق نفسك. فأمامك مستقبل أنت عصامه يجمع فريقا أنت إمامه، وادرس أحوال مصر فى المدرسة التى أسستها، واحفظ تاريخ الأمة التى سستها، فما كنا فيه كانت مدرسة ابتدائية ونحن الآن فى التجهيزية. وسندخل إن شاء الله المدرسة العليا يوم تنادى لك الدنيا. وما هذه رجوم ولا شوارد فهوم، ولكنها حقائق معلومة وفى لوح القضاء مرسومة، عرفها أهل البصائر وعمى عنها سود الضمائر. وقد تطاولت الأعناق بعظيم الاشتياق إلى ذاك الميقات وكل ما هو آت آت.إنى وإن كنت أعلم أنك على يقين بما حل بحزبنا وحزب الخائنين، ولكنى أذيل هذه الرسالة بعجالة لتعلم أى الحزبين أصبح بين العقلاء سريًا. وأى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا.

الثانيـــة

الغلبة متنوعة للغزاة والمتطوعة، فليست قاصرة على الظفر بالعدو ودفع الهرج بالهدو، بل قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة، وزيادة الاستبصار فى الأحزاب والأنصار، وتربية الأفكار فى مدرسة الأنكار، كما كانت الهيئة المصرية فى الحرب العرابية. وما علينا فى هزيمتنا بفعل الخائنين عار، بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، فأولئك هم أصحاب النار. وسيريهم الإنجليز ضد ما كانوا يطلبون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون...

أخى وصديقى: قرأت تاريخ هذه الأمة، وعلمت الأمور المدلهمة، فرأيت الأجنبى قد مد رجليه فى الصدور، واستمال القادة بالغرور، فبسط يده على البلاد، واسترق أحرار العباد، فلزمت الأفكار، وتركت الأوطار، وبعت نفسك لله لا للمظهر ولا للجاه. وقام معك الأمراء والقادة والعلماء والسادة. وقام أخوك ينادى بلسانك ويترجم عن جنانك، فسرى صوتنا فى البلاد، وتنبه الناس من الرقاد، وتبعنا من الوطن أمشاج، وتوارد علينا زمر وأفواج، فكان لفيفنا العجيب على هذا الترتيب:

مخلص أدرك ماقصدنا فقام يرصد ما رصدنا، ومتردد حائر مع النوازل دائر.

ومذبذب أن عظمت اللأواء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ومنافق ينقل عنا وإلينا ويحمل معنا وعلينا. وعدو ينسب إلينا البدعة وينصب لنا شرك الخدعة.

وساذج يتحرك إذا نبَّه، ويسكن إذا جبَّه، ولكل قسم نية ختم عليها الطوية. فالمخلصون أولئك الذين صدقوا، وبالحق نطقوا، وبالله استعانوا، فما ضعفوا وما استكانوا.

الثالثـــة

عندما دخل العدوان وتربع الطغام فى الديوان، تجملوا بالثياب وبرموا الأشناب، انتفخوا بنفس الغير ونهقوا بصوت الحمير، وتنهدوا فرحا واختالوا مرحا، وجردوا سيوفهم التى ما سلّت وحركوا أيديهم التى قد غلت، وقابلوا الإنجليز بالولائم، وتقربوا إليهم بالجرائم، وقدم لهم المنافقون النفائس، وصلّت لهم النصارى فى الكنائس وتلقوهم بالموسيقى والمغانى وتراقصوا معهم بالغوانى ـ كأنهم الظافرون بالإنجليز أو أنهم من غير الوطن العزيز ـ وجمعوا نقودا من سائر الناس وصنعوا سيفا لولسلى وسيفا لسيمور وطبنجتين مرصعتين بالماس. وكتب عليها مشير المنافقين «هدية ومعرفة جميل من المصريين». فدونوا لهم تاريخ ذلة بانتصارهم بعدو الملة.

ثم وضعوا الرحمة تحت نعالهم وجعلوا القسوة أجمل فعالهم، وداروا حول حزبنا فى البلاد يتصيدونهم فى الأصفاد، ثم ساقوهم إلى السجون وموارد المنون.

وقد خاطبوا العلماء خطاب الأسافل، وأخرجوا الأشراف لكنس المزابل، وأخذوا بالظـــن والتخمين وشـــنقوا الأبريـاء من المسلمين، فشنقوا اثنى عشر رجلا فى طندتا[أ] بشهادة امرأة يهودية، وتسعة بشهادة إلياس ملحمة فى الإسكندرية، وغيرهم فى غير هاتين ممن لم تطرف لهم فى الحركة عين.

وساقوا للشيخ عليشا إمام السنة إلى مستشفى قصر العينى فى الدجنة كأنه مجرم أو لفيف أو أنه لم يكن حافظ الشرع الشريف ـ وهناك جاءه العدو وسقاه[ب] فانتقل

(أ) طنطا.

(ب) أى وضع له السم.

إلى رحمة الله. وساقوا الشيخ العدوى وبقية العلماء وسجنوهم سجن الأدنياء لا دين يردعهم ولا وطنية تنفعهم.

وكل هذه الجرائم لم ترض رياضا الغاشم بل أراد أن يأخذك ومن سمع نداك ويقدمك قربانا لعداك. فبعد عن الرحمة والإشفاق واستحضر مخرطة لخرط الأعناق. وعقد مجلسًا ليثبت الحكم عليك ويسوق الحمام إليك. فطلب منه اللورد دوفرين الدليل فقال هذا حكم شرعنا الجليل، فقال دوفرين النص الشرعى مسلم، ولكن يقتل مع عرابى الخديو والسلطان المعظم، فإن الحرب قامت باتفاق الثلاثة عليها وحكمهم بحشد الجند إليها، فوجم رياض ولم يبد إعتراض. فقال له اللورد أنت لا تصلح للوزارة وإنما تصلح للجزارة، فإن من يحب ذبح ألوف من الأنام لا يليق للأحكام. فقدم استعفاه بأمر دوفرين لا برغبته وذهب إلى بيته بخزيه وخيبته. وانبنى على هذا المجلس حفظ جميع الأنفس مما كان محاربا أو نصيرا أو معضدا أو خفيرا، فصدق قول الصادق الأمين إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر. وفى رواية الكافر.

ولما سمعوا من دوفرين كشيش الأفعى علموا أن قد خاب منهم المسعى، فأخذوا يتشفون من بعض الأفراد ويتوعدونهم بالقتل والإبعاد. طلبًا للبرطيل بالترهات والأباطيل. أخص من بينهم أحمد فريد فإنه كان كالشيطان المريد. وقد ظهر حقده واغتياظه من أمين بك الشمسى وأحمد بك أباظة. وفعل مع أفراد الحزب فى الشرقية ما لا يفعله عريق فى البهيمية. وكذلك خليل عفت المنافق، فإنه شمر السواعد والمرافق وأخرج الشيخ محمد والشيخ أحمد نجلى الشيخ عبد الجواد لكنس الأسواق بين العباد. ثم مال للفعلة الخسيسة وأراد أن يكنسهما الكنيسة، فأبى القسيس ذلك واستعاذ بالله من هذه المهالك.

وإبراهيم أدهم الهلباج مزق الجلود بالكرباج، وشاركهم بقية المديرين بأنواع من العذاب المبين. فما خجلوا بفعلهم.

وإنى لآسف على يوسف أبى ديَّة فى غدوى ورواحى فإنه قتل ظلما بشهادة عبد الرحمن فايد وأحمد الصباحى. وما أحسن ما أبداه من الثبات وهو تحت مشنقة الممات حيث قال له إبراهيم أدهم تريد شيئا نحضره إليك قبل أن يجرى القضاء عليك؟ فقال له وأى شىء بعد أن قطعتم آمالنا. ولكن اليوم لكم وغدًا لنا.

كما آسف على سليمان داوود حيث قتل بلا شهود. ولكنهم خافوا أن يثبت عليهم مذبحة الإسكندرية فعاجلوه بسوق المنية. وكلنا بهذين الشهيدين مصابون إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا تسأل عن ظلم مشايخ القرى وما ابتدعوه من الافترا، فإنهم شفوا غيظهم من الأفراد وأظهروا كامن الأحقاد. فكل من كان من حزبنا نهبوه. وكل عدو لهم إلينا نسبوه، ليتشفوا بالانتقام أو بتقديمه إلى الحكام.

ولما انتهى أمر الانتقام بالنفى والإعدام، ظن الأعداء أن الجو قد خلا والوقت قد حلا، ولم يعلموا أنهم يخادعون الله وهو خادعهم، ويصدعون الدين وهو صادعهم، فأطالوا النوم والغطيط والله من ورائهم محيط.

الرابعـــة

رماهم الله بعدنا بسنين الضيق كسنى يوسف الصديق. ففى الأولى فتح عليهم باب السودان مملوءا بالعدوان، فجمعوا المخلصين لهم من الضباط من أسوان إلى دمياط، وساقوهم إلى تلك القفار وأسلموهم للسيف والنار، وفى الثانية ابتلاهم بالحادث فأخذ الموروث والوارث[1]. وفى الثالثة ابتلاهم بحريق القرى، وكثرة اللصوص فى العموم وفى الخصوص. ولا أدرى بماذا تأتيهم الرابعة من الدواهى المتتابعة.

هذا وقد أباد الله تعالى رءوس الأعداء وطهر منهم الأنداء من بقى منهم فهو فى قبضة الإنجليز لا يرون المجد ولا التعزيز. أيديهم عن العمل مغلولة ووجوههم بالذل مبذولة. وقد سنوا لهم قانونا أظهروا فيه جنونا، فقد نسخوا به الشرع الشريف وحكموا فيهم بنود التخريف، وصاروا كأكرة يديرها الإنجليز كيف شاءت لا تبالى أحسنت إليهم أم أساءت، ورقت كثيرا من الأصاغر من أهل الورق والدفاتر. والعمد انقطعت كلمتهم وضاعت سطوتهم وقد أخذ كل عمدة الرتبة الثانية ليفرح بها الغانية. ويسر عند قول الحمارة اركب يا بيه. وهو صفر اليدين لا له ولكن عليه.

وقلت فى نحو ذلك:

---

(١) يشير النديم إلى مرض الكوليرا الذى انتشر فى مصر سنة ١٨٨٣.

وزن الأنـــام الدهـــر فى ميزانـــه	ليرى لـــه مفضولهـــم والفاضـــل
فعـــلا مع العـــليا خفيـــف ناقص	وهوى مـع الســفلى رزيـن كامـل

الخامسة

إن حال الأحرار بعد النفى والأضرار، فقد فتح الله أبصارهم فتبصروا وصفى بصائرهم فتنوروا، وسقاهم شراب المحبة فائتلفوا وهداهم الصراط المستقيم فما اختلفوا. وإذا قيل للواحد منهم هذا عرابى المشرب فرح كأنه فتح له مطلبٌ. ألسنتهم رطبة بذكرك ومحافلهم ملأى بشكرك، وقد زاد محبوك ممن كانوا أبغضوك عندما رأوا فساد أحوالهم وانعكاس آمالهم، فهم أشد شوقًا إليك ممن كانوا يجتمعون عليك.

وإذا أتى منك كتاب إلى بعض الأحباب دار به على الإخوان كأنه فرحان. فأنت فى مصر وإن كان جسمك فى سيلان. فذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان. فاسجد لله تعالى شكرا على ما أعطاك من النعم ودفع عنك وعن حزبك النقم.

ثم إنى أرى بعض المذبذبين يميل إلينا ميل المحبين لغاية يؤملها وحاجة يحصلها فتراهم مشتغلين بالرمل والجفور والزيارج لكشف الأمور. وقد زاحموا المحبين فى المجامع وشاركوهم لتلك المطامع، وهذه غنيمة بلا قيمة وإن كانت معللة إلا أنها مكملة.

وبالجملة فقد جعلوك قطبا عليه سعودهم يدور والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

السادسة

لم يأتنى كتاب من ذاك الجناب إلا وفيه الشكوى من إخوان النجوى بما أظهروه من المعارضة والجدال والمناقضة، وسرعة ميلهم إلى الغضب من غير سبب وتعصبهم عليك ونسبتهم المكروه إليك.

ثم علمت برواية القادمين من سيلان تلون بعضهم بألوان، ونشره رسائل فى الجرائد

كلها للبغضاء مصائد - وعلى الخصوص ما جرى فى عقد الزواج من شرط المقاطعة والاعوجاج - إلى غير ذلك مما لم يكن فى الحساب أن يصدر من الأحباب.

ولكن مذهبى فى هذه الحوادث أنها تتوارد بتوارد البواعث. فإن الله خلق الإنسان طورا بعد طور ويقلبه فى مراده دورا بعد دور فهو مُقلِّب القلوب والأبصار ومنوع الخواطر والأفكار، والخلق مظاهر لمقتضيات مشيئة، وهياكلهم ظروف لأفعاله وحكمته. فإذا أحب عبدا اعتمد عليه وخلق الحسنة ونسبها إليه، وإذا مقت عبدا لا يرى الفعل منه خلق السيئة ونشرها عنه، فهو الخالق للعبد وللأفعال والمؤثر فى الشئون والأحوال.

وقد كانوا شاركوك فى دنياك وصاحبوك علياك. وكان الأمل علوّ المقام وطيب العيش والمقام، والإشارة إليهم بالبنان والاعتماد عليهم فى الأوطان، فانعكست الآمال وانتكست الأحوال، وترك كل أهله وإخوانه وأخذ الخصم مزارعه وبنيانه، وساءت به الظنون ونسبت إليه أفعال الجنون فى غربة لا يعرف لها حدا وكربة لا يرى لها ندا. أفما يعذر من هذه أحواله إذا تغيرت أقواله، وتحولت أنظاره، وتشوشت أفكاره؟

ولا يقال إنك واحد منهم تحمل اللوم عنهم، فإنك فى الغربة أشهر منك فى ديارك وفى منفاك أعز منك بين أنظارك، تزورك الملوك ويتبرك بك المملوك، والسائحون يركبون الأخطار لينظروك نظر الكرامةويهنئوك بالسلامة، وكتب الملوك متتابعة إليك ورسائل الأمراء واردة عليك. فإذا قست حالك بحالهم ظلمتهم، وإذا انحرفت بانحرافهم أبرمتهم،وإن لاينتهم ربحتهم، وإن جادلتهم خسرتهم.

ولا تقل وعظت فأكثرت وحذرت وأنذرت ودعوتهم ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا، فمثلك من يدأب بلا ملل ويحمل الأمر الجلل،فلا تضق ذرعا بإخوانك واجعلهم أهل يد هذه الرحاب، وقل لهم افعلوا ما شئتم فإنكم أحباب وهذه عوارض تنمحى بانمحاء الأسباب، وحجب ترفع إن فتحت الأبواب.

فتأن ولا تعاجل وانظر الآجل، وكأنك بهم وقد عادوا أحبابا، وطهروا أذواقا وألبابا وجاءوا إليك معتذرين يوم يقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم[أ]

﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾. كلا فإنهم فى بحار الفتنة سابحون. وبنور الألباب يخف المصاب وبممارسة الآداب تتلطف الأسباب. والعاقل من تنبه من نومه ونظر مستقبله فى يومه وحفظ عهده وعرف مجده، وتنبه للدقائق ووقف عند الحقائق.

وصفة إخوانى الوزراء وأحبابى الأمراء فمنهم محمود العواقب وسامى المراتب[ب]، ومنهم على الشأن محب الجنان[جـ]، ومنهم محمود السيرة بالهمة الكبيرة[د]. ومنهم يعقوب الأمل رجل العمل[هـ]، ومنهم عبد العال واحد الرجال[و]، ومنهم طلبة الخير البعيد عن الضير[ز]. ذكركم بين الأحباب جميل وقدركم عند العقلاء جليل، فإن بعض الناس انحرف عنكم وظن أن الغدر وقع منكم، فلما انكشفت عن الحقيقة الستور وظهرت خفايا الأمور أشفق عليكم العدو قبل الحبيب، وحنّ إليكم الوطنى والغريب. وقد اشتغلت بعودتكم الأفكار وتوجهت إليكم الأنظار. فإذا لم تكن عهودكم وثيقة ورابطة جمعكم أنيقة وعدتم إلى الديار على التباعد والنفار ساءت بكم الظنون ومالت عنكم القلوب والعيون. وصرتم عرضة للدسائس ومرجعًا لأهل الخسائس، وذكركم المؤرخون بالنقائص وجردوكم من الفضل والخصائص، وأنكرت أوربا دعوتكم الوطنية وتبجح عدوكم بنسبة الهمجية. وأعيذكم بالله وكل آية من وصولكم لهذه الغاية. فائتلفوا قبل الإياب واقتلوا الضغائن بالعتاب. وحققوا لمن عندكم ترك العدوان حتى تتركوا لكم ذكرًا جميلًا فى سيلان.

(أ) اختصت هذه الرسالة فى افتتاحها بالبسملة.

(ب) محمود سامى البارودى.

(جـ) محمود فهمى.

(د) على فهمى.

(هـ) يعقوب سامى.

(و) عبد العال حلمى.

(ز) طلبة عصمت.

ولست ممن يرجون عودتكم لغاية يرجونها ودنيا يصيبونها. كلا. فإنكم تعلمون ما كنت عليه ومذهبى الذى أميل إليه. وقد كنت أدعو لكم بلا علة وأنشر عنكم فضيلة وخلة، وأطنطن بكم فى الجرائد والمخاطب والأنداء، وأحاطم عنكم الأجانب والمعارضين والأعداء.

ودينى الذى فطرت عليه ومذهبى الذى أميل إليه هو تحرير العباد، وإصلاح البلاد، وإظهار مد الدين وتأييد المؤمنين. وكانت جريدتى[أ] تنشر بلا قيمة لتكون دعوتنا عميقة.

ثم إنى الآن فى حفظ ربى الأعظم وحماية جدى الأكرم أتقلب على فراش النعمة لا ينالنى شىء من النقمة. وكتبت كتبا عديدة ودونت أسفارا بعيدة، كل هذا وأنا فى رعاية خالق الأجسام والأرواح لا فى حضانة حملة السلاح، ولا أقول هذا منّا عليكم ولا لنسبة التقصير إليكم. بل لتتأكدوا صدق عزيمتى وتتحققوا بقائى على نيتى وتعلموا أنى أرجو عودتكم لكم وللبلاد لا لى ولا للأولاد. فوثوقى بالله أشد من وثوقى مما فى يدى ووسيلتى إليه جدى وسندى، فارجعوا إلى الإخاء الحق والتزموا فى المودة الصدق، ولا تسودوا وجوهنا بين أهل مصر، ولا تخجلونا أمام نبهاء العصر، فإنى أنشر عنكم من الأخبار ما لا يؤثر إلا عن الأخيار من ألفة أكيدة ورابطة شديدة وإخاء لا ينحل ووفاء لا يختل.

والمرجو من الحق تعالى تحقيق الأمل وحسن العمل، فتردون علينا مؤتلفين كما رحلتم عنا متفقين، يوم تسألون فى وطن عنه ارتحلتم فيقال لكم اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم، وتعودون بالمظهر والجاه لا بغضب الله، وتكونوا كإخوة يوسف الصديق عند اجتماع كل فريق. وينادى فيكم نديم عند دخولكم مصر آمنين لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

(أ) التنكيت والتبكيت، والطائف.

الملحق الثالث

صحيفة المقطم، عدد ١٣٨٠٤ فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠١ (المراسلات) *

ـ مراسلة وكيلها بشأن حديثه مع عرابى عند وصوله للسويس.

ـ مراسلة مكاتبها فى دمنهور تتعلق بدفاعه عن عرابى.

المراسلة الأولى(١)
السويس
لوكيلنا فى ٢٧ سبتمبر
مقابلة عرابى (باشا)

وصل أمس إلى المقطم تلغراف أن عرابى (باشا) وعائلته تسعة عشر وأربعة خدم، وصلوا السويس تقلهم باخرة ألمانية، أبحرتُ اليوم إلى عرض البحر حيث الباخرة، فدخلتها وقابلت عرابى (باشا)، فلقيت منه مؤانسة ولطفا، ودعانى إلى التغدى معه، فأجبت طلبه، وشربنا القهوة سوية، ثم طفق يحدثنى عن أهالى سيلان، فقال إنه كان موضوع إكرامهم مدة إقامته فيها، وأنهم كرماء الأخلاق، لطيفو المحضر والمعاشرة، وكان يقضى وقته فى الصلاة والنزهة فى الجنائن والخمائل، وأن أكابر زائرى سيلان كانوا يقصدونه لرؤيته ومحادثته.

---

(١) كانت صحيفة المقطم ـ ذات الهُوية الإنجليزية ـ قد سارعت لتسجيل حدث عودة عرابى من المنفى، حيث وجدت فى استقباله ورقة رابحة، تُمكنها من إثبات أن الذى قاد الثورة من أجل الإصلاح، أصبح يعترف بأن ما كان يسعى إليه قد تحقق على يد سلطة الاحتلال، وذلك فى وقت كثَّف فيه كرومر المعتمد البريطانى فى مصر مواجهته مع الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل، وأيضا الخديو عباس حلمى الذى كان مناوئا له منذ توليه الخديوية.

وسألنى هل الاستبداد باق فى مصر، فقلت له إن الحالة تغيرت كثيرا، وسكان قطرنا رائعون فى بحابح الحرية بفضل رجال الإصلاح، فبدت على محياه علامات السرور والانشراح، وشكر الحكومة الإنكليزية ودعا لسمو الخديو المعظم لصدور أمره الكريم بالعفو عنه.

وقد استحضر معه مئة وأربعين طردا منها سبعون طردا من الأمتعة، والباقى من الأشجار التى تنبت فى سيلان ولا وجود لها فى مصر، وثلاث بقرات نادرة الوجود بمصر. ثم إنه ودع ضباط الباخرة والسياح الذين فيها، وشكرهم لحسن صنيعهم معه، وركبنا هو وأنا وسائر عائلته والذين جاءوا لاستقباله وابورا بخاريا صغيرا إلى الصحة البحرية، حيث رأى جناب المستر إتفلد شهادة طبيب بأن الكل فى صحة جيدة، ثم جرى بنا الوابور إلى البر، وقصدنا محطة سكة الحديد، واتفق أن القطر كان قد سافر، وسيبقى عرابى (باشا) والذين معه إلى يوم الاثنين، فيسافر فى الساعة العاشرة والربع قبل الظهر إلى القاهرة.

وقد سألنى عن اليوم الذى يصل فيه الجناب الخديوى المعظم، فقلت له أن سموه يصل الإسكندرية يوم الاثنين القادم. وكان يسأل أقاربه عن آبائهم وأولادهم، وحالة الزراعة فى القطر المصرى، ومعاملة عمد البلاد للمزارعين، ثم تبسم وقال: جزى الله رجال الإصلاح عنا خيرا.

ولما وصل عرابى (باشا) إلى المدينة استعلم من محافظتها عما إذا كان قد ورد عليها تعليمات عن تسفير عائلته إلى مصر، فأجيب أنه لم يرد، فأرسل رسالة برقية إلى سعادة نائب وقائمقام الخديوى يطلب فيه تسفير عائلته إلى مصر، فورد على المحافظة أن تجيب طلبه.

وقد زاره كثيرون من الأهالى، فكان يقابلهم بكل بشاشة ولطف، وأخبرنى أنه معجب بتقدم السويس، من جهة نظافتها، وانتظام شوارعها، وقد زايلنا بعض من الذين جاءوا لاستقباله. وسيرافقه حضرة الوجيه الكامل أحمد أفندى مقبل من أعيان مركز أبى حمص إلى مصر، وربما وافى المقطم برسالة طويلة عنه.

وعلمنا أن عرابى (باشا) أنشأ أربع مدارس عربية فى جزيرة سيلان، ولما ذاع خبر سفره، ودعه التلاميذ وهم آسفون لفراقه.

المراسلة الثانية[1]

دمنهور

عرابى (باشا)

لمكاتبنا فى ٢٩ سبتمبر

بعد أن كانت الأمة المصرية كبيرها وصغيرها ما عدا بعض عظمائها يتغنون بمدح عرابى ويلقبونه بحامى الديار، ومنقذ الوطن، ورجل مصر، والبطل الضرغام إلى غير ذلك من النعوت. وبعد أن شدوا أزره ووافقوه على قصده وفكره، وبعد أن دفعوه للسير بالطرق التى أرادها أو رأوها منقذة للبلاد من زعمهم، وبعد افتخارهم به وبأعماله، وبعد أن وقفت جرائد كثيرة لأبناء البلاد على ذكر أعماله والتفاخر بها، قاموا الآن يندون وبآرائه وبحركاته وسكناته لا بل يلقبونه بالخائن بدلا من الأمين، والجبان بدلا من الشجاع، وبائع البلاد بدلا من حاميها. ولم كل هذا الانقلاب؟ الجواب بسيط، لأن المقادير لم تساعده، ولأنه طلب واسطة إنجلترا للعفو عنه، وفاتهم بأنا لو نسبنا الخيانة إلى هذا الرجل تلطخنا بأوزارها، لأن معظم الأمة وافقته لا بل دفعته فى ذلك الأوان على أفعاله والسير بالطريق التى سار عليها، ولو نسبناه إلى الجبن كما نسبه بعضهم، لكنا كلنا حائزين لهذه الصفة، لأنه ماذا يستطيع القائد أن يفعل إذا خذلت الجنود فى ساعة الشدة؟ وماذا يستطيع حامى الوطن أن يصنعه، والذين كانوا يلقبونه بذلك تركوه، ويؤاخذه بعضهم بمدحه الحكومة الحاضرة.

ولهذا لم يتركوا نقيصة لم يذكروها له بحق وبغير حق. الرجل يقول كنت ساعيا للخير، ومتى كنت ساعيا لكبح الظلم كنت ساعيا وراء الحرية، فوجدت أن البلاد نالت الآن بفضل الحكومة الحاضرة، ما كنت ساعيا إليه. هل كفر عرابى حتى قامت عليه القيامة لأنه مدح الحالة الحاضرة؟ وهل يا إخوانى يعاب من يقول الحق؟ أين الكرباج.. أين الظلم.. أين المغارم.. أين أين..؟

ألم يكن سعى الرجل بموافقة الأمة؟

---

(١) يتضح من المكاتبة أن صاحبها يرفع من شأن عرابى، ويلتمس له الأعذار، فى وقت قرنت فيه الحركة الوطنية ثورته بالاحتلال، وأنه مما زاد الغضب عليه ليس فقط تصريحاته الإيجابية الخاصة بالإنجليز، ولكن كذلك لأن سعى ولى العهد البريطانى فى إطلاق سراحه، زاد من الهجوم عليه.

يقول خصومه الآن إنه سبب الاحتلال واستعبادنا لرجال الاحتلال، فهل هو المسئول الوحيد عن الاحتلال؟ كلا، فإن الأمة بأكملها هى المسئولة، لأنها كانت برمتها دافعة له. وقبل كل شىء يلزمنا أن نبحث، هل الأمة وفى مقدمتها عرابى (باشا) كانت تقصد هذه النتيجة؟ كلا وألف كلا. وأظن أنه لا يوجد رجل له فكر يعتقد أن الأمة وعرابى كانوا يقصدون جر الاحتلال، بل كان قصده وقصد الأمة الاستقلال عن كل مداخلة أجنبية، ويكفى لمن كان مثله أن يتمثل بقول من قال:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن يساعده الدهر

فقد كفى ما حل بالرجل من البلايا، فاتركوه يقضى البقية الباقية من أيامه ناعما غير منغص، لأنه كان يقصد خيرا، فانقلب على زعمكم شرا، وما ذلك إلا بسببنا نحن، لأننا لم نكن أمة خية.

ألا يوجد الآن بيننا من يظن أن يأتى بالقريب العاجل، يوم تحتل فرنسا مصر، وتخرج الإنجليز منها. ألم يخطب خطباؤنا محرضين مهيجين ضد الاحتلال؟[1] فإذا وجدوا من الأمة سميعا يطاوعهم على أفكارهم، وقاموا بما يرغبون، وفى النهاية لم تساعدهم الأحوال. أكان يعجبهم أن يسميهم خصومهم جبناء خونة؟ نستحلفكم بالله يا إخواننا أن تتركوا الرجل وشأنه، ولو وافقناكم وقلنا إنه أخطأ، فهل هو الرجل الوحيد الذى أخطأ، أليس كثيرون من القواد والملوك نالهم الفشل، وأتت الحوادث ضد ما كانوا يقصدون، فهل من العدل أن نسميهم خونة وجبناء.

أقسم بالله إننى لا أعرف هذا الرجل إلا بالاسم، ولم أكن من أنصاره، بل كنت من الذين يرون غير رأيه. أقسمت هذا القسم لئلا يتهمنى خصومه بأنى أدافع عنه لسابقة صداقة، أو لأننى كنت مستحسنا لأعماله، فإذا تقرر ذلك، أقول إن سبب دفاعى عنه هذا، لأننى أرى أن ما حصل له كاف، وأن الرجل يستحق الدفاع لأن مقاصده كانت حسنة، ونياته لبلاده نيات من يريد لها الخير لا الشر، فإذا لم تساعده الأحوال أو أنه

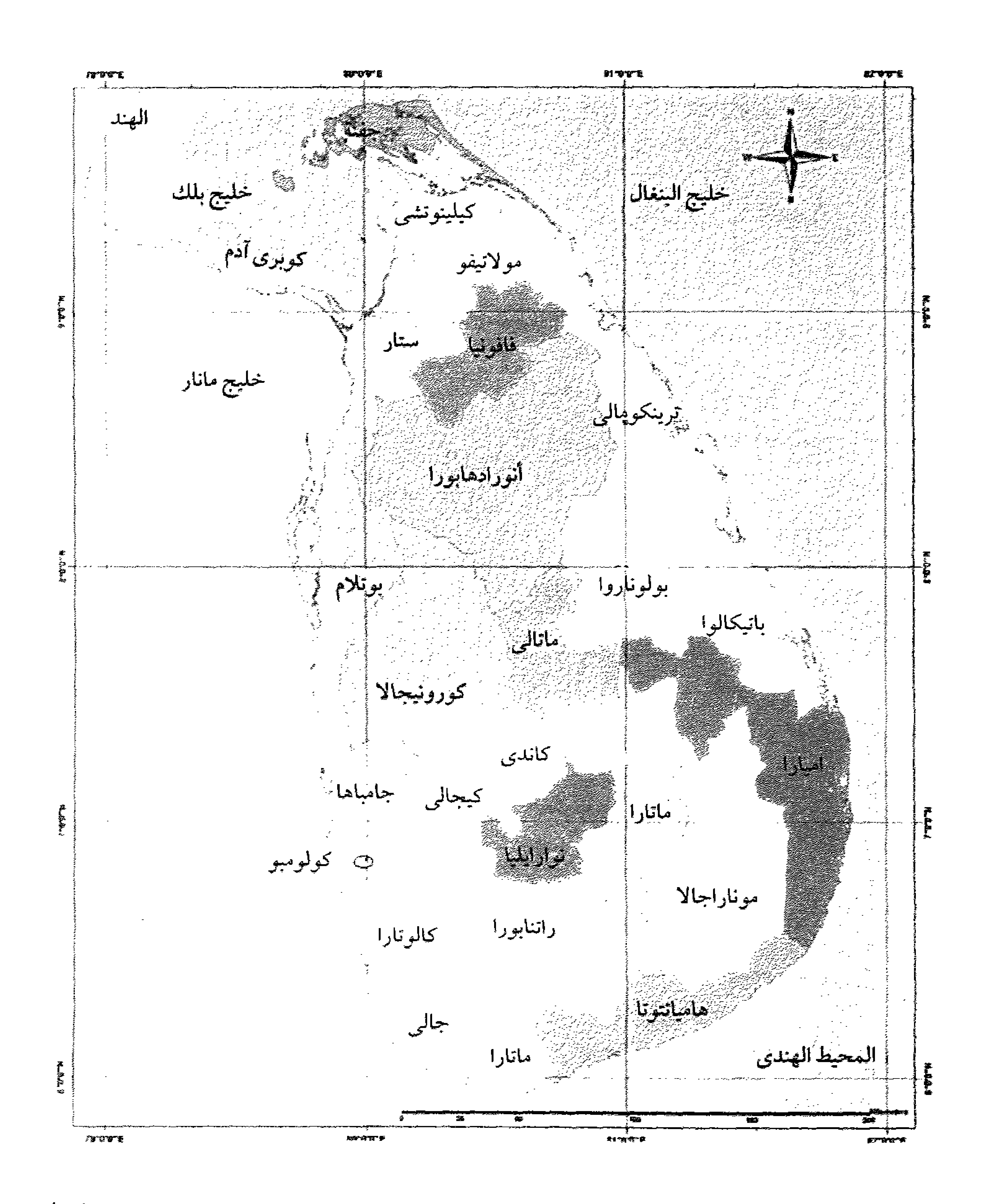
---

(١) المقصود مصطفى كامل وأتباعه الذين تولوا قيادة الحركة الوطنية، والكاتب يعنى أن عملهم سوف ينقلب عليهم، وخاصة فى مسألة الاعتماد على فرنسا التى تجد من يشجعها على أن تحل مكان بريطانيا فى مصر. وبالطبع كان الموقف الفرنسى يقلق لندن، مما أسفر عن عقد الوفاق الودى عام ١٩٠٤ الذى نص على تبادل المصالح بين الدولتين الإمبرياليتين بشأن مصر ومراكش.

أخطأ باندفاعه مع تيار الأمة والجيش، فأرى أنه لا يستحق أن يلقب بالخائن، وأرى أن إخوانى أبناء البلاد الذين يجاهرون بعداوة هذا الرجل، وهو بهذه الحالة، يأتون أمرا يؤاخذون به، إذ ما الفائدة من ذكر معائب الرجل على فرض صحتها، أيخرج الإنكليز من مصر، وتضمن لنا الحرية والإصلاح بعد خروجهم؟ إن بين ذم عرابى وخروج الإنكليز بونا بعيدا، فإن ذلك شىء، وهذا شىء آخر، فاتقوا الله عباد الله والسلام.

الملحق الرابع

خريطة جزيرة سيلان



عرابى ورفاقه فى جنة آدم

١٨٨٣ - ١٩٠١

دراسة وثائقية

يتناول هذا الكتاب الشائق قصة أحمد عرابى ورفاقه الذين نفاهم الاحتلال الإنجليزى إلى جزيرة سيلان، بعد قيامهم بالتمرد على كل من الحاكم والمحتل. فتقدم لنا المؤرخة الكبيرة د.لطيفة محمد سالم صورة حية للمنفى كموضوع تاريخي وفى الوقت نفسه كحالة معاناة إنسانية قد تدفع الواحد لتغيير جانب من آرائه، أو تدفع التحالف إلى الخلاف بل والعداوة أحياناً، ورغم أن هذا الموضوع المثير ظل لوقت طويل خارج أجندة البحث التاريخى فإن المؤلفة استطاعت وبحنكة الباحث المدقق أن تصنع من الشذرات المتفرقة فى الكتب والدوريات والوثائق كتابًا تأسيسيًا فى موضوعه.

يفصح الكتاب -ولأول مرة- عن تفاصيل ما جرى لعرابى ورفاقه الستة، وهم فى المنفى بجزيرة سيلان، وعلاقتهم ببريطانيا، ثم الخلافات التى نشأت بينهم، وسعيهم إنسانيًا وسياسيًا للخلاص من هذه التجربة الأليمة بعد أن سكنتهم الأمراض ولم يعد الأمر يحتمل، حتى إن بعضهم فارق الحياة دون أن يتحقق له أمل العودة إلى الوطن، وكذا عودة بعضهم والمساعى التى بذلت فى هذا الشأن ليعودوا منكسرين كما [illegible] مهزومين بعد وقوفهم أمام أعتى سلطة خديوية يدافع[illegible] حرية المصريين، ثم تصديهم لأعتى قوة عالمية، مدا[illegible] حرية مصر ضد التدخل الأجنبى.



6 221102 024259

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى

دار الشروق
www.shorouk.com